

الواحدة بتوقيت العاصفة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/١٩٠٠٠

بطاقة فهرسة

صفوت ، محمد

الواحدة بتوقيت العاصفة: رواية/ محمد صفوت، ط ١

- القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

٣٤٤ صفحة؛ ١٤ X ٢٠ سم

تدمك: ٠ - ١٥٤ - ٧٨٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣



دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

مروة صلاح

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

الواحدة بتوقيت العاصفة

(رواية)

محمد صفوت



إهداء



إلى شهرزاد

"التي نفخت فينا من روحها"





"تعلّمتُ فن الطهي أثناء محاولاتي العديدة لكتابة حكاية ناضجة."

(السارد العليم)



مُفْتَتَح

ماذا تفعل في الخلاء الشاسع الذي يسعك وحدك؟

أنت ولا أحد، أنت ولا شيء، دون أصدقاء تأنس إليهم، ولا امرأة تهوي إليها بوجعك،

ليس هناك مقهى تتمدد قبالة لتراقب حركة المارة أمامك؛ إذ ليس هناك من مارة.

لن تمارس هوايتك في التلصص على الأحاديث العابرة للجالسين والواقفين جوارك في عربة المترو، أو التسكع أمام واجهات محلات الملابس، أو فرشة باعة الكتب.

لن يستوقفك وجهٌ قديم تقابله مصادفة في أحد الشوارع الجانية ليسألك: أين تختفي منذ سنين؟

لن تتبادل سجائر مع شخص لا تعرفه يقف بجوارك في انتظار مقعد خالٍ في سيارة الأجرة القادمة، ولن تتشاجر مع مديرك في العمل حين يسألك

بـ(جليطة) مُستفزة عن سر تعيُّبك، فتجيبه بتلقائيتك المفرطة: "وأنت مال أهلك".

ليس ثمة جيران تضحك على تفاهاتهم الصغيرة حين تعبر إليك خلال نافذة المطبخ، فلم يعد هناك نافذة أو مطبخ أو شقة صغيرة لها مطبخ بنافذة تعبر إليها تفاهات الجيران.

لم يعد هناك ذكريات موجعة تُهاجمك ساعة نومك، أو أخرى طريفة تبسم بعدها وأنت تتمتم: "كانت أيام".

حتى الآن لا أعرف أين ذهب العالم وأنا نائم، ولا لماذا لمنلم العالم حاجاته سريعاً في أثناء غفوتي واختفى؟

لا أعرف إن كان العالم سيعود ثانية غداً أو بعد غد؟

لكنني فيما يبدو الناجي الوحيد مما حدث للعالم!

أجري مذعوراً، أو اصل الركض المجنون في الفراغ الشاسع الذي يشبه قطعاً متصلة من سحبٍ أبيض لا ينتهي، ألهثُ دون أن أتوقّف، لا أعرف إلى أين، لا يمكن أن تلجأ إلى السكون حينما يملكك الفرع، ربما سأجد رسالة أو شفرة ما تفسر لي ما حدث، كأني سأجد العالم وقد تحفّى مني في إطار لعبة سخيقة وسيعاود الظهور فجأة، يقول: أنا هنا تحت السرير. يتتابني

التعب والإرهاق، أستسلم للسقوط، أسقط، أهوي في الفراغ، سابحاً عبر هذا الخلاء والسديم اللامنتهي، والذي أحيا فيه وحيداً، يملكني الآن شعوراً بالخواء العظيم كنقطة سوداء وحيدة في صفحة بيضاء بحجم الكون، أو اصل السقوط السريع، لا ينتهي الفراغ الذي يشملني، ليس هناك ما قد أرتطم به في النهاية. أشعر بالارتياح حينما أجد أن أثقالتي القديمة تتساقط عني تباعاً، تنقطع معها كل تلك الوشائج التي تربطني بهذا العالم المُنْدر، لا شوارع ولا معالم تستدعي تفاصيل مبهجة أو مخزنة، وليس ثمة شخص قد تُذكرني بأوجاعي القديمة، تروقني خفتي المدهشة وأنا أُحلق في السديم الذي يحملني دون أن يبدو لذلك نهاية قريبة، كريشة انفلتت من جسد طائر، ثم راحت تتطوح بعفويتها الطاغية تاركة نفسها للريح تتأرجح بها في لعبة مثيرة لا تنتهي. يفارقني القلق والتوتر الذي سيطر على أعصابي، رويداً يعود لي الهدوء والصفاء، فأتمتع بمفردي في كل هذا الملكوت الذي هو لا شيء. إحساسٌ نادر أن تجد نفسك وسط أطلال العالم وخرائب المدن وحيداً، تُخلق خلال كل هذا الفراغ الممتد والذي كان عالماً، كأنه خُلق لك وحدك، لا يشاركك فيه أحد، تعيشه بملمسه البكر، الصافي المصفي من أجلك فقط.

تملكني الآن أسطورة طاغية، أنني سأتحمل وحدي عبء إعادة إنتاج البشر من جديد، عبر نسخة جديدة مُحَدَّثة للبشرية، بإصدار جديد كامل

مزود بكل البرامج التي يجب أن يتسلح بها البشر بعد خبرتهم الطويلة مع هذا العالم. ربما قد خصتني الأقدار بمسئولية إعادة تشكيل العالم من جديد بمزاجٍ رائقٍ وخيالٍ جديدٍ ومن دون عجلة.

يحتاج العالم بالفعل إلى إعادة تدوير؛ ربما ليبدو مقبولا ومُبررا؛ إذ ليس من المنطقي أن يظل يُدار هكذا بتلك القوانين القديمة، التي لا تتناسب مع ما وصلت إليه البشرية من تطوُّرٍ عبر كفاحها المرير، منذ أن سقط آدم بتفاحته على هذه الأرض. التفاحة ذاتها التي ساقَت نيوتن إلى اكتشاف الجاذبية، التفاحة التي ربطتنا بالأرض منذ البداية.

"ماذا تصنع في خلائك الفسيح سوى أن تصنع لنفسك حكايات طازجة حتى لو كانت مُختلفة؟

المهم أن تؤديها بصدق".

ماذا يفعل إبليس منذ هبط؟

يُخْتَلَق حكايات كاذبة ينسجها بصدق ثم يرمي طرفها لأول عابر. كما يلتقطها بشغف متوهما أنها حكايته الخاصة التي أُعدت له خصيصا، فلا يملك بعد ذلك سوى أن ينغمس في لحمها مبهورا بخيالها المقنع.

يتخفى العالم مني لسبب لا أعلمه ويتركني وحيداً في هذا الخلاء الأبيض الشاسع، فمنذ استيقظتُ من غفوتي هذا الصباح لرغبتني الملحة في التبول كان هناك ما هو أكثر من مؤامرة تحدث حولي، حين عزمْتُ على النهوض تحسستُ فراشي، لكن لم يكن ثمة سرير من تحتي، رغم أنني وككل يوم قد نمْتُ على سريرِي، بحثتُ عن حذائي الذي أحرص دائماً على تركه أسفل السرير في وضع الاستعداد دائماً دون جدوى. ستائر من العتمة تنسدل على عينيّ، تضع حُجباً وراء حُجب، تحسستُ بيدي على الكومودينو بحثاً عن نظارتي أو علبة السجائر، فلم تصل يدي لشيء، بحذر سلكْتُ طريقي في الظلام لأفتح نافذة الغرفة، بالأمس ككل يوم كانت النافذة بستائرهما البيضاء هنا على يمين الغرفة، لسببٍ أو لآخر لم تعد النافذة هنا، وقفت حائراً مبتلاً بدهشتي في منتصف الغرفة، اتجهتُ نحو باب الغرفة، الباب الذي حتى مساء أمس كان هنا على اليسار، درتُ عدة دورات في الغرفة لكنني كنت أعودُ إلى نفس النقطة دون أن أعثر على الباب، بحثتُ عن زر الكهرباء دون جدوى، رغم أنه كان حتى أمس يقع على يمين باب الغرفة، ذلك الباب الذي لم يعد موجوداً، أو موجوداً ولا أراه أو يتخفى مني لسبب لا أعرفه، كنت أظنُّ أنني أمام كابوس مفرع، بدأت أفكر من جديد محاولاً السيطرة على أعصابي المتفلتة.

إذا وقفتُ في منتصفِ الحجرة أو ما أظنُّ أنه منتصفِ الحجرة، ثم سرْتُ بشكلٍ مستقيمٍ مسافةَ مترين تقريباً إلى الأمام سأصطدم بالدولاب، الدولاب الذي بالأمس وضعتُ فيه ملابسِي قبل أن أنام كما كل يوم، سرْتُ بشكلٍ مستقيمٍ، لكنني لم أرتطم بشيء، انحرفتُ يميناً ويساراً دون فائدة.

هل تعرضتُ للسرقة؟ أياكون اللصوص في أثناء غفوتي قد تمكنوا من سرقة سريري وحذائي والنافذة والدولاب وباب الغرفة وأرضيتها وحوائطها؟

أخذتُ طريقي للحمام، فشلتُ في ذلك أيضاً لسبب بسيط أن باب الغرفة الذي سأنفذ منه إلى ممر ضيق يوجد الحمام على يمينه ليس موجوداً، اتجهتُ إلى الحائط أو ذلك الفراغ الذي كان الحائط يشغله حتى أمس، لسبب غير مفهوم يتبول الناس دائماً بجوار الحائط، ولنفس هذا السبب كنتُ مُصرّاً على ذلك رغم عدم وجود حائط، أفرغتُ مثانتي تماماً، بدا رأسي فارغاً سوى من تنميلة قوية تسري بخدر في مقدمته، الموضوع أكبر من مجرد سرقة، احتمال مرعب بدأ يهاجمني، قد أكون فقدتُ حواسي، المرء دون حواسه يصبح مجرد جسدٍ لا يقوى حتى على أن يستشعر سرواله، بدأتُ أجري مفزوعاً، أصبحُ في عصبية أبحث عن أي شيء يمكنني أن أحطمه دون جدوى. أجري هنا وهناك، جريتُ كثيراً ولفترة طويلة، لا يمكن أن أكون بعد كل هذا الجري في تلك المساحة التي هي شقتي الصغيرة.

صداع شرس يكلش بمخالبه في فروة رأسي، ينكمش الظلام فجأة أمام عيني، يتضاءل ويتضاءل إلى أن يصبح نقطة سوداء صغيرة تنفلق وتتلاشى ويولد منها وهجٌ أبيض مشتعل يكاد يلحس بصري، أغمض عيني، أوأصلُ الركض، تأتيني الشجاعة لأفتح عيني ثانية، لأجدني في هذا الفراغ الأبيض الشاسع على مرمى بصري، يمتدُّ ويمتدُّ أمامي بطول الكون.

الآن أشعر أنني قد نضجتُ كثيرًا، ربما من عظم المسؤولية الملقاة على عاتقي، أتحيلُ نفسي وقد جللني شيبٌ وقور لا يتناسب مع هذا الإحساس الذي يتملكني كطفل وحيد يلهو وحيداً وسط كل هذا العالم الخالي من حوله، رغم ذلك أشعر أنني في مأزق عظيم، إذ كيف يكون المأزق العظيم إذا لم يتجلَّ في محنة إنسان مُفرغ من حكايته، لا يعرف لنفسه اسماً ولا ملمحاً؟!

فالحكاية هي التي تحكم العالم، دُعك من كل هذا الهراء المُسمى بالمؤمرات الكونية أو حروب الجيل الرابع التي كانت تحتاح العالم قبل أن يحدث ما حدث له وأنا نائم من أجل إعادة تقسيمه أو تفتيته؛ لأنها تتم بخيال ساذج يفتقد للرؤية العميقة، كما أن الحروب الكبرى التي كانت في وقت من الأوقات قادرة على جذب انتباهنا كحكايات مرعبة فقدت طراجتها وباتت مُستهلكة، إذا لم يعد الضمير الإنساني يحتاج كثيراً أمام الدم المراق هنا أو هناك.

"بدأتُ على الفور في تنفيذ تصوراتي من أجل أن أكسوعظام هذا الخلاء بحكايات جديدة، صنعتُ عوالم عديدة من حولي. غاباتٍ وجبالاً وبحاراً وموانئ، أقمْتُ مدينةً عظيمة في الفراغ المحيط. ووهبتها ضفة نهر عظيم تتسند إليها. ولأن الحكايات دائماً تحتاج إلى شخوص تسكنها وتحيل سكونها ضجيجاً وصخباً، فكان لزاماً عليّ أن أخلق لحكايتي الجديدة شخوصها.

وضعتُ تصورات عديدة لكل تلك الشخوص الذين سيملأون فراغ حكايتي، أخطط أن يسكنها عمالٌ ورهبانٌ ودراويش وبحارة، سائق عربّة إسعاف وبارمان، ملوكٌ وعبيد، نحاتون، لصوص ومهرجون ونساء جميلات يفتنّني.

حين أنتهي سأزرع في طريق كل منهم بذرة حكايته الخاصة. والذي عليه بعد ذلك أن يرعاه ويتعدها بالسقاية لتنمو رويداً رويداً تحت عنايته وعينه دوحة وارفة تُظلل قامته.

سأكتفي بأن أمنحهم جميعاً حكايات طازجة مقابل أن يشاركوني حكايتي ووحدتي القسرية في هذا الخلاء. ربما أعاركهم أو نتبادل الحب أو الكراهية، وقد نصل إلى حدّ التصادم من أجل خلق صراعٍ مُثير قد يؤدي إلى لا شيء.

سأهَبُ نفسي أدوار بطولة لا تنتهي. لا يمكنك فهم ما يدور حولك في هذا العالم وأنت مُقيّد بدور واحد تؤديه كبطل عاجز. سأكتبُ حكايتي بتأنٍ. أقبضُ على شكيمتها كي لا تطوحني من فوق ظهرها.

سأحدث عن كل تلك القضايا المعقدة حد التفاهة، والتافهة حد التعقيد التي أرهقت أرواحنا منذ الأزل وما زلنا نتوقف أمامها دون أن نتجاوزها أو نتخطانا في عبثٍ لا ينتهي وجحيمٍ دائمٍ تُشعله أدوات الاستفهام اللعينة التي ليس لها دور في اللغة سوى أن تشعل داخلنا معارك وهمية تقودنا إلى حافة الضجر.

سأحكي عن قلقي الشديد من أن أصحو ذات يوم فلا أجد أقلام رصاص من الخشب؛ لأن الناس استخدموها في التدفئة بعد أن أحرقوا كل أشجار الغابات والحدائق واستهلكوا كل ما لديهم من أثاث خشبي لمواجهة موجة الصقيع الشديدة، وعن أحلامي العريضة في أن تتخلص الإنسانية من أوجاع الأسنان وأن تقضي نهائياً على نزلات البرد. سأكتب عن مشاعر إنسانية منسية، كحالة ضيق لرجل مُحبط يفشل دائماً في اتباع رحيم غذائي بصفة مُنظمة، أو أحاسيس سيدة حزينة تمتلك نهذاً بحجم ليمونة. جوهر العالم قد يتجلى هنا ومحنة الإنسانية قد تتمحور هناك. عند ما نظنه عابراً أو تافهاً.

ربما سأحدث في حكاياتي الكثيرة التي سأكتبها عن كل ذلك وقد لا أحدث عن أي شيء من كل ذلك. لكن الأهم أن أجد تلك الحكايات الجديدة التي سيدثر بها العالم عثره القبيح.

ماذا سيتبقى من العالم إن انتهت منه الحكايات؟

الفناء لن يأتي إلا حين تنقطع الحكايات، أو حين يُصيبنا الملل.

من أجل ذلك يبدو العالم الآن أكثر احتياجًا من أي وقت مضى لحكاية جديدة ناضجة ؛ لتملأ كل هذا الخواء العظيم الذي يشملنا، سيجعل ذلك العالم مقبولاً، وستمَدنا الحكاية إذا ما فهمنا قوانينها ومنطقها الخاص بتفسيرات معقولة لما حدث أو يحدث حولنا، وستجعل ما يمكن أن يحدث مبرراً تماماً.

أنا الناجي الوحيد، أنا مَلِكُ هذا الخواء بعرض الكون وطوله، أنا مانح الحكايات، والموعود بحكاية تستره.



القسم الأول

البدايات والتكوين

بذرة تحمل جينات الحكاية تغرسها يدٌ غير محايدة.



- ١ -

ابتعتُ عدة مناظير ضخمة من بائع المناظير الذي صنعه خصيصي من أجل ذلك، نصبتُ المناظير في غرفتي التي بنيتها أعلى ربوة عالية، وضعت المناظير في كل الاتجاهات، في المساء تطلعتُ عبرها بعيداً. إلى تلك البيوت المسكونة بشخصي. المقفولة على أوجاعهم وأفراحهم، طوابق فوق طوابق، جدران تلاصق جدراناً، نوافذ بعضها مفتوح على بعض، الهُم ليس واحداً والحزن ليس مشتركاً، كلُّ يرقص على ألمه أو يُغني مع وجعه، يطرب ساعة ثم يقفل عائداً يقبض على جمهره، شئون على شئون، حال وراء حال، وقلوب تتقلب كل ساعة.

لقطات قادمة من بعيد، تُطالعني عبر تلك المناظير التي نصبتُها حولي في كل مكان، مشاهد مُتفرقة قد لا تشي بحكاية.

عيد ميلاد هنا وجنازة هناك، عُرس في هذا الطابق، رجل يصدم رأس زوجته بباب الثلاجة في الطابق الذي يليه، مراهقون ينسجون عبر النوافذ قصص غرام جديدة، وآخرون يغلقونها ليتفرغوا المضغ أو جاع ما قد انتهى. في المساء تبدو لي البيوت ككتاب حواديت مغلق، وأنا صياد يُدلي حبال صبره الطويلة، يقبع بين جنبات السكون في انتظار أن تفقس حكاية جديدة ناضجة لهذا العالم الخالي من الحكايات.

اللقطات القادمة تبدو صامته ومشوشة إلى حد بعيد.

- رجل يطبخ قهوته بإحدى المطابخ البعيدة، يضعها على النار ويتابعها كل لحظة.

- عجوز يُخرج أدوية كثيرة من حقيبة بلاستيكية، يفرشها بين ساقيه، يرجّ زجاجة، ويقرأ بصعوبة منشور إحدى العبوات المكتوبة بخط مُنمنم دقيق، يذهب ليأتي بدفتر يسجل فيه مواعيد الأدوية، حين يصل إلى منتصف الغرفة ينسى ما الذي كان يبحث عنه، فيعود ويجلس أمام حقيبة أدويته.

- سيدة تنشر غسيلها الليلي بمزاج رائق بعد أن تركت لنهديها حرية الحركة والقفز على الحبل.

- رجل أربعيني يقف في إحدى الشرف يدخن سيجارته بعصبية.
- سائق عربة إسعاف يقبع في سيارته ويُحدِّق بعيداً.
- مهرج بثيابه المعهودة يتسحب آخر الليل من الباب الخلفي للمسرح بعينٍ يلمع فيها الحُزن.
- زجاج نافذة حمام يتحطم فجأة فيكشف عن وجه سيدة متوترة يسيل الدم من يدها.
- قارورة ترتفع إلى أعلى لتصبح في بؤرة منظاري، يُحدِّق إليها الكيميائي لحظات، يرْجُّها، يُحدِّق إليها ثانية، ثم يقذفها بعصبية بعيداً.
- فتاة تتعري أمام المرأة تتحسس في صدمة صدرها الصغير بحجم الليمونة.
- اكتشفتُ بعد فترة من المتابعة أن تلك اللقطات المتناثرة الصامتة تحمل داخلها رؤية عميقة وأكثر وضوحاً وصفاء، من أعلى يبدو ما تحت السطح جلياً، لذا بدأتُ في تسجيل كل ما تقوم به شخوصي داخل دفاتر أعددتُها خصيصي من أجل ذلك؛ ربما يُمكنني إعادة ترتيب هذه اللقطات وتنسيقها من جديد لفهم العديد من العلاقات المتداخلة والمتشابكة بين شخوصي، وتفكيك تلك النظم والقوانين المعقدة التي تحكمهم وإعادة صياغتها من جديد.

- بمِلل يُطوح العجوز ممسوح الذاكرة حقيبة الأدوية بعيدًا، ثم يُمدد جسده الضعيف على أريكة مجاورة.

- القهوة تفور وتُطفئ الشعلة، فيغتاظ الرجل ويتعجب كيف استطاعت أن تخونه القهوة في لحظة خاطفة؟

- سيدة الغسيل تطلب من أحد المارة أن يُطوِّح لها من أسفل بِمِشْبِك مارق. ينظر الرجل بالأسفل إليها، يتطلع إلى بياض صدرها الناصع وسط ألوان غسيلها الزاهية على الحبل، فيضع المشبك في جيبه كتذكّار لذيذ ويواصل سيره بهدوء.

- ينكفئ المهرج على فراشه وينام دون أن يرسم على وجهه ابتسامة موحية.

- سائق عربية الإسعاف في حمام منزله يغسل يديه بزجاجة كاملة من غسول قاتل للجراثيم.

- الفتاة صاحبة الصدر بحجم الليمونة تنسحب من أمام المرأة، تغلق أنوار الغرفة، وتترك مصباحًا بأضواء خافتة يناسب أحلامًا مُستحيلة.

- سيدة الحمام ترقد في البانيو بعد أن تغسل يدها من الدم.

- ٢ -

- يُمزَّق يوسف الورق ويُعيد الكتابة، أوراق كثيرة ممزقة على سطح مكتبه، يرمي رأسه على ظهر مقعده، يتأمل المانشيت الذي كتبه منذ لحظات، تطل الحيرة والقلق من عينيه، يُنحي الورقة جانبًا، يكتب مانشيتًا آخر، يرفع الورقتين أمام عينيه، ينتقل بينهما في حيرة.

"مبارك، ثلاثون عامًا من الفساد"

"مبارك، ثلاثون عامًا من الحكمة"

يمزق الورقتين ويطلب فنجانًا من القهوة.

"- في مكتبه بمقر الجهاز الأمني العتيد يتناول العقيد حازم الشناوي بعض التقارير العاجلة من أحد الضباط، يقرأ في عجالة، يبدو على وجهه الإرهاق والتعب، يتلقى بعض المكالمات الهاتفية، يمسح وجهه بباطن يده، ويطلق زفرة طويلة تنشي بالقلق والحيرة.

- "صباح اعتيادي، سماء برلين ملبدة بغيمة ثقيل، يبشر بأمطار واعدة، عند السادسة استيقظ د. شادي كما هو مُعتاد على طرقات خفيفة متوالية على باب غرفته من يد أورشولا مديرة منزله، لا تتوقف أورشولا عن الطرق إلا عندما تسمع صوت قدميه تتجولان في أنحاء الغرفة، لأن د. شادي معروف بنومه الثقيل الذي لا يُجدي معه صوت المنبه، وهي عادة ملازمة له منذ الصغر لم يستطع أن يتغلب عليها رغم حبه الشديد للعمل وطاقته ونشاطه وحيويته، هذا الصباح تمنى د. شادي أن تتوقف أورشولا عن طرق أبواب حجراته، كان قد استيقظ، لكنه كان يودُّ أن يستعيد مرة أخرى صفاء هذا الحلم الذي داعبه منذ قليل والذي قطعت طرقات أورشولا المتوالية. لم يرَ شادي وجه أمه منذ أن ماتت، هذه أول مرة تأتيه، رغم أنه كثيراً ما تمنى ذلك، كانت في الحلم بتلك الهيئة الأخيرة التي شاهدها بها حين ماتت،

وجه به صفاء الموت الشاحب، تلمع عيناها ببريق اللحظة الأخيرة، تغلف ملامحها تلك الهالة المقدسة التي ترافق جلال اللحظة وغموضها، يد أمه كانت تُهدد صدره، لم تتبادل معه الحديث، فقط كانت تنظر له ابتسامتها الواسعة وهي تُهدد صدره.

بعد أن انتهى من حمّامه تناول كوبًا من النعناع الدافئ بجوار النافذة، وهو طقس مألوف يحرص عليه منذ سنوات، ارتدى ملابسه، وجلس على المائدة لتناول فطوره، رشف رشفة من فنجان قهوته الغامقة، وهو يتصفح برنامج اليوم، كان يشعر بنوع من الصفاء الروحي أو الاسترخاء النفسي، كان لا يزال يستشعر يد أمه الحانية على صدره. لم يستمع إلى أورشولا وهي تحدّثه، أو وهي تضع أمامه الصحف اليومية، حين تنبّه ذكرته أورشولا بلطف بطلبها الذي تُلح عليه منذ أسبوعين، قالت: اليوم عند الثالثة عصرًا، مبنى الكولتورفوروم، قاعة رقم ثلاثة.

- " في نفس هذا الوقت تقريبًا من الصباح، وتحت نفس السماء، سماء برلين الملبدة بغيمة ثقيل، والذي يُبشر بأمطار واعدة، تتدثّر سلمى بمعطفها الشتوي، تتحسّس جدار كوب النسكافيه الساخن، لم تستطع بعد أن تتكيف

مع برودة الطقس في برلين رغم أنها هنا منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر، ربما لأنها وحيدة هنا، والوحدة لا يمكن أن تبعث دفئاً، خاصة في جسد رقيق كجسد سلمى، أو داخل روح شفيفة وقلقة كروحها.

لكن الظروف قد غمستها هنا في صقيع الوحدة، ركلتها القاهرة إلى برلين، لو ظلت في القاهرة ربما كانت الآن رهن الاعتقال أو داخل مبنى الجهاز العريق تحت التحقيق، ربما كانت في قلب الميدان تهتف وتغني وسط الجموع حيث لا يمكن أن تنفذ إليها البرودة.

ترتشف من كوبها رشفة وراء رشفة، تتابع من خلال القنوات العربية نشرات الأخبار الصباحية التي تعرض للوضع المتأزم في القاهرة وتنقل بثاً مباشراً لبعض الفاعليات الثورية في ميدان التحرير التي تطالب منذ أكثر من أسبوعين بتنحي مبارك عن الحكم.

أرى الشغف بادياً عليها، تكاد تشبُّ على قدميها، تُردد الهتافات ذاتها التي يطلقها المتظاهرون كأنها هناك في قلب القاهرة القاسية الدافئة.



- ٣ -

أخذتُ أشعر بمتعة حقيقية بعدما اعتدتُ تسجيل كل تلك اللقطات التي أصطادها لشخصي، جعلتُ لكل منهم دفترًا خاصًا به، أدوّن فيه أفعاله وصفاته وحركاته، كما أسجّل إنطباعاتي الخاصة عن كل منهم، أجلس كثيرًا أمام اللقطات الواردة في محاولة لتفسيرها، وإضفاء دلالة عليها، بعدها أترك لخيالي وضع اللّبنات الناقصة في بناء الحكاية، أصنع لقطاتٍ مُتخيّلة لسد الفراغات، بعدها أعيد هندام كل ذلك وصياغته حتى تبدو كحكاية طازجة.

- يبدو لي العجوز ممسوح الذاكرة وقد فقدَ تمامًا الرغبة في الحياة، يهمل أدويته، يقذف بها بعيدًا كلما وجد حقيقة الأدوية في طريقه، يقف دائمًا في النافذة، يُحدّقُ بعيدًا شاردًا، كأنها ينتظر ذلك المجهول الذي سينقذه من الملل.

- سيدة الغسيل ما زالت تمارس هوايتها في إغواء المارة، تتخفف أكثر وأكثر من ملابسها وهي تقف في شرفتها، جسدها الأبيض البض يضوي بأنوثته من أعلى، فيثير فتنة وهياجاً أسفل البناية، مشبكها الأخير اصطاد مراهقاً صغيراً، أمسك الولد المشبك، ونظر لأعلى ببراءة؛ ليعيده ثانية من حيث أتى، تراجع ذراعه للخلف كي يطوح المشبك، توقّف ذراعه في الهواء، نظراته مشدودة إلى أعلى، تُحدّق في بحر صدرها العريض بموجيه الفائرين المضطربين على حبل الغسيل، يبلع المراهق الصغير لعبه، تقرصه غريزته قرصات متتالية في أنحاء جسده الفتى الناشئ، فتتورم شهوته وتنتفخ شرايينه، تبتسم سيدة الغسيل بغنجها وفتنتها، تضغط على شفيتها، فيقذف المراهق الصغير بمشبكها إليها، ويسرع بعيداً خائفاً وجلاً، يُعيد النظر إليها من بعيد، يسقط، يلم نفسه، ويواصل سيره هو يلتفت إليها سعيداً.

- غرفة المهرج تُضاء فجأة، يبدو لي المهرج تحت ضوء خافت بملابسه الغربية، بالطو من الجلد الأسود بجيوب طويلة وصديري له جيوب عميقة، بنطال بلون فاقع، وقبعة مُنتفخة، يفرغ ما في جيوبه، يرصها بعناية على الطاولة، كرات ملونة، أصباغ، قطع صغيرة من الحلوى ربما كان يُهديها للأطفال، يخلع ملابسه الرسمية ويرتدي جلباباً واسعاً، يجلس شاردًا وهو يحتسي كوباً من الشاي بطريقة آلية دون أن يمارس بعضاً من ألعابه التي تُثير الضحك.

- سائق عربة الإسعاف يخلع ملابسه على عتبة بيته، تناوله زوجته كيسًا من البلاستيك، يحشر ملابسه داخل الكيس، يهم بالدخول، تشير زوجته إلى قبعته، يطوحها بضيق داخل الكيس البلاستيك، ثم يخطو إلى الداخل.

- الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة في فناء المدرسة الثانوية، لا تُمارس اللعب في الفسحة، تجلس وحيدة تأكل وجبتها، تتطلع إلى أجساد البنات الفاترة، يمارس البنات الجري والعدو، تتأرجح صدورهنّ كثمار ناضجة تتلاعب بها الريح، يقفزن، ويتطوحن على الأرجوحة، فتتمايل وتقفز كراتهن المطاطية داخل مريلات المدرسة الزرقاء، تختلس الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة نظرة حزينة إلى نبتها الجاف. ثم تُعاود النظر إلى الفناء.

- من خلال نافذة الحمام المكسورة شاهدتُ سيدة الحمام تنزع عنها روبًا أزرق اللون، تقف طويلا أمام مرآة الحمام، تستلقي في البانيو بعصبية؛ لتترك الماء يضرب جسدها.

- في شرفة مجاورة للنافذة المكسورة الخاصة بسيدة الحمام، ثمة رجل متوتر، ينفث توتره وغضبه في سيجارته. شاهدتُ هذا الرجل عصر هذا اليوم وهو يهبط من أتوبيس متهاك لأحد المصانع لذا أطلقتُ عليه عامل المصنع.



- ٤ -

"عند الثانية والربع اعتذر د. شادي عن عدم استكمال اجتماعه مع أساتذة معهد ماكس بلانك للفيزياء الذي يحتل قمة إدارته منذ عدة سنوات، قال: إنه سيضطر للمغادرة لارتباطه بموعد مهم، أثار ذلك تعجب البعض، خاصة أنها المرة الأولى التي يلوح فيها في الأفق ما قد يشغل ذهن د. شادي عن أعماله العلمية أو ارتباطاته الإدارية، سكرتير مكتبه نبّهه إلى موعد مهم في السادسة مع طلاب الدراسات العليا، أكد د. شادي أنه سيكون بالمعهد قبل ذلك.

عند الثالثة عصرًا وصل د. شادي إلى ناصية شارع بوتسدام الشهير، تلقى مكالمة على هاتفه من مدام أورسولا مديرة منزله،طمأنها أنه الآن في الطريق إلى الكولتورفوروم أو المركز الثقافي ببرلين، شكرت له أورسولا ذلك في

سعادة، لم تنسَ أن تُعيد عليه أن المعرض بالقاعة رقم ثلاثة. أحفظُ ذلك يا أورشولا عن ظهر قلب. كانت المرة الأولى التي يذهب فيها الدكتور شادي إلى قاعة من قاعات الفنون التشكيلية؛ يظنُّ دائماً أن العلم يمتلك تفسيرات للعالم وللحياة أكثر وضوحاً وشمولاً من الفن. كما أن لمسة الفنان دائماً غامضة ومبهمّة، وهو ما يتعارض مع منهجية العالم الذي يقصد دائماً الدقة والوضوح. لكنه وافقَ أن يأتي إلى هنا رغم ارتباطاته العديدة تحت إلحاح متواصل من مدام أورشولا كونه أول معرض يشارك فيه ابنها الفنان الشاب.

اكتفى د. شادي بمتابعة متعجلة للوحات الفنية التي تتزين بها حوائط القاعة، وبعبارات فيها الكثير من المجاملة هنأ ابن أورشولا، وودّعها سريعاً ليتناول وجبة الغذاء بأحد المطاعم القريبة من المعهد ويلحق بموعده المهم بطلبة الدراسات العليا.

ساعتنذٍ تتخطى سلمى البوابة الرئيسية للكونتورفوروم أو المركز الثقافي بشارع بوتسدام الشهير في طريقها إلى القاعة رقم ثلاثة لتتابع بعض الأعمال الفنية.

ربما في انتظارها مناسبة أهم من ذلك، ربما هي على موعد مع لحظتها
الفارقة، فقط عليها أن تُسرِع الخطى إلى الداخل.

في طريقه إلى باب القاعة رقم ثلاثة لفتت انتباه د. شادي لوحة فنية،
طالَعها من بعيد، ثم عاد عدة خطوات للخلف واقترب منها، يدٌ ممدودة
يتفجر من خلالها الماء وسط بقعة لونية سوداء، لم يكن باللوحة ما هو جديد
أو مُبهر، فقط ذكَّرته هذه اللوحة بحلمه الصباحي المُفاجئ. فوقف أمامها
بعض الوقت. (وبعض هذا الوقت مقصود ومصطنع إذ لا شيء في الحكايات
يحدث مصادفة)، شادي أيضًا على موعد مع مناسبة مماثلة.

وصلت سلمى إلى الدرج قبل الأخير في السلم الرخامي الذي يقود
إلى القاعة رقم ثلاثة. باغتها صوت إشعار بأن هناك رسالة ما على هاتفها،
فتحت حقيبتها والتقطت الهاتف

"حسني مبارك تنحى"، رسالة قصيرة من صديقة لها في القاهرة، لحظات
لم تستوعب المعنى، أعادت قراءتها، أسندت ظهرها إلى الحائط وتطلعت
ذاهلةً إلى سقف البهو الواسع.

تلفنت لصديقتها، هاتفها كان مشغولاً. كان عليها أولاً أن تتأكد من حقيقة هذا الخبر الصاعق وهذه المفاجأة المدوية التي كان الجميع يترقبها ويتشكك في حدوثها في نفس الوقت، لذا حاولت الاتصال بالدكتور شاكر عودة، عراب طريقها السياسي، لكنه لم يرد على اتصالاتها اللوحة. جلستُ بتلقائية على الدرج الرخامي البارد تتصفح العديد من المواقع الإخبارية على الهاتف، بدأت تستوعب حقيقة الحدث المزلزل بعد أن شاهدت مقطع فيديو للجنرال سليمان يتلو فيه خطاب التنحي المقتضب برتم إيقاع جنائزي.

بحكم صداقتها القوية بالكثيرين من صنّاع هذه الثورة كونها أحد أعضاء حركة كفاية التي تأسست بوصفها حركة سياسية مناهضة لبقاء مبارك الطويل والأبدي على مقعد السلطة، فقد كانت على علم كافٍ بما يدور في شوارع القاهرة وميادينها. رغم ذلك استقبلت خبر التنحي بذهول ودهشة؛ لم يكن من السهل أن تستوعب أن هذا المتصلب على مقعده لثلاثين عامًا متواصلة، المعروف بعناده يمكنه أن ينحني لثورة شعبية هبت فجأة في وجهه.

فكرت أن تغادر، ذهنها مشوشٌ وغير مُعدٍّ لمتابعة تفاصيل اللوحات الفنية التي جاءت من أجلها. أعادت الهاتف إلى حقيبتها وقامت من فوق الدرج.

تبدو لي سلمى في حالة غريبة متناقضة تماماً، ارتباك، نشوة وقلق، بهجة
ممتزجة بحسرة، بحكم متابعتي لشخصي أدرك أسباب ذلك، سلمى تتمنى
أن تكون حاضرة بشوارع القاهرة الآن. القاهرة التي لفظتها منذ ثلاثة أشهر،
لترقص وتغني وتقفز في الميدان وسط الملايين. في حالتها المرتبكة تلك تحطو
دون وعي آخر العتبات الرخامية للسلم، تتلعثم قدماها، تسقط وتنكفي إلى
الأمام، تطير حقيبتها وهاتفها إلى حيث قدما د. شادي.



- إثر حادثة ضخمة ظل سائق عربة الإسعاف ينقل جثث الموتى وأجساد المصابين طوال الليل، سائق عربة الإسعاف لا يخشى جثث الموتى، ربما كان ذلك في بداية عمله بهذه المهنة، حينما كان يغلق الباب الخلفي للسيارة ثم يصعد إلى كابينة القيادة وحيدا مع جثة قتيل أو غريق أو حريق، وقتها كان يرتجف، ومع المنحدرات أو المطبات التي تصادفها السيارة في طريقها كأن يُخيل إليه أن الجثة رفيقته تتحرك أو تحدثه وتناجيه، طقطق شعر رأسه سريعا واشتعل شيبا قبل أوانه إلى أن اعتاد ذلك، حد أنه يقزقز اللب والسوداني أو يتبادل النكات السريعة مع العابرين بجوار سيارته في حضرة جثث عديدة ترقد خلفه مباشرة في صندوق السيارة كهذه الليلة، ينقلها بحيادية سائق عربة فاكهة، الآن أصبح ما يزعجه تلك الدقائق الصعبة التي تمر عليه حين يكون

برفقته مصابين، دقائق حادة وبطيئة تمر كشفرة نيئة تقطع في أعصابه حتى يصل بهم إلى المستشفى. حتى أنه كتب على خلفية سيارته عبارة أصبحت شائعة بين الناس فيما بعد "ما أصعب أن تتألم وما أسهل أن تموت!"

- الدرويش يداعب حبات مسبحته الطويلة، ثم يُصفف شعر لحيته البيضاء الكثيفة، يفتح كتاباً قديماً بأوراق صفراء، يظل يقرأ، حتى يستغرقه الوجد، ثم يغفو في جلسته على حصيرة خضراء.
يهبُّ بعد برهة، يصرخ ويبيكي: يا دليل السالكين، دُلني الطريق إليك.

- يروح الكميائي ويحيي مثل دودة قلقة، يطوف بأنحاء معمله بشعره الهائج، يقف أحياناً وهو يهزُّ رأسه، يفور عقله بحساباته المعقدة، يستبعد ويضيف، يسكب سائلاً فوق الآخر، يرشُّ القارورة، يسحق صخوراً ويضيف المسحوق ويقلب المزيج تلو المزيج، يواصل خطواته المرتبكة داخل معمله، ثم بعد ساعات طويلة من العناء والعمل يحطم كل ما توصل إليه، ويبدأ من جديد.

بعد أن أنهى سائق عربة الإسعاف وريدته المُرهِقة هذه الليلة عاد إلى منزله مع أول خيوط النهار، تشير له زوجته بأن عليه أن يستحم، سائق عربة الإسعاف لا يحتضن أولاده بين ذراعيه ولا يضاجع زوجته سوى أيام عطلته، هكذا فرضت عليه زوجته بعد أن اكتشفت أنه مجرد سائق عربة إسعاف وليس بائع آيس كريم كما زعم لها قبل الزواج.

يدعك سائق عربة الإسعاف جسده بالصابون والمنظفات والمطهرات الكثيرة التي تشتريها زوجته كل شهر بمبلغ يعادل تقريبًا نصف مهيته، وكلما همَّ أن ينتهي من استحمامه تطالبه زوجته التي تقف على باب الحمام مُترقبة ومتأففة بأن يكرر غسله ثانية.



- حالة من الذهول والصدمة بادية على كل الضباط الموجودين داخل مبنى جهاز أمن الدولة، العقيد حازم الشناوي يتابع من خلال بعض الشاشات في المبنى الحالة الأمنية لشوارع القاهرة وميادينها التي تنقلها كاميرات المراقبة. الشاشات أمامه توضح حالة من الفرح المستيري تتاب الناس في جميع الشوارع والميادين.

يتبادل العقيد حازم الشناوي نظرات فزعة وقلقة مع مساعديه، نظرات صامتة، الصمتُ طال داخل القاعة الفسيحة، المفاجأة أكلت السنة الجميع، يضع العقيد حازم الشناوي رأسه بين باطن كفيه، يدعك فروته بشدة كأنه يحفز قدرته على الفهم أو الاستيعاب، لكنه يستسلم في النهاية لتنميلة تسري داخله، تجعله يغيب ويغرق في مئات الصور المشوشة والأفكار المقصورة التي تهاجمه كومضات غير مكتملة تنطفئ قبل أن تُضيء عبر أمواج الظلام التي لا يقوى عقله على السباحة خلالها في هذا الوقت الحرج.

إشارة تليفونية عبر هاتفه تُعيده ثانية إلى قسوة المفاجأة، ينصتُ باهتمام، يبدو أنها أوامر عاجلة تتماشى مع طبيعة الحدث المربك، فيهزُّ العقيد حازم الشناوي رأسه صامتًا ومصدومًا.



-٦-

فكرتُ في أنفق وقتي حين لا يكون أمامي ما أُسجّله من حكايات شخوصي في رسم وجوه الجالسين على حافة النهر من تلك الشخوص التي صنعتُها. بعد العصر كنتُ أجلس منزويًا، أُخرج أقلامِي الرصاص وأوراقِي وألواني، أظُلُّ أرسِم حتى يدخل المساء، أحتفظُ بتلك الرسومات لنفسي، أتأمل ليلاً على ضوء أعمدة الإنارة الخافتة بالحديقة تلك الوجوه التي رسمتها، تلمع أسنانهم بابتسامات صافية، كل منهم وراء حكاية وهبته إياها. يحكي كل منهم لي حكايته، ثم يسألني عن حكايتي، أنظرُ إليه صامتًا، يلحُّ كلُّ منهم في طلبه:

- ها... ما حكايتك؟

تلمع عيناَي بدمعة صافية، كأنها دمعة من خجل، لن يصدقوني حين أقول لهم إنني مقطوع من حكايتي، مُجتث من سياقِي. أنكس رأسي وأظل صامتًا يتهمونني بالمرأوخة، ولا يعودون للحديث معي.

بنيتُ كشكًا خشبيًا بالقرب من الشاطئ حينما وجدتُ الكثيرين من شخوصي يطلبون مني أن أرسمهم في أوضاع معينة، وجدتُ في ذلك فرصة جيدة لأكون بجانبهم، أفهم رغباتهم، وأحس مشاعرهم وأدرك ما يعمل داخلهم من أفكار. أمارس مهنتي تلك إلى ما بعد الغروب، ثم أنام داخل كشكي الخشبي، في الليل أظل أتذكر ما فعلته بالنهار، تأتيني أحلام عابرة لوجوه الجالسين على النهر أو من رسمتهم قبل أن أنام.

"سيدة الحمام كانت أول من طلب مني ذلك. وقفتُ أمامي بروبها الأزرق الذي شاهدها به كثيرًا من خلال النافذة المكسورة، أزاحتُ عنها الروب، جسدها بدا لي مُلتهبًا، بركانًا نشطًا يفور من خلال هضابه، طلبتُ مني أن أرسمها بكل هذا الغليان الذي لا يهدأ. حين انتهيتُ وقفتُ تنظر إلى جسدها كما جسدتُ على أوراقِي البيضاء، بعد أن تأملتُ سيدة الحمام لوحتها، أشارتُ إلى ذلك الأخدود، طلبتُ مني أن أطمسه، تناولتُ فرشاتي، ووضعتُ بقعة من اللون الأسود عليه، ثم رحتُ أسيلها عليه، حتى أغلقتُه تمامًا، عاودتُ سيدة الحمام تأمل جسدها ثانية دون ذلك الأخدود، هزّت رأسها حائرة وانصرفتُ.

- سائق عربة الإسعاف أرادني أن أرسمه في صورة صانع عطور يجلس وسط بركة، يفرغ الغلمان والجواري قوارير العطور المختلفة على جسده، ريجان وياسمين وقرنفل وماء ورد وليمون، يدعك جسده بالسوائل التي تتدفق في البركة من حوله منتشياً بذلك المزج الجديد الذي شكّله الروائح وعبقت به جسده.

- احتار المهرج حين وقف أمامي، طوح قبعته الشهيرة، وجلس أمامي صامتاً، تأمل وجهه في المرأة بكل تلك المساحيق التي تصبغه، أخذ إناءين من الماء، ثم أخذ يدعك بهما وجهه، أزال عنه طبقة المساحيق والأصباغ والكحل الذي يُؤطر عينيه، بدت مسحة عريضة من حزن تكسو وجهه، جلس أمامي ثانية، فكرت كثيراً وأنا أقوم برسم شخصيته، حين انتهيت بدت صورة المهرج كرجلٍ بائسٍ تتطاير من قبعته فقاعات باسمة.

- الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة دخلت عليّ مرتبكة، بدا عليها التردد، خرجت من كشكي الخشبي ثم عادت ثانية، طلبت منها أن تهدأ، حين زايلها خجلها تعرّت، لم تطلب مني أن أرسمها في وضع معين، احترت كثيراً؛ هل أرسمها هكذا بصدرها الضئيل الذي يطل منه نتوءان بحجم ليمونتين صغيرتين؟ نتوءان مثل دملين بائسين.

أزعجني كثيرًا حزنها الشاحب الذي ينطق به وجهها، على الورق
منحتها جسدًا على هيئة كرمة يافعة يتدلى منها عنقودان طازجان من العنب،
ظللْتُ العنقودين باللون القاني، حين شاهدتُ الفتاة ذات الصدر بحجم
الليمونة صورتها المتخيلة انفجرتُ في عاصفة من الضحك الصاحب حتى
احمرَّ وجهها، تناولتُ لوحتها، ثم غادرتُ بعد أن عاود الحزن ليعشش في
وجنتيها.



تعبتُ كثيرًا حتى تفهمتُ رغبة العجوز ممسوح الذاكرة، قال لي: أريدُ
أن أكون في هذا المكان المظلم الذي لا أذكر اسمه الآن راقدًا بسلام دون ألم
المفاصل وأوجاع الظهر والتهابات الـ... الـ... أي شيء ودون أن تكون
بين يدي حقيقة... حقيقة هذا الشيء الذي لا أذكره. أريد أن أكون هناك
في هذا المكان الذي لا تحتاج فيه أن تُجهد ذاكرتك من أجل أن تتذكر أين
يوجد هذا المكان الذي يمكنك أن تقضي فيه حاجتك.

- على عكس ذلك كان الدرويش والمراهق الصغير محددين تمامًا في طلبها.
الدرويش طلب أن تكون هيئته في صورة شجرة مباركة، أوراقها عريضة
وخضراء، جذرها يسبح فوق سطح الماء وفروعها تُحلّق في السماء.
المراهق الصغير طلب مني أن أمنحه شاربًا كثيفًا، وقدرًا جامحة.

- ٧ -

شادي كان يخرج للتو من القاعة رقم ثلاثة مُتخذًا طريقه للخارج،
بطريقة آلية التقط حقيبة سلمى الطائرة في الهواء، وبلياقة حاول أن يساعدها
على النهوض، شكرته سلمى بلهجة مصرية عفوية خرجت بتلقائية تناسب
الموقف المخرج.

- معلش أنا آسفة.

حين أدركت ذلك حاولت أن تعيد الصياغة بالإنجليزية لأنها لا تجيد
الألمانية. باغتها شادي.

- أأنت مصرية؟

- أنت مصري؟

ضحكا. سلمها شادي الحقيبة. برلين منورة. حاول أن يجاملها بهذه العبارة المصرية المعتادة، ثم هَمَّ أن ينصرف. صرخت سلمى بعد أن اتخذ طريقه إلى نزول الدرج.

- عرفت المفاجأة؟

هَزَّ شادي رأسه مُستفسراً. مبارك تنحَّى. قالتها سلمى سريعة و(بتون) يناسب المفاجأة.

شادي كان يتابع ما يحدث في القاهرة. لكنه لم يكن مشغولاً تماماً بما يحدث هناك. ترك القاهرة منذ عشرين سنة تعادل تماماً نصف عمره. الحدث رغم ذلك استفزَّ دهشته، فصعد ثانية تلك الخطوة التي هبطها منذ قليل ليكون بمحاذاة سلمى تماماً، سألها: أذلك صحيح؟ قرأت عليه الأخبار ثانية من هاتفها. شاهداً معاً فيديو الجنرال وهو يتلو قرار التنحي عدة مرات. في كل مرة تقرأ سلمى وتشاهد بحماسة وذهول وكأن ذلك قد حدث للتو، لم تعرفه ولم تشاهده قبل قليل. خلعتُ معطفها الشتوي الذي يُقيّد حركتها، كان تحتها تيشرت أبيض من القطن مطبوع عليه صورة جيفارا على بنطال أسود ضيق من الجينز، مفتاح الحياة حول عنقها يتطاير ويضرب على صدرها متجاوباً مع قفزها على درجات السلم. أساور من العاج حول معصمها تهتز على وقع إيقاعها الراقص. إيقاع

عفوي يماثل إيقاع فراشة خرجت لتوها من قبضة عنيفة ظلت تعتصر روحها.
تصرخ سلمى بالإنجليزية في وجه كل من يمر بهما:

Hosni Mubarak stand down

كثيرون تجاوبوا مع تلقائيتها المدهشة، صفقوا ورقصوا، شادي يشعر بالخرج وهي تمسك بيده وتدور به وسط الجموع التي تحلقت حولهما، أورشولا مديرة منزل شادي كانت تصفق مندهشة، أشارت إليه، مما زاد من إحساسه بالخرج، روح العالم دائماً مكبلة تحت وطأة ثيابه الثقيلة- ربما لذلك يبدو على شادي أنه معجب بخفة سلمى وعفويتها الطاغية والبادية بوضوح عبر بريق عينيها.

أظن أن سلمى لديها أيضاً روح متمردة نائرة، لذا أتوقع أنها ستشغل شادي صاحب الروح الخاملة والتي لا تنشط سوى في أجواء المعامل.
شادي يحاول أن يغادر، ألا يتورط أكثر من ذلك، ابتسم لها ابتسامة محايدة كالأعداد الحسابية، أشار لها مُودّعاً. اندفعت سلمى نحوه ووقفت في طريقه.

- أنت مش سعيد؟

- يعني.

- نحتفل

- إيه؟

باغتته المفاجأة. أنت المصري الوحيد الذي أعرفه هنا والذي يمكنه أن يشاركني هذه المناسبة. قالت سلمى بعفوية.

ماذا سيفعل شادي أمام كل هذه الرقة؟

أربعون سنة جامدة كانت قد مرت من حياته لم يفارق خلالها المعامل وقاعات التدريس وأوراق الأبحاث والمطبوعات العلمية الجافة التي غلفت روحه بسمكها الثقيل، أربعون يابسات لم تتخللها كل هذه الرقة والخفة التي تفيض من روح سلمى الآن وتسري بهدوء على أرضية روحه السمينة المتصلبة، تتخلل شقوقها، وتلامس قاعها الصلب فتخلخل جموده وتسكب داخله نضارة وطراوة لم يكن يُحسها من قبل.

ليس في مقدروك أن تقاوم يا شادي.

- نحتفل.

عند البوابة الرئيسية للكلتورفوروم تبادلوا الأسماء، وفي طريقهما تذكر شادي موعده مع طلبة الدراسات العليا، لكنه كان قد تورط، أخرج هاتفه وتلفن سكرتير مكتبه وألغى كل ارتباطاته بمعهد ماكس بلانك لأول مرة في حياته.

حين صنعتُ الراقصة ملكة البهجة كأحد شخوصي لم أتوقع أني قد وهبتها كل هذا الجسد الفائز بمباهجه الوفيرة. بيضاء بجلد ناعم. طويلة في رشاقة. عيناها واسعتان تبرق بسواد رائع، يعلوهما حاجبان مرسومان بعناية. أنف ضيق قصير. لها صدر نافرمتحرر. يتموج ويضطرب تحت فستانها الأسود المطرز. على رأسها ارتدت طربوكاً مزيناً في أعلاه بالذهب، وفي وسط الذهب قطعة حجر خضراء. يظهر من حول هذا الطربوك شعرٌ ثقيل مجمد. رقبته المتينة يتدلى منها عقدٌ ثلاثي مصنوع من قطع كبيرة من الذهب غير المنقوش. فاجأتني الراقصة ملكة البهجة حين وجدتها أمام أبواب غرفتي العالية فوق الربوة التي تطل على عوالي، قالت إنها بحثت عني كثيراً على النهر من أجل أن أرسمها، وإنها جاءت خصيصاً إلى هنا من أجل ذلك.

رحبتُ بها. الراقصة ملك البهجة لديها ضحكة مجانية، تصاحب حديثها أو صمتها، لكنها ضحكة مُجلجلة يفيض منها صخبٌ طرب. وقفتُ أمامي بقامتها اللعوب، ثم مالتْ بعودها المرن. رفعتْ ساقها اليمنى ووضعتْ قدمها فوق سطح مقعد خشبي، شمرتْ ثوبها حتى الفخذِ وأسندتْ ذراعها الطويلة على فخذها. مالتْ بظهرها إلى الوراء. طلبتُ مني أن أرسمها هكذا. اجتهدتُ كثيراً في رسمها، بدا ذلك متعة خالصة. حتى المستور والمحجوب من مكان جسدتها تحت ثيابها نزعْتُ عنه الستر أثناء تخليقي على الورق، فلأمسته وتحسسته.

تمنيتُ ألا أنتهي، تجاذبتُ معها الحديث، فسألتها عن حكايتها.

قالتُ: - كنتُ جارية في قصر أحد الأمراء، سيدي كان فظاً وقاسياً، تعلّق بي أحد عبيده، أحببته كما أحبني، قررنا أن نهرب معاً، هربنا بعيداً، عشنا في هدوء، لم أكن أرقص سوى لزوجي هذا الذي أحببته وفتنته، إلى أن خطفه العسكر ذات يوم من أجل أن يلحقوه بالجيش المتجه إلى الحرب، لسنوات طويلة لم يعد زوجي، بدأت أرقص في معسكرات الجنود، أتحمس أخباره، لم يدلني أحدٌ إن كان قد عاد أم هلك في الحرب مع الهالكين؟

لكنني واصلتُ الرقص، لا شيء في هذه الحياة يمكنه أن يقضي على

أحزانك سوى أن ترقص، ترقص بروحك قبل أن يهتز جسدك، أسستُ فرقة من العوالم المحترفات لنشر البهجة وسط الجنود العائدين من الحروب المتتالية التي لا تنتهي، كنتُ أظنُّ أن زوجي بينهم، وأن روحه منهكة من ويلات الحرب البشعة ومشاهدها، وأنه يحتاج إلى شيء من البهجة تتقوت عليها روحه الخزينة، اتهمنا الحاكم أننا ننشر الخلاعة بين الجنود، وأنا أسباب هزائمه المتتالية، بل أننا سبب انتشار الأمراض، وتفشي الزهري بين جنوده، نفانا بعيداً، لكنني لم أتوقف عن الرقص ونشر البهجة حتى وأنا في المنافي البعيدة وسط بدو الصحراء، علمتُ نساء الصحراء فن البهجة، كيف يمكنهن أن يفتنَّ رجالهن؟

مات الحاكم، حين علمتُ بذلك، عُدتُ ثانية، ونكايةً فيه أسستُ فرقة أخرى للعوالم في هذا الشارع الملقب باسم الحاكم، ليصبح بعدها أكبر تجمع للراقصات والباحثين عن البهجة.

ضحكت الراقصة ذات البهجة، سألتني عن حكايتي، رغبتُ منها سريعاً، قلتُ لها: لقد انتهيتُ من رسمتها، جرتُ مثل طفلة لترى. ظلتُ تصرخ من فرحتها. وعدتني بأجرٍ لا أحلمُ به، سترقص لي منفرداً رقصتها الجديدة المبتكرة.

قررتُ أن أتحوّل في المدينة الواسعة، أٌشاهد شخوصي التي صنعتُها عن قُرب، تبدو وجوههم مألوفة لي، لكنهم يمرقون بجواري دون أن أُثير انتباههم. كُلُّ منهم مشغول بحكايته التي يعيشها. كأني لا أعني لهم شيئاً، كأني لستُ هذا الذي ينكأ خياله كل ليلة ليصوغ لهم حكايتهم.

- يضرب الدرويش بعصاه الأرض قادماً تجاهي. يرتدي جُبة خضراء من الصوف. عمامة سوداء تقطن فوق رأسه الضخم. تنساب من تحتها خصلات شعره الطويل على كتفيه. استوقفني في طريقه. اصطحبني إلى ظلِّ شجرة توت قريبة، أنزلَ من على كتفه حقيبة من القماش تحوي متعلقاته القليلة، تنهد طويلاً. أخذ يساوي بيديه شعر لحيته المخضبة بالحناء، نظر تجاهي، أخرجَ من حقيبته بضع تمرات جافة، ناولني واحدة.

خضار عينيه الواسعتين كان صافيًا ومدهشًا، شعرتُ أنني أفقر على
عشب طري لجزيرة نائية بمجرد أن حدثتُ إلى عينيه، خلع عمامته وأسندَ
ظهره إلى التوتة الكبيرة، ثم بادرنى بالسؤال. هل جأتك العلامة الكبيرة؟
- أي علامة؟ سألته متحيرًا.

- علامتك الكبيرة التي تبحث عنها طوال عمرك.
لم أفهم شيئًا من كلام الدرويش، نظرتُ إليه صامتًا ومتحيرًا، ربت على
فخذي بيده النحيفة، كأنه يطمئنني.
- ستناديك يومًا.

- لكل منا علامته الكبيرة، ستقودك إلى المعنى الأعظم، حذارٍ أن تُخطئها،
لن تبرز لك ثانية، ستنطفئ شمعة روحك بعدها. قد تأتيك الآن أو
بعد ساعة، وربما بعد مائة عام، لكنها حين تأتيك يجب أن تكون مستعدًا
لتدركها.

نهض الدرويش فجأة، رفع حقيبته على ظهره، وأمسك بعصاه، سألني
عن الطريق.

هزرتُ رأسي مستفهمًا:

- أي طريق؟

لم أفهم سؤاله. ضحك ضحكة صغيرة بدت من خلالها أسنانه المنحوتة المتآكلة.

- لا تشغل بالك بالطريق. كل الطرق تؤدي إليه. لكننا نضيع الوقت في اختيار الطريق حتى تنتهي الرحلة.

حمل الدرويش حقيبته وابتعد وهو يردد جملة الأخيرة، لم أفهم جملة الغامضة، لكن شخصيته بدت لي ساحرة بقدر ما بدت غامضة.

واصلت السير حتى وصلت إلى المقهى. هناك وجدت سائق عربية الإسعاف يشرب الشيشة بعمق. جلست جواره. ملاحه قاسية. سألته عن سبب نفور زوجته منه. ضحك ضحكة غامضة كأنها قادمة من جوف تابوت. سكت قليلاً:

قال: - الجميع يفرون من أمامي، حتى زوجتي وأولادي ينفرون مني. يقولون لي: رائحتك تشبه رائحة الموت.

" يبدو أن شخصي يمتلكون بالفعل حكايات طازجة. ويبدو أنهم سيضيفون لي الكثير قبل أن أكتب حكايتي.

- هل للموت رائحة؟ سألتُ سائق عربة الإسعاف.

- له رائحة غامضة لا يشمها سوى الموتى.

رغم ذلك لا تسمح لي زوجتي بالاقتراب منها إلا عندما أغتسلُ عدة مرات. بعدها تدفعني من فوقها ككومة نتنة.

نفث سائق عربة الإسعاف سحابة دخان في الهواء، رغم أن ذلك يصيبني بالحزن، فإن مهتي هذه تُضفي على شخصيتي غموضاً ساحراً يُشعري بالمهابة.

- في طريق عودتي قابلتُ الكميائي بشعره الطويل المموج يحمل بين يديه عينات من عدة صخور اقتطعها من الجبل. ظلَّ يُقلبها بين أصابعه وهو يمرق بجواري شاردًا.



على أحد المقاهي بوسط القاهرة يجلس الدكتور شاعر عودة المناضل السياسي الكبير وأحد أقطاب اليسار وسط حلقة من مريديه، أجيال مختلفة من الكتاب والسياسيين والفنانين، صغار الأدباء والشعراء الذين يتوددون إليه من أجل أن يذكر اسمهم ولو عابرًا في مقالاته النقدية التي تحفل بها الصحف والمجلات، يتحدث الدكتور عودة عن تاريخية هذه اللحظة الفارقة في تاريخ البلاد بعد تنحي مبارك، وحتمية استغلال هذه اللحظة الثورية النادرة في تغيير نمط المجتمع البالية وقيمه. يتحدث د. شاعر عودة بحماسة واضحة رغم جسده الضئيل الذي نحله العجز، تتناثر شعيرات بيضاء على استحياء حول لحم رأسه العاري، يمسك نظارته الطبية السمكة بيده اليمنى، ويفرك باليسرى عينيه، يضحك بجدية وبهيبة المثقف التي تكسو سمته، ثم

يتحدث حديثاً طويلاً عن كفاحه ونضاله القديم، عن ذكرياته في المعتقلات وسجن القلعة، مشاغباته وطرائفه مع أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام في المعتقل أو في حوش قدم.

الدكتور شاعر عودة لا يتوقف عن الكلام تقريباً سوى ليرتشف من الأكواب العديدة المتتالية لأصناف مختلفة من المشروبات الساخنة أو الباردة التي يطلبها من النادل كلما فرغَ أحدها، لا يدفع الدكتور شاعر عودة شيئاً من حساب كل هذه الأكواب المتراكمة من المشروبات، يترك شرف ذلك لأحد تلاميذه أو مريديه. وهي عادة متوارثة من أيام الصعلكة البائدة، ظلَّ الدكتور شاعر عودة مُحافظاً عليها حتى بعد أن أصبح من هؤلاء المثقفين المؤلفة قلوبهم.

استهواني كثيراً أن أُنابح المهرج عن قرب، يعيش وحيداً في غرفة على سطوح مبنى قديمٍ متداعٍ، ظننتُ أن الضحك سيتطاير من غرفته كل ليلة مثل فقاعات من الهواء ويتسلل إلى غرفتي، وأن الرجل سيواصل الشقبة والقفز والمشي على الحائط بما يجعلني أستلقي على ظهري من الضحك، وهو ما لم يحدث، بمجرد أن يدخل إلى غرفته كان يدعك وجهه من المساحيق

والألوان بالماء والصابون، ثم يحففه بمنشفته فيبدو وجهه مُغلفًا بمسحة من حزن عميق غامض، للمهرج وجهٌ بشريٌّ مألوف، جسده ضئيل ورشيق رغم آثار العجز البادية عليه، كل مساء يجلس بالساعات على مقعد خشبي وسط سطوحه يمتصُّ سيجارة تلو الأخرى، يعدُّ أكوابًا متتالية من الشاي على سخان كهربائي بجواره، حين يغالبه النوم يغفو فوق مقعده ويتمايل رأسه، فينتبه ويرفع رأسه لأعلى، يشرّد قليلًا إلى أن يغفو ثانية، كأنه يُصارع النوم، حين يظنُّ أن النوم قد سحقه، يزحف إلى سريره، ويلقي جسده، لكنني بعد قليل وبعد أن أنشغل أنا عنه، أراه يجلس متربّعًا فوق سريره يداعب فروة رأسه، ثم - ودون أن أنتبه - يفاجئني بأنه فوق مقعده يمتصُّ سجائره ويرتشف الشاي.

ربما المهرجون لا يأتيهم النوم، ربما أذهانهم طوال الوقت مشغولة بما هو أهم، كيف يمكنهم أن يثيروا الضحك لدى أرواح مرهقة؟ شغلتنى حكاية المهرج كثيرًا، خاصة بعد أن شاهدته مصادفة يتسحب آخر الليل من الباب الخلفي للسيرك بعين يلمع فيها الحزن.

قررتُ أن أذهب إلى السيرك لمشاهدة عروض المهرج بصورتها الحية وسط تفاعله مع الجماهير بعد أن شاهدتها مرارًا كتمارين جافة على سطوحه.

لم يكن شادي يعرف أين يمكنهما أن يحتفلا بتلك المناسبة، اقترحَ عليه سلمى أن يذهبا إلى "زونين آليه" أو شارع العرب كما يُطلق عليه البعض هنا في برلين، قالت إنها كانت تتمنى زيارته لكن الفرصة لم تسعفها، اصطحبها إلى هناك، تأبطت ذراعه وهو يشرح لها طبيعة المكان الذي يُعد أشهر الأماكن التي يجوبها العرب في أوروبا.

ظلاً يجوبان الشارع وهما يطالعان المقاهي والمحلات العديدة التي تحمل أسماء عربية خالصة. حدّثها عن رحلته الطويلة هنا في برلين، وعن طموحاته العلمية العديدة ومشروعاته المستقبلية، اقترح عليها شادي أن يتناولوا الطعام في محلٍّ يقدم الأطعمة المشوية بنكهة سورية. سألها عن أسباب حضورها إلى برلين، حدّثته سلمى عن انضمامها إلى حركة كفاية وأنها أحد أعضائها

المؤسسين، وعن دور الحركة في تهيئة التربة التي نبتت فيها الثورة المصرية. وعن تلك الفاعليات الكثيرة التي كانت تشارك فيها، خاصة هناك على سُلّم نقابة الصحفيين، وعن معاناتها من التضييق الأمني المستمر وممارساته الفجة تجاهها حد أن الأمن قد سلط عليها أحد طلابها بأكاديمية الفنون من أجل ابتزازها بمقطع فيديو فاضح ومفبرك بعد أن استطاع هذا الطالب أن يحتضنها عنوة بأحد القاعات. لم يكن أمامها بعد كل ذلك سوى أن تغادر القاهرة بعد أن راسلت إحدى الأكاديميات الفنية هنا في برلين.

شادي يتابع بدهشة وأسى، سلمى فاجأته بضحكة صاخبة، وهي تستعيد مشهد سقوطها على درجات البهو والذي حدث منذ قليل. التقطت المفارقة. لحظة سقوطي كانت تمثل لحظة فارقة في التاريخ لأنها نفس اللحظة التي سقط فيها مبارك.

ضحك شادي. تابع ساخراً: - مفارقة غريبة، ربما كان من الأفضل أن تسقطي من زمان يا سلمى.

دَقَّت سلمى بعنف على المنضدة وهي تواصل ضحكها. قالت إنها قد ترسم لوحة تعبر عن هذه المناسبة. ثم عادت تفكر بجدية. سألها شادي: فيم تفكرين؟

اسم اللوحة. ردت سلمى. شردت، تابعَ شادي شرودها الجميل. عادت
ثانية تضرب المنضدة مُتثنية..... "سقطة البجعة"

- ما رأيك؟ هل هو اسم مناسب؟ ها يا شادي؟

هزَّ شادي رأسه، لكنه لم يشعر تجاه الاسم بالارتياح الكافي.

اللحظة الفارقة في التاريخ تتجسد هنا بكل ثقل دلالاتها ومزيتها، العقيد
حازم الشناوي وأحد مساعديه وقليل من الجنود في مبنى الجهاز العريق الذي
بدا خاليًا، متظاهرون غاضبون يحيطون بالمبنى من كل مكان، تستغرقني
هذه اللحظة الفريدة، المبنى العريق الذي ظلَّ لسنوات طويلة رمزًا للقهر
والاستبداد يتهاوى أمام حفنة غاضبين تخلصوا من إرث الخوف والخنوع
الذي كبَّلهم سنوات وسنوات، الآن يحاولون اقتحامه، بالأمس كان يتجمد
الدم في عروقهم إن اضطُرَّ أحدهم للمرور من أمامه.

العقيد حازم الشناوي يفرم أوراقًا ومستندات أمامه، ينظر من النافذة
على المشهد الغريب المُستفز، يتصبب عرقًا ويأمر مساعده بمواصلة فرم
المستندات سريعًا، يهرول المتظاهرون إلى داخل بهو المبنى، يتجولون في

أروقتة، يبحثون عن سراديبه السرية، عن أدوات التعذيب، عن معتقلين تحت الأرض، عن أشياء سمعوا عنها، سرّبها لهم السلطة عمداً أو توهمتها مخيلة الخوف والرعب لديهم.

يجري العقيد حازم الشناوي فرعاً وهو يقبض على طبنجته، هل سيلجأ إلى الصدام من أجل إثبات القوة والهيبة؟

لا أظن أن ذلك سيكون مفيداً الآن، يتابع من أعلى ما يحدث في أدوار المبنى بالأسفل، يشعر بالدوار، أحد جنوده يُسعفه بملابس نسائية، يصفعه العقيد على وجهه، يهرول إلى أحد السلاالم الجانبية، غاضبون في كل مكان، يحتلون المبنى تقريباً، يبحثون بالمستندات والملفات السرية الخطيرة. اللحظة صعبة بالفعل على حازم الذي يؤمن بأهمية عمله وقيمة هذا المبنى في حماية البلاد من المؤامرات التي تستهدف الإيقاع به، يدرك أيضاً معنى أن تقع هذه المستندات الخطيرة في أيدي هؤلاء العابثين، هذه المعلومات الثمينة التي جمعها الجهاز خلال سنين طويلة عن كل شاردة وواردة تحدث في ربوع البلاد إذا انتشرت وشاعت بين العامة لهدمت بيع وصوامع وصلوات، ربما ما غمضت عين أحد مرة أخرى في هذا البلد، وقد لا يأمن الرجل إلى زوجته التي بجواره على فراشه ولا الأب إلى ابنه إذا ما استطاع أن يتيقن أنه ابنه بالفعل، المستور

والمخفي وما كان يجري تحت بئر السلم وخلف الأبواب التي يظنُّ الناس أنها مغلقة، كل ذلك يحويه هذا المبنى، صور، شرائط، مكالمات فاضحة، ملابس داخلية، أوراق ومستندات، اعترافات بخط اليد، قوائم طويلة تشمل الجميع، أطباء وعلماء، إعلاميين وممثلين، لاعبي كرة ومطربين، شيوخًا وقساوسة، كبار الموظفين وصغارهم، لم يكن الجهاز يستخدم ذلك في إيذاء أحد، فقط من أجل السيطرة وسوق الجميع من أجل هذا الهدف الأسمى الذي يصبو إليه هذا الجهاز العظيم، أمن هذا البلد واستقراره.

حتى اللحظة الأخيرة واصل العقيد حازم الشناوي فرم كل ما تصل إليه يده من ملفات، وحتى اللحظة الأخيرة كان الجندي يلاحقه بالملابس النسائية، وحتى اللحظة الأخيرة كان العقيد مترددًا، حتى وهو يسمع وقع الأقدام الغاضبة للمتظاهرين التي وصلت إلى الطابق الأخير للمبنى.



قدّم المهرج عدة فقرات مدهشة نَمَتْ عن موهبة غير عادية وعن تمتعه بلياقة عالية رغم سنه الكبيرة. يصرخ وسط تصفيق حاد من الجماهير كلما انتهى من عرض إحدى فقراته. لكنه يطالبهم بمزيد من التصفيق. بعد أن فرغ رفع قبعته ليقدم تحيته للجمهور، أخذ يقذفها لأعلى عدة مرات ويتركها تسقط على رأسه. الجمهور ظلّ يصفق بحماسة صادقة للمهرج الذي انتزع ضحكاتهم بألعابه البهلوانية ومواقفه الطريفة وملابسه العجيبة. لم ينصرف المهرج، وقف في منتصف خشبة المسرح. ظننا أنه ما زال في جعبته ما ينوي تقديمه. لكنه فاجأنا نحن الحضور بدموعه الغزيرة، لم يفهم أحد ما الذي يعنيه ذلك، البعض ظنّ أنها خدعة من المهرج، توقعوا أنه سيفاجئهم بعد قليل بقفزاته العجيبة ومشيته المضحكة، كنْتُ مندهشاً مثلهم. صدمني المهرج العجوز حين بدأ فجأة في النحيب بصوت أزعج الجميع، تعالت

همهمات الجماهير المرتبكة التي لا تعرف سبباً لما يحدث فضلاً على أنها لا تريد لأحد أن يفسد مرحها الذي دفعت ثمن التذكرة من أجل اقتناصه، قطع المهرج تلك الهمهمات المتعالية بصوت مرتجف..

- أيها السادة، أنا مجرد رجل مزيف يتخفى خلف تلك الأقنعة والمساحيق والألوان الفاقعة حتى لا يبدو لكم وجهه المخيف الذي شوهته أحزانه.

دار المهرج عدة دورات في حلقات صغيرة وبقدمين مرتعشتين. وقف قبالة جماهيره المندهشة:

- أنتم مجرد بُلّه تدفعون ثمن التذكرة لتسرقوا ضحكاتي ثم تتركون أحزانكم على مقاعدكم قبل أن تخرجوا إلى حياتكم البائسة دون أن تردوا لي تلك الضحكات ثانية.

الجميع ينظر بعيون مرتبكة إلى المهرج. يمطون خراطيمهم إلى الأمام إزاء خطابه الفلسفي اللاذع الذي لا يخرج سوى من مهرج. لكنه كان يواصل:

- أربعون عاماً كاملة وأنتم تتسللون كل ليلة إلى تلك القاعة ترمون لي بأحزانكم وتسرقون الضحكات من داخلي ثم تنصرفون، بينما أُللم أنا أحزانكم من فوق أرضية هذه القاعة. حتى في الليلة التي ماتت فيها زوجتي وجدتم هناك ما تسلبونه من داخلي.

- ١٣ -

لا يعرف د. شادي كيف غافلته سلمى سريعاً وقفزت إلى حيث بحيرته
الأسنة لتضرب بريشها الأبيض الرقيق سطحه الراكد وعمقه المُستقر،
فُتحركَ الثابت وتُقلق الجامد.

فهل له بثقله أن يجاري خفتها الطاغية؟

أنا أدرك عمق هذه الاختلافات بينهما، شادي مثلاً يرى أن الثورة
المُشتعلة هناك في القاهرة مجرد فوضى عمياء فوق أرض تموج بالفوضى منذ
زمن، وأنها لن تُنتج سوى فوضى جديدة، سلمى تُراهن على أنها رحم كبيرة
مضطربة سيبتلع كل هذه الفوضى القديمة، ثم حين يهدأ سيعيد تشكيلها
وتنظيمها من جديد بشكل أكثر جمالاً.

نظرة شادي إلى الثورة تتلاءم وطبيعة العالم الذي يفضل أن يتعامل مع الثابت والمحدد، ربما يزعجه المتحوّل والمضطرب، المتحول والمضطرب يناسب طبيعة الفنان القلقة، وربما هما مصدر إلهامه.

شهر كامل قضياه في برلين، ثلاثون يومًا استثنائية لكليهما، حدّثته سلمى عن تجربة زواجها الأولى التي لم تستمر سوى أشهر قليلة، كان أستاذًا في كلية الفنون الجميلة، رغم ذلك كان رجلًا قبيحًا كلوحة مشوّهة، لا يفهم عن المرأة سوى أنها مجرد باليتة يغمز فيها فرشاته اللعينة التي لا تشبع، لذا تعددت مغامراته سعيًا وراء تحصيل ألوان مختلفة من اللذة، لكنها مع شادي تشعر أنها قد وجدت رجل عمرها، هكذا سمعتها تقول له ذات مساء وهما يتناولان القهوة داخل أحد مقاهي برلين.

النقلة النوعية الكبيرة في علاقتهما ستحدث قريبًا فيما يبدو، لأول مرة منذ عشرين عامًا يحصل د. شادي على إجازة من عمله، تعجّب شادي كثيرًا عندما نبهه البعض في المعهد لهذه الحقيقة.

يُلقب شادي في برلين خاصة لدى الأوساط العلمية والأكاديمية بحمار الشرق السريع. ربما لأنه يظل يركض طوال الوقت وراء طموحاته ومشروعاته العديدة دون توقّف.

أخيراً يتوقف حمار الشرق أمام أنثى جميلة تستحق أن يتوقف عن الركض من أجلها.

في باريس يواصلان الركض معاً، يركضان تحت قوس النصر، وحول ساحة الباستيل المبللة بمطر الصباح، تصطحبه سلمى لمشاهدة المعارض الفنية الكبرى في مركز بومبيدو، بعدها شاهدا عرضاً بأوبرا باريس بالملابس الرسمية، يتناولان عناقاً حاراً فوق أحد المدرجات الخضراء لحدائق التويليري، كما حضرا عروض المولان روج الصاخبة، والتقطا صوراً تذكارية مع طاحونته الحمراء الشهيرة.

في باريس يكتشف شادي أن الحياة عريضة جداً وعميقة بدرجة لا يستطيع العلم أن يستوعبها وحده. كما أدركت سلمى حين ينام شادي بين ذراعيها أنه طفل صغير هادئ بقامة عالم فيزياء كبير. طفل هادئ تحتاجه إلى جوارها دوماً؛ ربما ليكبح جماح روحها الثائرة القلقة.



أخذتُ عدة أيام حتى أستطيع تجميع حكاية سيدة الحمام وزوجها عامل المصنع كاملة.

بدت لي في بدايتها كحكاية عابرة، كل الحكايات تبدو في بدايتها عابرة، لكنني حين انتهيتُ من تفصيل تلك الحكاية بدت لي قدرة الإنسان العجيبة على المواءمة من أجل استمرار الحياة بهدوء.

المواءمة نظرية كبرى في فن إدارة الصراع مع الحياة حتى الرmq الأخير. في البداية ربطتُ بين اللقطات القادمة من خلال نافذة الحمام المكسورة للسيدة وهي تستلقي في البانيو وبين لقطات أخرى مصاحبة تجري في شرفة ملاصقة لها بنفس الشقة، في اللحظة ذاتها التي تكون السيدة في الحمام، يدخل زوجها بقامته القصيرة إلى الشرفة، يشعل سيجارة تلو سيجارة، العصبية

الواضحة تبدو مسيطرة على الموقف سواء في الحمام؛ حيث تضرب السيدة الماء بقدميها حيناً، أو ترفعها في توتر لتسندهما على حافة البانيو حيناً آخر، تبدو حركة يدها عصبية وربما متشنجة، أو في الشرفة حيث يتصاعد الدخان من فم الرجل عصبياً كأنه يحاول أن ينفث عن ثورة من غضب مكتوم.

بعد قليل يُضاء نور الغرفة، يظل الرجل في الشرفة، يستلقي على مقعد خشبي، تتجلى لي صورة السيدة على صفحة مرآة الدولاب وهي ترفع فوطة عن شعرها المبلل، تمشط شعرها سريعاً بأطراف أصابعها وتغيب، بعدها بقليل تُطفأ الأضواء تبعاً في كل أنحاء الشقة الصغيرة، ضوء خافت شاحب يبقى في الغرفة على هديه أرى ظل السيدة يستلقي على السرير يهدوء، بعدها يضرب الرجل بأصابعه ما تبقى من آخر سجائره ليتسحب إلى الداخل، فأرى جسده متوتراً قلقاً في تقلباته بجوار جسد السيدة الهادئ.

الموقف ظل يتكرر كل عدة أيام بنفس تفاصيله، باستثناء وحيد حدث ذات مرة أن السيدة دخلت إلى الشرفة بعد أن جاء من الحمام والتقطت سيجارة من علبة الرجل المكونة على السور الحديدي، حين أشعلتها ترك الرجل لها الشرفة.

لكن نبتة الحكاية بدت لي جلية وواضحة حينما وجدتُ الزوج يهبط عصر كل يوم من أتوبيس المصنع المتهالك، يحمل في يديه وجبة المصنع

الفقيرة ليققسمها مع زوجته وأولاده. عند الخامسة أشاهده وهو يحاول أن يغفو قليلاً، يلقي بجسده المرهق على فراشه.

ربما هي حكاية عن سيدة مقهورة ورجل مهزوم فشل في تحقيق أحلامه، الفارس المهزوم في كرامته لا ينتصب سيفه، يظل سيفاً مُطأطأ الرأس بروح الخنوع.

أزعجني ذلك كثيراً، سجلته في أوراقي.

لكن ما حدث عند السابعة كان مُحيرًا ومُربكًا بقدر ما كان كاشفًا جليًا، عامل المصنع يتأبط يد زوجته سيدة الحمام في مرح، يعبران الشارع، يضحكان، يتطلعان إلى الواجهات الزجاجية للمحلات، يجلسان بحديقة شعبية، يشتري عامل المصنع لزوجته غزل البنات، ويشعل هو سيجارة، في طريق العودة يبدو عليهما المرح.

بعد ساعة تظهر سيدة الحمام في البانيو، ويشعل الرجل سجائره العصبية في الشرفة.

هي حكاية عن المواءمة إذًا، سيدة الحمام وأسرتها يعيشون بتجمع سكني فقير خاص بالعمال. مباني مُتهالكة يضرب الصرف الصحي ومواسير

المجاري في أساسها. لكنهم يمارسون حياتهم بصورة عادية أو ربما يتظاهرون بذلك.

سيدة الحمام تمارس حقّها في الموائمة مساء كل خميس حين تتسحب من تحت زوجها بخفة ودون أن تُعمّق من خييته، تُلملم تعاستها مع خصلات شعرها، تتجه إلى الحمام، تستلقي في البانيو، لتمارس حقها في الموائمة بأطراف أصابعها في ألمٍ ممتع.

في الصباح أراها في المطبخ تُعد وجبة الإفطار وسندوتشات الأطفال، يركب عامل المصنع الأتوبيس المتهالك، تتابع السيدة من الشرفة طفليها وهما يقفزان بحرص فوق قطع من الطوب المرصوص بعناية كجسر صناعي على سطح بركة من ماء المجاري، في الظهيرة تعود للظهور ثانية في المطبخ، تدير كاسيت قديم بجوارها، تدندن معه، وتطرق بأصابعها أحياناً، تحرك الغطاء، فيندفع البخار لأعلى مشكلاً حلقات متداخلة، تضع الأطباق والملاعق على مائدة تظل قوائمها الأربعة تتراقص إلى أن تضع سيدة الحمام تحتها مكعبات من الخشب، تستقر المائدة، حينها تذهب سيدة الحمام إلى النافذة تترقب وصول أتوبيس المصنع المتهالك الذي يحمل زوجها.

*عمو لبيب بالتشيرت المونتيجو على المقهى، يبدو لي وقد تجاوز الثمانين، بخاخة الربو لا تُفارق يده، يجلس وحيداً يتناول كوباً من الينسون، لا يُفارق المقهى الشهير بوسط القاهرة إلا عندما يغلق المقهى أبوابه، حينها أراه يزحف ببطء إلى شقته القديمة القريبة من المقهى ووسط القاهرة والتي يستأجرها منذ الخمسينيات من شركة التأمين التي كان يعمل بها. يعيش عمو لبيب وحيداً في هذه الشقة منذ أن رحلت زوجته قبل عشرين عاماً ومنذ أن هاجر ابنه الوحيد إلى كندا قبل عشر سنوات.

راقبتُ عمو لبيب طويلاً حتى أدركتُ عمق هواجسه ومخاوفه، يخشى عمو لبيب أن يموت وحيداً، دائماً يأتيه هذا الهاجس، ودائماً كان يُردّد قبل أن ينام: ستموت يا لبيب وحيداً، سيكتشف الجيران موتك بعد أن تتسرب

رائحتك التتنة إلى أنوفهم، سينسى الناس كل مآثرك، سينسون شهامتك، سيرتك الطيبة، سنواتك الطويلة التي قضيتها على الجبهة، صورتك التي تعزز بها مع ناصر والمعلقة في مكان مميز بصالة بيتك، سينسى الناس كل ذلك ولن تبقى منك سوى رائحتك التتنة، فيتأففون حين يهب اسمك على ذاكرة أحدهم فجأة.

الآن عمو لبيب على المقهى، يتابع الدكتور شاكر عودة وهو عائد من الميدان بعد المشاركة في إحدى الفاعليات الثورية وسط تجمع من الثوريين، يشير إليه الدكتور عودة من بعيد، إشارة تنم عن معرفة قديمة، وبمثلها يردُّ عمو لبيب التحية.

بعد تتبع سيرة كليهما تبين لي عمق هذه المعرفة القديمة، يتميان إلى نفس الجيل الواحد الذي عاش انتصارات وانكسارات عديدة، شاهداً آمالاً تُشرق في سماء هذا البلد ثم تأفل وتختفي كأنها لم تكن، تزاملاً قديماً في أحد الأحزاب اليسارية، كما عاشا معاناة السجن والاعتقال ومحنهما كرفيقين، انزوى عمو لبيب بعيداً وآثر السلامة والهدوء، فيما واصل الدكتور عودة طريقه النضالي بعد أن عركته الأيام وأنضجت تجربته السياسية، فخلع رداءه القديم المهترئ، وارتدى آخر عصرٍ يتناسب مع موضحة السلطة وبالمقاس الذي حددته له، فبدأ الرجل في ثيابه الجديدة مثل بهلوان عجوز لا يصدق

حركاته وقفاشاته أحد، فيضطر أن يستعيد قفاشاته ونوادره القديمة حتى لا ينفُضَّ الناس من حوله، عمو ليبب يعرف كل ذلك، يعرف أن المناضل الكبير تحوّل إلى مجرد بهلوان يرقص على موائد السلطة العامرة بما لذّ وطاب بعد أن ملّ بطنه الطعام الجاف، الديك اليساري الكبير تم تدجينه منذ زمن داخل الحظائر الآمنة، هو بصعوبة الآن دجاجة بائسة تلتقط ما يُنثر لها من حَبٍّ حتى تبقى دجاجة مهذبة، وكل هذه اللمة من حوله لمة زائفة، هم فقط يطمعون أن تشملهم الدجاجة برعايتها، أن تفيض عليهم بما منحها الله من فيضه، أن يتعلقوا بريشها ربما يدخلون معها الحظيرة.

عمو ليبب فيما أظنُّ يكنُّ احتراماً رغم ذلك لتاريخ الدكتور عودة القديم، وكثيراً ما أسمعُه وهو يحدث نفسه حينما يرى سقطات رفيقه القديم "كان الله في عون مؤخرتك يا شاكر، تحملتُ أسياخاً من الحديد تكفي لبناء عمارة كاملة".



نزار الحلبي يبدو لي الآن قلقاً أكثر من أي وقت مضى، قلق نزار هذه المرة يختلف عن هذا القلق القديم الذي ظلّه ينتابه طوال السنوات الماضية منذ أن جاء إلى الخليج قادماً من حلب، نزار كان دائم القلق من أن يتم "تفنيشه" من محل الحلويات الذي يعمل به، فيعود أدراجه إلى حيث فقر مُذل وُلد وترعرع

بين جنباته في حلب، ثم بعد أن زال قلقه هذا وأصبح مألّكاً للمحلّ تولّد لديه قلق آخر، ماذا لو قرّر أهل هذا البلد أن يمتنعوا عن أكل الحلوى الشامية التي يقدمها محله؟ كل ليلة يأتيه هذا الهاجس، أنه سيستيقظ في الصباح ليجد ذائقة الناس قد تغيرت، ولن يجد من يبيع له فطائره ومخبوزاته. هذه المرة يعتريه قلق مختلف، منذ سنوات ترك نزار زوجته وطفلته ذات الأعوام الخمسة وهاجر بعيداً، ظلّ يُداوم على الاتصال بأسرته الصغيرة وإرسال المصاري إليهم في حلب، في كل عام كان يعد زوجته وأسرته بأنه سوف يطلب إجازة من صاحب العمل ويعود لرؤيتهما، وفي كل عام كان يتعلل ولا يفعل، بدأت زوجته تُلحّ عليه بأن تأتي وطفلته للعيش معه، ظلّ يتهرب بحجج واهية، ثم انقطع عن اتصالاته مكتفياً بتحويل المصاري لهما عن طريق البنوك.

نزار الآن يفترسه القلق كل ليلة حين يضع رأسه على وسادته بجوار زوجته التي تزوجها في غربته، فيهبُّ من نومه فزعاً، يمسك هاتفه ويتصل بزوجته وطفلته التي استوت أنسة ناضجة، يطمئنُّ على أخبارهما، يسألها عن تلك الثورة التي هبّت هناك فجأة، ولا ينسى كل مرة أن يكرر لهما وعده بالعودة.

يوسف الآن يكتب مقالاته دون حيرته السابقة، الرؤية الآن شبة واضحة، تنحى مبارك وترك الأمر للجنرالات، شوارع القاهرة رغم ذلك لم تهدأ، المتظاهرون في كل الميادين يطالبون بتحقيق أهداف الثورة، يحاول يوسف أن يترئس ليرى من سيركب في النهاية.

الكتابة في هذه المرحلة مثل المشي على الشفرة الحادة، كتابة على حبل دقيق، اهدأ واستقم في طريقك، الميل يميناً أو يساراً سيقود إلى السقوط، الطريق الوحيد الواضح هو الهجوم على مبارك وأركان نظامه، هذا أسلم، دعك من هذا السجال بين الثوار والجنرالات حتى ينتهي.

ربما لديك خيار آخر متوازن، ملّ هنا قليلاً ثم ملّ هناك بعض الوقت، كن مثل البندول، لا تركن إلى حال، اكتب كأنك تتطوح فوق أرجوحة.

هذه فترة شكّ، فكن داعراً حتى يأتيك اليقين.

مارس عهرك تسلم يا صديقي.

"ثروة مبارك وأولاده"

هذا المانشيت مناسب لتلك الفترة الحرجة.

"محنة العقيد حازم الشناوي تبدو لي جلية وواضحة الآن، يتخفي الرجل طوال الوقت، هو يجيد هذا بحكم مهنته، أطلق شاربه وترك شعر لحيته يتفرع كأوراق شجرة غير مهذبة، يغطي صلعته بقبعة عريضة، صدغه اللحيم تنسّس دون جهد منه، ربما بسبب معاناته وانسداد شهيته، لا يستقر في مكان واحد أكثر من أسبوع، مرة أراه في شقة بضاحية متطرفة على أطراف القاهرة، ومرة في شقة بالإسكندرية، تارة عند أهله في الصعيد، وتارة أخرى عند أهل زوجته في الدلتا.

يشعر دائماً أن هناك من يلهث خلفه، من يطارده، أنفاس ملتهمبة موتورة تلسع سطح قفاه العريض، أيادٍ ممتدة دائماً مثل خطاطيف مسنونة تلاحقه، تتمنى أن تطوله، أن تنغرس في ظهره، وجوه غامضة تظهر له في الظلام، تصرخ في وجهه ثم تختفي، كأنها تلعب معه لعبة مُرعبة، وجوه يشعر أنه قد شاهدها من قبل، سمع صرخاتها قبل ذلك، وجوه غاضبة كأن بينها وبينه عُقدة قديمة تسعى لحلها. اضطر أن يترك زوجته وأولاده عند أسرة زوجته، يعيش وحيداً دون سطوته القديمة، دون بستريرج المهنة، السيارة والسائق، البدلة الرسمية والكاب، وفوق ذلك وتلك.... الهيبة، انكسار نظرات الآخرين أمام نظرتة الحادة، انحناء الرؤوس والرقاب لمروره السريع، جلسته

على مكتبه وهو يداعب سيجارته بين يديه حين يتفرس وجوه الواقفين أمامه
ممن يُظنُّ أنهم من أعداء الوطن، ريالته التي تسيل دون وعي على حواف فمه
عندما يفاجئهم ويحاصرهم فيعلنون استسلامهم ليصبحوا تحت سيطرته،
ثم ينخرطون كجنود مخلصين في خدمة الجهاز العظيم والوطن أو على أقل
تقدير كمواطنين صالحين يمشون داخل الحائط.

محنة العقيد حازم الشناوي مُستحكمة منذ أن هبَّ خراء يناير على هذا
البلد الأمن.



بدا لي المهرج كفيلسوف كبير يرتدي قبعة ملونة يلقي الناس الحكمة. شعرتُ بتعاطف كبير نحوه وإن كنت لا أفهم على وجه التحديد ما يريده، كما لا يفهم كل الحضور من حولي. عرض المهرج على الجماهير الحاضرة أن يدفع لهم أجره لهذه الليلة مقابل أن يمنحوه ما سرقوه من ضحكاته.

مدير السيرك طلب من ابن المهرج أن يدخل إلى خشبة المسرح ويسحب والده ليُنهي تلك المهزلة، تسحب الولد بخجل، بذراعه المفتولة جذب والده، تملص منه المهرج. أشار إليه وهو يتحدث إلى الجماهير الشغوفة بمتابعة ما يحدث:

- هذا ابني، ولدته أمه داخل جنبات هذا المكان، وتقريبًا حدث الحمل هنا أيضًا ذات ليلة بعيدة بجوار قفص الأسود. لكنه عندما برزت عضلاته

رفض أن يصبح مهرجاً مثل أبيه. هذا الذي يسرق الناس منه بهجته كل ليلة دون أن يهتم أحد بأن يبلغ الشرطة. ربما يستمتع ذلك الولد أكثر بأكل الزجاج وبالمشي على المسامير. لا تندهشوا نعم المهرج هو الذي أنجب ذلك الشمشون الذي لا يكثر ث حين يضعون الأثقال على صدره ولا يتوجع عندما يضربون رأسه بالمطرقة.

إدارة السيرك أسدلت الستار لتنتهي ذلك العرض السخيف الذي أفسد حفلة التاسعة، المهرج شقَّ الستار وخرج ثانية إلى الجماهير بينما يحيط به ابنه وبعض العمال ليسحبوه للداخل. لكنه انفلت منهم. ظل يصرخ: أيها اللصوص لا تنصرفوا قبل أن تردوا لي بهجتي.

رغم ذلك بدأ الجميع في الانصراف بعضهم يضحك بسخرية، بينما لمعت عيون بعضهم بدموع متعاطفة. تابعتُ المهرج من مقعدي، ظلَّ ينظر إلى ابنه بعين غائمة. جلس على ركبتيه وبدأ يمسح دموعه، سمعته يقول لابنه إنه سيرحل بعيداً إلى حيث لا يعرفه أحد؛ ليسرق بعض الضحكات من مهرجين مغفلين يشبهونه. انصرفتُ بعدها من السيرك، ولأيام عديدة لم أشاهد المهرج على سطوحه المجاور لسطوحي، ظلتُ أذهب إلى السيرك يومياً مُترقباً عودته.

في كشكي الخشبي على النهر مرّت عليّ الراقصة ذات البهجة هذه الليلة،
قالت حان موعد أن أنفذ وعدي لك بمكافأتك على لوحتك التي رسمتها
لي، سأرقص لك الليلة رقصتي الجديدة، رقصة النحلة، اصطحبتني في كارتة
بحصانين إلى بيتها. في الطريق كنتُ أفكر ماذا ستكون رقصة النحلة تلك،
حين وصلنا بيتها، قادتني إلى أعلى، اجتزنا عدة درجات خشبية. أدخلتني
إلى غرفة واسعة وغابت. الغرفة بيضاء اللون، تكسو نوافذها ستائر حمراء
وتفترش أرضيتها سجادة خضراء كبيرة، في أركانها تنتشر وسائد قطنية
عالية. جلستُ على واحدة مترقّبًا، بعد قليل دخلتُ فرقتها الموسيقية تباغًا،
ضاربو الطبل، عازفون على المزمار والرباب والعود، ثم توالى عليّ عددٌ من
الراقصات أخذن يدرنّ حولي وهن يصدرنّ طنينًا كالنحل، ثم فجأة انشق
الستار عن الراقصة ملكة البهجة في ثيابها الشفافة. يتمايل جسدها المرمرى في
انسيابية الماء الرقاق، يشب ويلب، ينثني ويتمدد، ينقبض وينبسط، لا يهدأ
ولا يكل، ثم سكن هذا الجسد فجأة في منتصف الغرفة، وتوقفتُ الموسيقى،
ظننتُ أنها قد انتهت وما تمنيتُ ذلك، تحلقت الراقصات حولها وهن يصدرنّ
طينهنّ، يعبثنّ بملابسها بحثًا عن هذه النحلة. دارتُ أمامي على أطراف
أصابعها. رمتُ شالها الأحمر على صدري. شالٌ من الحرير معبق بروائح
شقية فاض بها جسدها الذي عاود سباحته في أمواج الموسيقى التي عادتُ

تتدفق، تحاول أنغام المزممار أن تلاحق رشاقتهما، بدأت تتجرد من ثيابها؛ لتجرد غريزتي من سكونها. تلقي ملابسها في الهواء قطعة وراء قطعة بحثاً عن هذه النحلة الموعودة التي تعبث بجسدها، ربما تسكنها هنا النحلة، كنتُ أظن وأحلق معها، كأني ذكر نحل هائج يتعلم الصبر والحكمة من جسدها الأبيض الناعم الذي أصبح مكشوفاً تماماً لي إلا حزاماً يكشف أكثر مما يستر.

تلف وتدور وتنثني بقبابها وأوديتها. أظنُّ أن النحلة تلبد هنا. خلف هذا الحزام. كامنة في بئر العسل. فجأة شدت حزامها وطوحته لي، ثم ارتعشت. كأن النحلة بالفعل كانت هنا.

دارت الفتيات حولها ليقبضن فيما يبدو على تلك النحلة المزعومة. الراقصة ملكة البهجة شقت الصف بعدها، ثم استلقت مرهقة بجواري.



كل صباح تأتي الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة إلى النهر مع أول خيط للشمس، لا تخلف صباحاً إلا وجاءت للنهر بمجرد أن يعلن النهار عن بداية بزوغه، قررت أن أراقبها لأعرف ماذا تفعل عند النهر في هذا التوقيت، تسحبتُ إلى هناك، تخفيتُ خلف الحشائش والنباتات، رأيتها تتجرد من ثيابها، وتقذف بها على الشاطئ، تخطو على أطراف أصابعها خطوات قليلة إلى عمق النهر، تتحسس جسدها الأبيض مثل شمع، قامتها طويلة وفارعة، نحيفة بدرجة لافتة، ولها خصر دقيق ينساب في رقة كما خيط رفيع من الضوء، تتحسس صدرها كأنها تتحسسه لأول مرة، أو كأنها تبحث عنه، يبدو القلق جلياً على ملامحها وقسماتها الجميلة، تتطلع في صفحة الماء الصافية وهي تقبض على هذا التواء الخجل الذي يبرز على استحياء يمين ويسار

أسفل ذقنها، نتوءان لا بروز لهما بحجم حبتي ليمون، دمعة حزينة تفلت من عينيها، دمعة طويلة تأخذ شكل خيط دقيق ينسال على خدها ثم يقفز لينساب في استواء في هذه المنطقة المنبسطة بين النتوءين، كل صباح أشاهد دمعتها الوحيدة تلك وهي تلمع بين النتوءين الدقيقين، ثم أشاهدها تخرج من النهر وهي تنظر في عين الشمس، تجلس على حافة النهر وحيدة كنورس أبيض ينتظر وعدًا مجهولاً، تضمُّ ساقها إلى ذقنها وتخفي وجهها داخلها، تظل عدة دقائق هكذا، بعدها تهبُّ واقفة، تجري ثانية ناحية النهر، تغترف من الماء بكفيها وتدعك به صدرها، تظل تفعل ذلك إلى أن يعلن النهار سيطرته الكاملة على السماء، ترتدي الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة ثيابها وتنصرف. في كل الصباحات التالية أشاهدها تمارس نفس الطقس.



قبل أن يلتقي شادي بسلمى كانت تجاربه الجنسية محدودة تمامًا، رغم أنه عاش في أوروبا ما يقرب من العشرين عامًا، لكنه عاشها كذكر حامل ينظر للأُنثى بعين محايدة، حتى سنوات مراهقته في القاهرة لم تكن تحفل بالكثير، لا يتذكر شادي من كل خبراته مع الجنس سوى فيلم بورنو قديم شاهده مع أصدقائه أيام الثانوية العامة، لكنه لم يقوَ على استكمال المشاهدة حينها؛ لأنه أصيب بالغثيان وبرغبة مُلحة في القيء، فاعتذر لأصحابه وانصرف، لكنه ظلَّ في مراحل متعددة من حياته يندم حين يتذكر أنه غادر دون أن يستكمل المشاهدة.

في فترة فوران المراهقة تلك، وبالتحديد الزمني بعد فيلم البورنو بعدة شهور، كان في انتظار شادي تجربة أكثر عمقًا. قُبلات ساخنة جادتْ بهنَّ

عليه سيدة أربعينية كانت أمه تستعين بها أحياناً يوم الجمعة لتساعددها في تنظيف بيتهم، احتوته السيدة بين جسدها العامر وثيابها المتسخة بعدما لاحظت نظراته المرتبكة وغير المحايدة التي يختلسها من آنٍ إلى آخر للتأمل في عجيزتها المنتفخة والشاردة في كل الاتجاهات حين تفرص على الأرض بأطرافها لتمسح الأرضية بقطعة من الخيش.

ضمّته السيدة إليها وراحت تقبله بنهم أنثى مُحَنَكة، لم يكن شادي يعرف كيف يمكنه أن يُقبل ذلك الفم الواسع المتلهف الذي يكاد يبتلعه، ظلّ لفترة ساكناً وهو يلبد بين حضنها المتسع والمتسخ كفأر مرتبك بين مخالب قطّ سمين قدر، فجأة هاجت رياحه الساكنة بفعل غريزته الفطرية واستطالت واستحالت إلى جمرة ترمي بشرها في أنحاء جسده، راح يجذبها نحوه، حتى دخلت أمه الحجرة فجأة؛ لتنهى هذا المشهد الجامح وليسود الظلام التدريجي، حين عاد والده من صلاة الجمعة، لم تستطع الأم أن تُخفي عنه تلك الحادثة، فباغته برمية صائبة من حذائه، تركت هذه التجربة سواداً ملحوظاً تحت عين شادي اليسرى جراء ضربة الحذاء الطائر، كما تركت أثراً باطنياً عميقاً إذ ظلّ شادي يتمثل جسد المرأة المُهْتَاجَة دائماً برائحة الفنيك والماء الممتزج بالصابون على وحي تجربته الأولى.

لم يغير هذا المنظور المُستمد من تجربة واقعية عن جسد المرأة سوى جسد سلمى الراقى الأبيض النظيف، في برلين كانت القبلية الأولى، القبلية كانت دون تخطيط أو إعداد مُسبق، هي قبلية فرضها السياق، رغم ذلك لم تكن مجرد قبلية عابرة، لأن القبلية الأولى لا يمكنها أن تكون كذلك. سبقها بوح بتلك المشاعر الوليدة التي نبتت على عَجَلٍ، فضلاً عن أن شادي حينما تحسّس شفتي سلمى الدقيقتين في تلك اللحظة باغتته رائحة قرنفل طازجة، ظل يتشممها دوماً في كل اللقاءات التالية عندما يقترب من جسدها، القبلية الأولى كان لها أيضاً بُعدها النفسي العميق لأنها كانت كفيلة تماماً بطرد رائحة الفنيك والماء والصابون من خياشيمه إلى الأبد.

لكنني الآن على موعد مع أول لقاء حميمي كامل بين شادي وسلمى، وعلى الرغم من محاولتي الدائمة لأكون على الحياد من شخصي فإنني أجديني مُنحازاً لحد بعيد إلى حكاية سلمى وشادي، وأترقب كثيراً تطورها وما قد يحدث فيها من أزمات أو تعرجات وصولاً إلى ذروتها، لكنني لا أتعجل ذلك، أحب أن تستوي الحكاية دائماً على نار هادئة، فندق الكونكورد لافايت بباريس القريب من ساحة النصر يحوي الجسدين الباحثين عن شفرة ما يمكن من خلالها الاتصال إلى ما هو أبعد من اللذة العابرة، يبدو لي اللقاء عفويّاً، لم يتم التخطيط والتجهيز له، سلمى بجوار شادي على أريكة عريضة تتوسط غرفتهما المزدوجة، يتطلعان إلى صورهما التذكارية التي التقطها منذ

عدة أيام في أنحاء باريس، سلمى في قميص رقيق ابتاعته هذه الليلة من أحد المحال دون أن يخطر على بالها أن هذا القميص سيشهد هذه اللحظات الحميمة الأولى، عطر باريسى وضعته قبل خروجها في الظهيرة لا يزال عالقاً بجسدها، يداعب العطر الهادئ أنف شادي فيشني على رائحته الجميلة، ويترك ما بيده من صور، يتطلع إلى عينيها الواسعتين، يقبلها بهدوء، على أرضية الغرفة يتبادلان عناقاً طويلاً، يذوبان معاً في محاولة أولى لاستكشاف جسديهما وقراءتهما، أرى شادي مرتبكاً، ربما من قلة تجاربه السابقة، سلمى متمرسة حَصَلَتْ تجاربها من زواجها السابق ومن لقاءات قليلة عابرة.

ماذا تفعل يا شادي؟

كيف يعتلي الرجل امرأته وهو يرتدي نظارته الطبية السميكة؟

لا بأس يا صديقي، ستعرف طريقك إليها، فقط اعتمد على حواسك وفطرتك، تشمّمها، سياًخذ جسدها بيديك، تتبّه سلمى، تناولت نظارته بأطراف أصابعها وطوحت بها بعيداً وهي تضحك.

سلمى تحاول أن تقود شادي بصبر وهدوء إلى جسدها.

ينتهي اللقاء سريعاً، يرتقي شادي جانبها، تربّت سلمى على كتفه.

رغم ذلك أظن أن نظرة الرضا غائبة.

نزار يتقلب على جمر القلق لا يزال؛ منذ أسبوع وهو يتصل بأسرته في حلب دون مُجيب، حاول مرارًا دون فائدة، اتصل بأهله وبعض أصدقائه، بصعوبة بالغة توصل إلى أن هناك غارات عنيفة حولت المدينة إلى مدينة أشباح، وأن هذه الغارات قد طالت الحي الذي يوجد به منزله هناك، لكن ما تركه على حافة الانهيار والشك أن أحدًا لم يؤكد أو ينفي حقيقة إن كانت هذه الغارات قد نالت من المنزل؟ كما أن أحدًا لم يعرف تحديدًا مصير عائلته.

ماذا ستفعل يا نزار في ورطتك تلك؟

هل ستخلى عن محل الفطائر الشامية، شقاء غربتك وكدك وذكُّك؟

ستعود إلى حلب؟

ستبحث عنهما وسط الركام والجثث؟

الخيارات صعبة، الله كريم صديقي.

فوجئتُ برجلين من رجال الشرطة يقفان أمامي، ظننتُ أنهما يرغبان في أن أرسـم لهما لوحة مشتركة بزيهما الرسمي، أخرجتُ قلمي الرصاص وألواني وبدأتُ في الرسم. ضحك الرجلان بسخرية عميقة. طلبا مني إبراز هويتي، قلتُ لهما:

- أنا الذي صنعتُ كل هذا العوالم. وأنا الذي منحتها حكايتها.

سألني أحدهما:

- ما حكايتك؟

سكتُ قليلاً قبل أن أجيب:

- ليس لي حكاية. ما زلتُ أبحث عن حكايتي.

نظر كُلُّ منهما للآخر ثم انفجرا في الضحك؛ يبدو أنهما ظنَّا أنهما أمام

مخبول، قالوا وهما يواصلان الضحك:

- عليك أن تبحث عن حكايتك بعيداً عن هنا؛ لأننا سنزيل هذا الكشك الذي يُشوّه جمال النهر.

ثم واصلا الضحك وهما يتعدان. بدأت في جمع أوراقى وأقلامي في صمتٍ.

أذهبُ إلى السيرك يومياً مترقباً عودة المهرج، أتابع سطوحه كل ليلة لعلى أجده يقوم بتمريناته المعتادة، لكن دون فائدة، لم يظهر على سطوحه، ولم يعد يسطع كما كان على خشب المسرح التي قضى عليها معظم حياته.

هل سيجد ما يبحث عنه؟ أعرف أنه يبحث عن مهرجين مغفلين مثله، يظنُّ أنه يستطيع أن يخدعهم ويغافلهم ويسرق منهم ضحكاتهم وبهجتهم. لا أعرف، هل ستعثر يا صديقي على مهرجين مغفلين مثلك؟



- ٢٠ -

أستطيع الجزم بأن هذه الليلة التي شهدت الممارسة أو التجربة الحميمة الرابعة بين سلمى وشادي انتهت بنظرة رضا واضحة وصافية ل كليهما، حَدَثَ ذلك مع بداية إطلال الصباح، يبدو أن اكتشاف مفاتيح ومفردات جسد شريكك ومناطق إلهامه ولذته عمل مهمٌ ومبهج يضاف إلى أهم إنجازاتك الشخصية. هذا ما بدا لي جليًا وأنا أرى سعادة طاغية تكاد تقفز من عين شادي، وابتسامة واسعة تؤطر فم سلمى التي تجلس على ساقه وتهتف بكلمة أحبُّك كما لم تهتف بها من قبل.

لم يستطعا النوم بعدها، فضلًا التريض والمشي في هذا الوقت المبكر من النهار في شوارع باريس، خاصة أنهما سيغادران في الصباح التالي إلى برلين.

تناولا القهوة الفرنسية على أحد مقاهي الشانزليه، وتابعنا عناوين الأخبار في الصحف العربية التي تصل إلى باريس، الصحف كانت تنقل أجواء القاهرة الساخنة وأحداث الثورة الملهبة بعد خلع مبارك، كما كانت تتحدث عن تقديم رموز حكمه إلى المحاكمة، الصحف تعرض صوراً لهؤلاء الذين ظنَّ الناس أنهم نصف آلهة في ملابس المحاكمة البيضاء، الأحجار الثقيلة تترنَّح، تسقط من فوق صدر هذا البلد الراقد منذ سنين على ظهره، والذي عليه أن يستعد ليملأ رثتيه بهواء جديد، وأن يدلك جسده المقروح من طول الرقاد، يجرب أن يطوح ساقيه المتيسين في الهواء بحذر كطفل يمشي لأول مرة، ثم يخلع نعليه الذائنين، ليرتدي حذاءً جديداً يتناسب مع أحذية الشباب الذين يمسكون أصابعه ويمشون به ببطء في الشوارع النظيفة.

لا يمكن لأحد أن يشرد به خياله قبل شهرين ليتوقع لحظة كهذه، هكذا تقول سلمى لشادي الذي يرتشف قهوته بهدوء ويستمتع لسلمى دون انتباه كامل. تغلق سلمى الصحف، أراها تشرد بعيداً، كأنها تطير فوق أحياء القاهرة وميادينها، منذ زمن كانت تحلم بلحظة كهذه، حين حدثت تلك اللحظة التي تمتتها وعملت من أجلها لم تكن في المكان المناسب، لأن سلمى قد هربت من القاهرة التي اضطهدتها قبل بضعة شهور، القاهرة الفاجرة التي فبركت لها

فيديو فاضحًا، القاهرة المستبدة التي تمشط الآن ضفائرها الطويلة لتطلقها في
الهواء ترح بعد أن فكت أربطتها وقيودها القديمة الصدئة.

يلاحظ شادي ارتباكها وقلقها، يسألها، فاجأته بأنها سوف تعود إلى
القاهرة.

القرار صادم. لم يجد شادي ما يُبرره، يمكن لسلمي أن تُحقق في برلين
نجاحًا في عملها بالأكاديمية التي التحقت للعمل بها.

- ستكونين بجواري، سنستكمل حياتنا معًا.

- يمكن أن نستكملها في القاهرة يا شادي.

- القاهرة!

يتعجب شادي، نعم القاهرة يا شادي، الأوضاع ستتغير للأفضل هناك
لا شك، يمكنك أن تستكمل مشاريعك العلمية هناك، صدقني هناك روح
جديدة تطلُّ على هذا البلد، هذا البلد يحتاجنا يا شادي أكثر من أي وقت
مضى.

- هذا البلد لا يمكنه أن يستوعبني يا سلمى، لم يستوعبني وأنا شابٌ
صغير، لفظني كابن ضال، كيف يستوعبني الآن؟

- أنا أجد مسئولية نحو ما يحدث هناك يا شادي، أنا شاركتُ في صناعة هذا بطريقة أو بأخرى، ولا بد من العودة لاستكمال هذا الحلم.

- أنا لن أعود إلى هذا البلد سوى في تابوت.

- لن يكون أحد في الحاجة إليك وقتها.

عناد سلمى أصيل، لا أظن شادي سيفلح في هزيمته.

طلب منها تأجيل مناقشة الأمر لحين العودة إلى برلين، جهز الحقائق، حاول أن يحوي قلقها بين ذراعيه، وقلق سلمى فائر، لا يهدأ من مجرد الهددة.

نام شادي غير مطمئن.

دموع سلمى أتحسسها حامية متوترةً تسيل على وسادة فندق الكونكورد لافايت.



سيدة الغسيل تواصل هوايتها في غواية العابرين أسفل شرفتها، كل يوم يقع في حبال فتنتها من يسوقه حُظُّه ليسقط مشبكها على رأسه أو بجوار قدميه، حين يرفع رأسه لأعلى ليرى من أين سقط المشبك على رأسه تصطاده وتخطفه على الفور بمفاتن نصف جسدها العلوي العاري تقريباً، والذي يرفرف في الهواء مع قطع غسيلها الساخن قليل الحياء، للسيدة أيضاً ابتسامة ساحرة تأسر وتسلب عقل من يظن أن هذه الابتسامة الجميلة مُرسلة إليه دون كل العابرين، فيركبه الشطط، ويطمع في أن تزيد. كثيرون سقطوا في غوايتها، أرى عشرات الرجال كل مساء يطوفون تحت الشرفة، ينتظرون أن تخرج عليهم، تبهيم منحها المبهجة، ومشبكها الذي يتم الاحتفاظ به كهدية تذكارية قيمة لا تُنسى.

كل ليلة كان جمهور سيدة الغسيل يزداد، أصبح الميدان أسفل شرفتها يعجُّ بالمغرمين المنتظرين، سيدة الغسيل كانت تطرب فيما يبدو لي حين تهلُّ على جمهورها الغفير الذي لا يمل الانتظار، تظل تبحث عن هذا الوجه الجديد الذي سيمر أسفل النافذة، وتمنحه ابتسامتها ومشبكها.

الآن تبدأ سيدة الغسيل لعبة جديدة أكثر إثارة، ستمنح عطايا جديدة ومنحاً سخية لا تُرد.

لن تكتفي بالمشبك، كل ليلة سترمي قطعة من قطع غسيلها الساخن قليل الحياء مُعطرًا برائحة جسدها، هبة مجانية كل ليلة منذورة للموعد.



العجوز ممسوح الذاكرة يزحف في طريقه مثل دودة كسيحة يقتلها الملل، يزحف ببطء مَنْ مَلَّ كثرة المشي، من لا يتمنى أو يتوقع خطوة تالية، يحمل العجوز في يديه، حقيبة بلاستيكية بها أدويته الشهرية التي اشتراها لتوّه، مراهم للروماتويد ولخشونة المفاصل وآلام الظهر، مُسكنات للصداع والتهاب البروستاتا، أقراص الضغط، أدوية السكر، قطرات للعين، نقط لانسداد الأنف وأخرى لإزالة شمع الأذن، أربطة ضاغطة لمفاصل اليد والقدمين، أدوية للسعال، حبوب مهدئة، مضادات للاكتئاب، مقويات

لِلذَكرَة، وعلب من فيتامينات متنوعة. في طريقه يسترجع ذكريات غابرة من أجل التسلية وقتل الملل، وجوه تطل على ذاكرته وسرعان ما تنطفئ لتحل أخرى مكانها، يتذكر أسماء بعضها ويفشل في تذكر أغلبها، مواقف مضحكة وأخرى بطعم الأحزان وبينهما لا يتذكر فيما أنفق باقي سنوات عمره الطويلة، معظم من يعرفهم ماتوا أو تقريبًا كلهم، ربما يتبقى واحد أو اثنان، لا يتذكر عنهما شيئًا الآن، أه، واحدة منهما هي ابنته نرجس، لا نادية، دائمًا كان يخطئ في اسمها، نرجس ماتت تقريبًا، نادية هي التي تمرَّ عليه في منزله كل أسبوع وتتأكد من أنه يتناول أدويته بانتظام، نرجس....أوه أقصد نادية، هي الصغرى، لا تقريبًا هي التي كان ترتيبها قبل الأخير، الأخير كان ولدًا، هو الذي غرق في البحر، وربما هو الذي صدمه القطار، أظنُّ أن الكبير الذي كان يعمل في السكة الحديد هو الذي هرسه القطار بين عجلاته.

أين المنزل؟ في هذا الشارع تقريبًا، لا على الناصية القادمة، المنزل في هذا البيت الذي يقع أسفله محل البقال. أين محل البقال؟



من الصعب أن تظل على الحياد البارد تجاه شخوص حكاياتك، حاولت ذلك وفشلت إلى حد كبير، دائماً ستجد من يجذبك إلى أن تستمع إليه بإنصات، وأن تتفهم أكثر نزعاته وأحاسيسه، أنا أتعاطف مثلاً مع سيدة الحمام لكنني لا أشعر بالتعاطف ذاته مع زوجها عامل المصنع. ربما فقط أشفق عليه. كما كان المهرج قبل أن ير حل أكثر لطفاً من سائق عربة الإسعاف.

في حين تبدو لي الراقصة ملكة البهجة أكثر وضوحاً من الدرويش.

لا أفهم لماذا يسعى الكيميائي في تجاربه الغامضة التي يجريها في معمله والتي تجعله لا يهنأ بنوم إلى ابتكار مادة جديدة تهب الإنسان الخلود الدائم دون أن يفنى أو يدركه الموت؟

رغم ذلك أنفهم لماذا يشعر العجوز بالملل بعد سنواته المديدة على هذه الأرض.

أدرك تمامًا معاناة الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة، أقدرُ محنة العقيد حازم الشناوي، وهو اجس عمو لبيب، وانفعالات الفتى المراهق وجموحه نحو سيدة الغسيل حين يمارس كُلَّ ليلة العادة السرية أسفل شرفتها.

تصلني حيرة واضطراب يوسف وهو يكتب مقالاته، أعرف عمق محنة نزار. أستوعب وأقدر قلقه على أسرته، وإن كنتُ لا أشعر بالارتياح الكافي إزاء أنانيته المفرطة.

أشعر بعمق ورطة الدكتور شاكر عودة وتردده الواضح حين يتحسس تاريخ مؤخرته وبواسيره الملتهبة بفعل قضبان الحديد التي رشقتها كل الأنظمة في شرحه فيقدم قدمًا ويؤخر أخرى في أثناء محاولاته الحالية في استعادة حسه الثوري القديم مدفوعًا بأجواء القاهرة الملتهبة والمشجعة، لكنني حتى الآن لا أدرك رغبات سيدة الغسيل ومصدر بهجتها حين ترى الجموع المحلقة حول شرفتها.

سلمى شخصية مُحيرة بالنسبة لي، لا أستطيع أن أتوقع خطواتها التالية، تركب القلق باستمرار ويركبها، تسير على هدي ذلك النور الذي يشع من

أحاسيسها الملتهبة، والأحاسيس لا يمكنك أن تتنبأ إلى أين ستحملك حين تتركها تتأبطك بين ذراعيها.

شادي أكثر وضوحًا، ربما كوضوح العلم والنظريات العلمية، أطراف معادلته دقيقة وظاهرة، يقف على الحياد من كل شيء ليرى بوضوح وبمنظرة شاملة كاشفة، لكن رسوخه العلمي فشل أمام سلمى، اجتاحت رقتها، اختلت معادلته وفقدت اتزانها، ذابت مادته الأصلية وفقدت عناصرها حين امتزجت بسوائل الوداعة والخفة.

الآن شادي على المحك. في غرفة الكونكورد لافايت ينام الآن دون أن يشعر بالارتياح الكافي رغم سعادته بعلاقته مع سلمى، سلمى بجواره قلقة، أراها تهبط من رقدتها، لم تنم، تتناول ورقة وتكتب، تكتب وهي تنظر لشادي النائم بجوارها في سلام عالم الفيزياء المطمئن إلى أن العالم لن ينتهي غداً، هي تكتب بحس الفنان الذي لا يطمئن إلى أي شيء، تكتب ولا تستطيع أن تمسك دموعها المنفلتة على أوراقها. انتهت الآن من رسالتها، وضعتها تحت الوسادة، ثم ارتدت معطفها على عجل، وتناولت حقيبتها. رسالة سلمى قطعة من البلاغة الجميلة التي تناسب دون التمحك في استعارات

أو تشبهات تستنزف وتستهلك المعنى، قطعة من الصدق، أُعيد الآن كتابة رسالتها في دفاتري:

"شادي، أعذر عن كل ما حدث، لم يعد أمامي خيار آخر، أسوأ ما في الوجود أن تمتلك بدائل كلها لها نفس الطعم المر، أنا فضلت أن أواجه وحدي نتيجة خياراتي دون أن أحاول إقحامك في هذه المغامرة، أعذر عن كل هذا الألم الذي تسببت لك فيه. أكتب لك هذه الكلمات وأنت تنام إلى جوارِي، وأنا أمسح على شعرك، أسترجع كل هذه الأوقات السعيدة التي قضيناها معاً، والتي هي ربما أجمل ما مرَّ بي، رغم هذه المدة القصيرة التي جمعتنا لكنك - لا شك - تُدرك أنني قد أحببتك، أحببتك رغم كل هذه الاختلافات والفروق بين شخصيتك وشخصي. أنا أعرف أنك لا تؤمن كثيراً بالإحساس، ربما تهتم بالمادة وما تشغله في الفراغ أكثر من إيمانك بالروح وما تعمِّقه داخلنا من أحاسيس، أنت تتعامل مع سيارتك على أنها مجرد كتلة من الحديد لها طول وعرض وارتفاع. تسير عندما تضغط على دواسة البنزين وتقف عندما تضغط على المكبح. سيارتي ليست كذلك، سيارتي تشعر بتوترٍ وقلقي. أنا أيضاً أستشعر اضطرابها تحت قدمي. أحرص على أن أغسلها بنفسِي، أضع دائماً عطرًا فوّاحًا بداخلها ليس من أجلي بل من

أجلي وأجلها، لا أتركها تنام وحيدة، أضع معها دباذيب وعرائس تشاركها ليلها في العراء حين تمتطي الكلاب أسقفها. هناك بعد يغيب عنك دائماً، لم تنتبه له أنت ولا أينشتين ولا علماء المادة. الإحساس يا شادي. جوهر هذا الوجود هو في الإحساس. المطر ينزل حين يصله إحساس نبتة على وشك أن تموت من الظمأ في الصحراء، فقط حين يستشعر صدق حاجتها تهطل دفقاته لتمنحها حياة إضافية. أعرف أنك ستضحك عندما تقرأ هذا، لكن إحساسي دفعني أن أعود إلى القاهرة في هذا الوقت المضطرب، القاهرة التي خرجتُ منها قسراً، أعود إليها الآن نائرة، أعرف أن كلامي هذا قد لا يعني لك شيئاً، وأعرف أن عودتي للقاهرة قد تُسبب لي الكثير من المتاعب، كما أعرف أن الثورة حيوان أعمى حينها يغدر قد يغدر بأولاده أولاً، رغم ذلك لا توجد أمامي خيارات أخرى. سأذكرك بمشهد حدث هذا الأسبوع هنا في باريس بكازينو المولان روج حينما جلسنا على البار الأحمر، دخلت فراشة ملونة، اندفعت نحو المصباح الذي كان يعلونا، تتبعناها أنا وأنت، بعد عدة ثوانٍ سقطت ما بين كأسينا محترقة، سألتني: هل تعرفين لماذا تندفع الفراشة إلى الضوء؟ كنت لا أعرف الإجابة حقاً. قلت لي: الحشرات غبية لا تتعلم. هذه الفراشة بالتأكيد رأت فراشات قبلها تندفع للضوء وتحترق. ما يجذبها للضوء هو مادة فوق بنفسجية توجد به، أنثى الفراش تبعث مثل هذه المادة من أجل أن يأتيها الذكر الذي يندفع نحو الضوء ربما يعثر على أنثاه. لكنه يحترق.

لسبب ما لم أقتنع بما تقول رغم ما فيه من تبرير منطقي، لكنني لم أكن
أملك تبريراً كافياً وقتها. الآن ربما أمتلك ذلك التبرير. الفراشة ليست غبية.
الفراشة انجذبت للضوء وهي تعرف أن حتفها سيكون هناك. لكنها تعشق
الضوء. لا تستطيع منه فكاكاً، ذهبت إليه لتحترق بعشقها فيما تعشق. هل
فهمت شيئاً؟

قد تقول كلماتك الأثيرة: may be، قد تكون محنة الفراش هي نفس
مأزقنا يا شادي، بل ربما مأزق البشرية كلها يكمن هنا. دائماً هناك ما يجذبنا
إلى ما فيه حتفنا، ودائماً ما ننجذب نحوه دون أن نمتلك خياراً آخر.
ربما الآن تكون قد استوعبت لماذا كان عليّ أن أعود إلى القاهرة؟



هذه الليلة وأنا أطوفُ حول السيرك وجدتُ تجمعًا كبيرًا من الناس بجوار الباب الخلفي للسيرك، حين اقتربتُ وجدتُ المهرج يستند إلى حائط السيرك في حالة من الإعياء الشديد، رغم ذلك كان ينفجر منه الضحك، يسعل بشدة، يشخل صدره ثم يواصل إطلاق ضحكات صاخبة، ترتعش قدماه من الإجهاد، يغرق جسده في العرق المتفجر من كل مسامه، لكنه لم يتوقف عن هذا الضحك المخلوط بوجع عميق، أثار ذلك اندهاش الجميع، أعطاه البعض شربة ماء حتى يهدأ ويلتقط أنفاسه، ظلَّ يبتسم وصدره يعلو ويهبط، يُداعب خصلات لحيته البيضاء التي استفحلت دون تهذيب على أرضية خده الجافة المُتشققة، بدأ يتطلع بعين غائمة إلى من حوله، جاء صوته ضعيفًا مجروحًا، ذهبْتُ إلى مدنٍ كثيرة، ركبْتُ سفنًا ورحلتُ إلى موانئ عديدة بحثًا عن مهرجين آخرين أسرق منهم ضحكاتهم.

لم أجد مهرجين أسرق منهم ضحكاتهم. انفجرت منه حين غفلة ضحكة^٣
صاخبة عنيفة، اهتزت على إثرها سنُّ معدنية راشقة في فك المهرج العلوي.

كل المهرجين الذين صادفتهم في كل المدن كانوا مغفلين مثلي، لم يعد
لديهم ما أسرقه منهم، حين قابلوني حاولوا أن يسرقوا مني بهجتي، لكنهم في
النهاية اكتشفوا أنهم أمام مهرج مُغفل مثلهم، يسعل المهرج، يشخر ويضحك،
يُقهقه ويتأوّه، أثار ضحكه عاصفة من الضحك وسط الحاضرين، حين
سكت، بدت عيناه غائرتين، تلمع بدموعه التي سكنها الهدوء وجدتُ أخيراً
ما يجعلني أضحك حتى الموت، قالها وهو يحني رأسه على صدره، يسيل من
فمه ريمٌ أبيض يتخذ خطوطاً متعرجة على الباطن ذي الجيوب العميقة.

حام بعينه الزائغة في كل الاتجاهات، تهدأ ضحكته رويداً رويداً، سكنتُ
عيناه، ترسم ابتسامة واسعة صافية على فمه، ضحكة عميقة قادمة من قعر
روحه، ضحكة لا تنقطع أبداً، يرنُّ صداها ويظلُّ حائماً فوق رأسه الساكنة.

نزار الحلبي مثل طائرٍ نزق ترك فراخه الصغيرة في عُشه الأصيل وحيدة
بعد أن وعداها بوجبة دسمة، لكن المسافات أخذته بعيداً، لَقَطَ من البساتين
والحدائق الواسعة حباً كثيراً، لكنه لم يعد إلى عُشه القديم وفراخه الصغيرة،

بنى له عشًا جديدًا في هذه الأرض الثرية، ونسيَ تمامًا كل ماضيه، ثم بعد سنين نقره ضميره، عاوده الحنين إلى فراخه التي أصبحت طيورًا واعدة، حين عاد إلى تلك الشجرة حيث عشه القديم، لم يجد العُش، ولم يتعرف في كل الطيور التي قابلها إلى وجوه صغاره، فكتب على نفسه السياحة واللف والدوران والتحليق دون أن يهنأ جسده بهدوء تكفيرًا عن خطيئته.

نزار الآن في أحد معسكرات اللاجئين في ألمانيا، يفتش في الوجوه عن زوجته وابنته التي صارت أنسة، فلا يجدهما في كل تلك الوجوه البائسة التي شاهدها هناك، تأتيه مكالمة من أحد الأصدقاء، يدعي أن البعض قد حكى له أنه شاهد أسيرة نزار على الحدود الأردنية، فيطير سريعًا تجاه الأردن.



أَتَحَيَّلُ نَفْسِي دَائِمًا فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ بِأَنْنِي مِثْلَ دِيكَ مَنْحُولِ الرِّيشِ يَتَتَابَنِي
حُزْنٌ عَمِيقٌ حِينَمَا أَتَذَكَّرُ أَنْنِي حَتَّى الْآنَ بِلَا حِكَايَةٍ، تَمْنَحُنَا الْحِكَايَاتُ فِيمَا يَبْدُو
تِلْكَ الْهَالَةَ الَّتِي نُحِيطُ بِهَا أَنْفُسَنَا، وَهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْجَلَالِ الَّذِي نَبْدُو بِدُونِهِ
مَجْرَدُ فُرُوعِ هَائِمَةٍ فِي الْبَرَاكِ لَمْ يَنْبِتْ لَهَا جَذْرٌ فِي الْأَرْضِ مِثْلَمَا تَمْنَحُنَا الْحِكَايَاتُ
أَوْ جَاعِنَا وَسَعَادَتَنَا وَمَآزِقَنَا الْخَاصَّ.

رَغْمَ ذَلِكَ أَجِدُ لِدُنِّي فِي مِرَاقَبَةِ شَخْصِيَّةِ الَّتِي صَنَعْتَهَا. أُسَجِّلُ كُلَّ مَا
يَحْدُثُ حَوْلِي، وَمَا تَفْعَلُهُ شَخْصِيَّةٌ دَاخِلَ حِكَايَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ. أَعْتَبِرُ مَا أَقُومُ
بِهِ مِنْ تَسْجِيلِ حِكَايَاتِ شَخْصِيَّةِ تَمْرِينَاتٍ جَادَةٍ عَلَى السَّرْدِ قَدْ تَفِيدُ فِي كِتَابَةِ
حِكَايَتِي الْمُحْتَمَلَةِ، كَمَا أَنَّني أُعَوِّضُ ذَلِكَ بِصَنْعِ شَخْصِيَّةٍ جَدِيدَةٍ أَضِيفُهَا إِلَى
شَخْصِ عَوَالِمِي الْعَدِيدَةِ كُلَّمَا نَقَرْتُ صُورَةَ الدِّيكِ الْمَنْحُولِ رَأْسِي لِتَذَكُّرِنِي
أَنَّني رَجُلٌ عَارٍ مِنَ الْحِكَايَةِ.

"سلطان" آخر من صنعت حكايته.

يسبب لي سلطان هذه الأيام قلقًا وازعاجًا لا ينتهي، حين خططتُ سلطان على الورق منحته قامته مُنتصبة ترتكز على هيكل متين كجبل، وصدرًا واسعًا متنفخًا، جعلتُ الوجه غامضًا بلون المآسي، تحيط به جبهة عريضة مُزخرفة بأحداث معارك سابقة فبدت حين انتهيتُ منها كُنُصب تذكاري حافل، رسمتُ عينيه الجاحظتين بنظرات حارقة، أنفه مقوس لكنه حاد خادش مثل شفرة، العضلات المفتولة التي تمتلكها شخصيتي الجديدة جعلتها حشواً متيناً لذراعين طويلتين تنتهيان بكفين مُفلطحتين في وضع الاستعداد الدائم كخطاطيف من حديد.

الملمح الخارجي الحاد والقاسي لشخصيتي تلك مجرد قالب ظاهري لما هو أكثر خشونة وغلظة فهو مجرد وعاء صلب يحوي قلبًا خشنًا وصلدًا، عاطفة شرسة ملتهبة دائماً وطابعًا جافًا لا يلين.

حين انتهيتُ من شخصيتي الجديدة تجسدتُ أمامي أسطورة حية لكائن مربعٍ يخشاه الجميع ويهابه. أخذتُ أتأمل مشيته الواثقة وهو يدبُّ على الأرض بقامته تلك. من أجل ذلك منحته لقب "سلطان".

أطلقتُ سلطان في المدينة بين شخوصي، لكن قوة سلطان الغاشمة بدأتُ
تصيني شخصيًا بالرعب. خاصة بعد أن استطاع أن يسيطر على نفرٍ من
شخوصي المنفلتين ويستخدمهم في فرض نفوذه على الجميع.

لسببٍ أو لآخر توَهَّمتُ أن سلطان هو ابن المهرج الذي انتحر، قد يكون
هناك ما يجمع بينهما، لم أتوصل لذلك الخيط المشترك بين سلطان والمهرج،
ربما كلاهما كان يبحث عن شيءٍ فقد منه، استعدتُ كلمات المهرج حين
اقتحم ابنه خشبة المسرح بُناء على تعليمات إدارة السيرك ليسحبه بعيداً وهو
يخاطب جمهوره بخطبة وداعه التي اختفى بعدها:

"هذا ابني سلطان، ولدته أمه داخل جنبات هذا المكان، لكنه رفض أن
يصبح مهرجاً مثل أبيه الذي يسرق الناس بهجته كل ليلة دون أن يهتم أحد
بأن يبلغ الشرطة، ربما يستمتع سلطان أكثر بأكل الزجاج وبالمشي على لوح
من المسامير، المهرج أنجب ذلك الشمشون الذي لا يكثر حين يضعون
الأثقال على صدره ولا يتوجَّع عندما يضربون رأسه بالمطرقة".

لم أغير في نصِّ المهرج، أضفتُ فقط كلمة "سلطان" بجوار كلمة "ابني"،
تمنيت أن يغفر لي المهرج ذلك التدخل في نصِّه.

تَرَكَ سلطان السيرك بعد تلك الملهاة القاسية التي قَدَّمَهَا المهرج، كان
يريد أن ينسى أنه ابن هذا المهرج المغفل الذي يَهْبُ الضحك للآخرين فيما
يموت هو من الكمد والحزن.

ابن الضابط يصبح ضابطاً، وابن النجار قد يعمل بالنجارة، لكن ابن
المهرج لا يكون مهرجاً.

ابن المهرج يصبح سلطاناً.



قرار شادي بالعودة إلى القاهرة كان صادمًا وغير مبرر بالنسبة لأحد. وُصف القرار بالأحمق في أكثر التعبيرات تهذيًا من الأساتذة في المعهد، لم يستطع حينها أن يرد على علامات الاستفهام المنتصبة في أعينهم، طيلة الوقت يحاول أن يبرر لهم باختلاق أعذار واهية، كظروف شخصية طارئة ستدفعه للعودة. لم يمتلك شجاعة كافية ليقول لهم إن هناك من سرق منه روحه وعاد بها إلى القاهرة وأن عودته مجرد محاولة لاستعادة روحه المُسلوبة.

عشرون عامًا من النجاح قضاها هنا في ألمانيا، جاء إليها في العشرين من عمره مُحملاً بطموحات لا تنتهي، وبإيمان لا يُضاهيه إيمان بدور العلم في تحقيق سعادة البشرية على سطح هذا الكوكب، وهاربًا من مناخ عفن كفيل بقتل كل ما يمكن أن يمتلكه الفرد من طموح، عشرون عامًا انتصرت فيها

إرادته، شقَّ طريقه العلمي بكل صعوباته، إلى أن وصل إلى رئاسة معهد ماكس بلانك للفيزياء، وأصبح عضوًا في أكاديمية برلين للعلوم، ونال خلالها وسام الاتحاد الألماني للتميز من الطبقة الأولى وغيره من الجوائز، كثيرون راهنوا على أن هذه الرجل سيحقق ما هو أبعد من ذلك بكثير، إلى أن صدمهم بقراره المفاجئ.

مدام أورسولا مديرة منزله أعدت حقائبه استعدادًا لرحيله صباح الغد. الآن شادي في طريقه إلى حفل الوداع الذي أقامه له الأصدقاء بالمعهد.

يسند رأسه إلى المقعد الخلفي للسيارة، يتمنى أن يغفو قليلاً دون فائدة. يتطلع من زجاج السيارة إلى سماء برلين الصافية هذا اليوم، تشقُّ السيارة ميدان ألكسندر بلاتس في قلب برلين، تمرُّ السيارة أمام برج التلفزيون الشهير والذي ينتصب شامخاً بارتفاعه الهائل في قلب الميدان، كل صباح يمرُّ شادي من هنا، وكل صباح يعد نفسه أنه سيصعد هذا البرج قريباً ليشاهد برلين من أعلى، لكنه لم يفعل ذلك أبداً، كل صباح يُردد له السائق حين تمرُّ السيارة قبالة البرج: مليون سائح سنوياً يا سيدي يصعدون فيرنزيه تورم.

- أنا لا أعرف كيف لم تصعد إليه حتى الآن يا سيدي؟

- أنا اشتريت منه ذات يوم وسادة مرسوماً عليها مبنى التلفزيون.

وكل يوم يؤكد شادي بسائقه بأنه سيفعل يوماً ما.

- ٢٦ -

عرفتُ الآن سر ضحكات المهرج الأخيرة قبل موته، ضحك الرجل كما لم يضحك من قبل، ذكر لي سائق عربة الإسعاف الذي حَمَلَ جثة المهرج أن ملامحه كانت تشي بالبهجة والصفاء الداخلي، وكأنها حسب قوله "جثة تليق بمهرج".

غاز الضحك.

لا يمكن للمهرج أن يتحرر سوى بهذه الطريقة.

سيضحك المهرج في قبره، وسيضحك حين يُبعث.

سيضحك المهرج حتى لو هوى في قعر النار.

منذ عدة أيام كان العجوز ممسوح الذاكرة عائداً بحقيبة أدويته في رحلته الشهرية المعتادة لصرف علاجه وأدويته، ضلَّ الطريق إلى بيته كما يحدث كل مرة، لكن هذه المرة قادته ذاكرته الواهنة إلى شرفة سيدة الغسيل التي كانت قد تجلّت على جمهورها الواقف أسفل شُرفتها في الميدان الفسيح الذي ضاق على الواقفين، خاصة أن المكان أصبح يجذب بالإضافة إلى الجمهور الغفير لسيدة الغسيل كثيراً من الباعة الجائلين الذين جاؤوا إلى المكان وفرشوا بضائعهم، وانتشر بالمكان باعة العصائر والمرطبات والحلوى، كما نُصب على الأرصفة عدد من نصبات الشاي والقهوة، حيث كان الجمهور ينفق وقته الطويل في انتظار طلة سيدة الغسيل.

العجوز ممسوح الذاكرة تنبّه لهذه الأصوات والصيحات الصاخبة التي تطلقها الجموع الواقعة الملتهبة، البعض يُصفر، والبعض يشير بمنديله أو يلوح بقبعته ربما تنتبه له سيدة الغسيل وتمنحه ابتسامتها وقطعة ملابسها، لكن العجوز ممسوح الذاكرة لم يدرك سبب كل هذا الذي يحدث حوله، هو بصعوبةٍ يزحف مستنداً إلى عصاه يحاول أن يجد منفذاً ليمر به وسط هذا الزحام، هو بالطبع لا يرى سيدة الغسيل في شرفتها، لم يرفع رأسه من الأساس، أحد الحاضرين تنبّه له، أخذه من يده ليسحبه بعيداً عن الزحام، العجوز ممسوح الذاكرة قال إنه يريد أن يذهب إلى بيته في شارع.....

هذا الشارع الذي يوجد على ناصيته بائع البن أو ربما مطحنة الغلال.

دَوَّتْ عاصفة من الصباح فجأة، هناك ما وَقَعَ على رأس العجوز ممسوح
الذاكرة، الحاضرون يضربون كَفًّا على كَفٍّ، يمصصون الشفاه حسرة
ودهشة، قطعة الملابس الساخنة قليلة الحياء تختار العجوز ممسوح الذاكرة.
بدأ يتحسس ما على رأسه، ذَكَرَ له الرجل الذي يسحبه أنه محظوظ فقد
وهبته سيدة الغسيل عطيتها اللذيذة هذه الليلة.

تحسَّس العجوز ممسوح الذاكرة ملمس قطعة الغسيل، قال لصاحبه الذي
يسحبه... هذا الشيء أعرفه هو ذلك الشيء الذي ترتديه النساء ليحمل هذا
الشيء الذي لا أذكر اسمه الآن، ضحك الرجل، ثم أشار له ناحية الشرفة،
العجوز ممسوح الذاكرة بصعوبة كان يرى من خلف زجاج نظارته السمكة
هالة بيضاء لامعة، لكنه رفع رأسه وأشار إليها بيده، صَفَّق الحاضرون، فيما
أَمْسَكَ الرجل يد العجوز ممسوح الذاكرة ليعبر به وسط الزحام الذي بدأ
ينفض.

رائحة قطعة الغسيل التي تحوي رائحة جسد سيدة الغسيل بدأت تداعب
أنف العجوز ممسوح الذاكرة، تنعش خلاياه الميتة وحواسه المعطلة، تتخلل
خيائشيمه وتنساب داخله، تأخذ بيد أعضائه الساكنة من طول الرقاد، تقلب

فيما تبقى من ذكريات باهتة، حين وصل إلى باب بيته قال لصاحبه أعرف
تلك الرائحة جيداً، هذه رائحة ثدي نافر.

الغريب أن في الليالي التالية التي راقبت فيها العجوز وجدته يتناول
أدويته الكثيرة بانتظام وحرص بالغ، كما أصبح ينام دون قلق، كأن الملل
قد فارقه بعد أن تعلق بأهداب البهجة التي منحتها إياه سيدة الغسيل، التي
أصبح يأتيها كل ليلة ويقف تحت شرفتها في انتظار طلتها الطاغية دون أن
ينسى الطريق في الذهاب والإياب.



استثمر سلطان جسده القوي وقوته الخارقة فيها هو أجدى من عروضه التي يقدمها في السيرك من أجل أن يتسلى بها جمهور غير واعٍ مع حبات البوب كورن، عمل (بودي جارد) في أحد الملاهي الليلية الصاخبة، منذ البداية أراد إثبات وجوده، في بداية عمله في الملهى علّق أحد الزبائن من قدميه على باب المحل كذبيحة لأنه جادل النادل في أثناء دفع الحساب، ورغم توسلات الرجل والدماء النازفة من أنفه إلا أن سلطان صمّم أن يتركه معلقاً حتى الصباح كعظة ماثلة أمام الجميع، وفي أثناء فض مشاجرة عابرة بين الزبائن قضم أذن أحدهم، ليللم كل فرد صخبه ويجلس على طاولته صامتاً مصدوماً، كما لم يتهاون حين علم أن إحدى فتيات الليل تسرق الزبائن إلى محل مجاور، فعطر وجهها الجميل بزجاجة كاملة من الماء المُقطر لتصبح نُصباً

تذكاريًا مشوِّهاً تتعلم منه فتيات الليل قيمة الوفاء للمكان الذي يُحصلنَّ منه أرزاقهنَّ. بعدها فَرَضَ سطوته على المكان، بات الجميع يعمل له ألف حساب، صاحب الملهى لا يستطيع أن يخالفه، يستشيرُه في كل صغيرة وكبيرة تخصُّ المحل، خضع له أكثر الزبائن شغبًا ونفوذًا، الكل يعرف غشامة قلبه وقسوته إذا غضب، بات قلبه حجريًّا لا يرق لأحد ولا يعرف سوى قانون القوة، تمدَّد نفوذه إلى ما هو خارج المحل، فرض إتاوة على السيارات التي تقف أمام الملهى وعلى الباعة الجائلين الذين يفرشون بضائعهم على الرصيف المقابل، كما أضطرت بائعات الهوى إلى دفع ضريبة خاصة لسلطان على كل زبون يشتري منهن لذته، يفرض ضريبة على الموتى والمصابين الذين ينقلهم سائق عربة الإسعاف عبر سيارته.

سمعتُ صاحب السيرك يشتكي لمن حوله من أن سلطان يطلب نصف ثمن التذكرة نظير حمايته للسيرك.

الراقصة ملكة البهجة قالت لي عندما زرتها بالأمس إن سلطان ورجاله يأتون إليها ليستمتعوا برقصتها الشهيرة دون أن يدفعوا كما بقية الناس، بل إنه في المرة الأخيرة عرض عليها مبلغًا من المال يقتنصه منها شهريًّا مقابل حمايتها.

سلطان بدأ إذن يتوَحَّش ويتعملق داخل عالمي الذي صنّعه. سرّت في طريقي مهمومًا بذلك، لاحظتُ أن أصحاب المحال يغلقون أبوابها سريعًا ويهرلون. شظايا وبقايا زجاجات فارغة تتطاير هنا وهناك. خلا الشارع في لحظات من المارة. سارع الجميع بإغلاق النوافذ والشرفات. لم يتبقَّ من أحد سواي وتلك المجموعات المتعاركة.

المعركة فيما يبدو قد وصلت ذروتها، قطع الملابس تتناثر في كل مكان، تخفيت وراء إحدى الأشجار، أتابع مأخوذًا ومرتعِدًا ما تفعله شخوصي، الدماء لطخت كثيرًا من الوجوه المشوهة، جرى أحدهم مفزوعًا دون أن أتبينه وهو يحمل بعضًا من أحشائه المتدلية بين يديه، سقط كثيرون برءوس مشطورة أو أصابع مبتورة، وولّى آخرون الفرار وسط ضحكات وشخرات ساخرة مُستهزئة، جلجلت صيحة قوية نافذة مُسيطرة، صمّت الجميع.

"سلطان" يُمسك سيفًا يعبث برأس أحدهم كفاتح أسطوري يتوق للانتقام، ظلّ سلطان يعبث بسيفه في فروة رأس هذا القابع بين يديه والذي تبين أنّهُ سائق عربة الإسعاف الذي رَفَضَ أن يدفع هذه المرة الضريبة التي فرضها سلطان علي تلك الجثة التي ينقلها داخل سيارته. سلطان فيما يبدو لا يعبث، بل يمارس فنًا تشكيليًا مقصودًا وبمهارة فائقة على رأس سائق عربة

الإسعاف، إذ نحتَ حدوة حصان واضحة بارزة على تلك الرقعة المنبسطة أمامه، بعدما انتهى نحى سلطان سيفه جانباً، ثم أخذ يتأمل من بعيد لوحته بحس فنان عميق، هز رأسه راضياً، أخرج من سيالته مطواة قرن غزال، ووضع لمسته الأخيرة فيعمق اللوحة... حرف S بلون الدم تحتويه حدوة الحصان بشغف زائد.

انسحب بعدها سلطان ورجاله في طقس احتفالي صاخب. خرجتُ من مكمني، سرتُ في طريقي مشغولاً بما يحدث، أفكر في شخصية سلطان ودلالاتها.

كيف يمكن كبح جماح قوته وبطشه؟



وصل أخيراً د. شادي إلى المعهد، مرَّ بتمثال نصفي لماكس بلانك
الفيزيائي الشهير، وبآخر لأينشتاين، يحتفظ شادي بصورة قديمة يضعها على
مكتبه بالمعهد تضم أينشتاين وبلانك مع كوكبة من العلماء، كان يتعجب
دائماً كيف استطاعت صورة واحدة أن تتحمل قوة كل هذه العقول مجتمعة،
ودائماً كان يتمنى أن يتسع الكادر ليشمله، أن يكون واحداً من هؤلاء الذين
جعلوا العالم أكثر وضوحاً.

يتحاشى الآن أن ينظر في عيني أحد؛ يدرك أن نظراتهم ستحاول أن
تخرق جمجمته؛ لتؤكد من أنها جمجمة فارغة كثمرة جوز هند سرق أحد
القرود لُبها.

يبدأ الحضور في إلقاء كلمات احتفالية رسمية بلهجة ودودة يثنون خلالها على عبقريته ويُعَدِّدون إنجازاته، ويتأسفون في نفس الوقت على قراره المفاجئ بالعودة.

لن يتفهَّم أحد هنا يا شادي سحر ذلك الهاتف الغامض الذي يناديك بصوت يشبه صوت الوحي المُلهم منذ شهر كامل. لن يستوعبوا أن ثمة نداءات وإشارات قدرية تباغتنا جميعًا في مراحل رحلتنا عبر هذه الحياة، تبدو مصيرية وفاصلة، كأن وجودنا في العالم لن يكتمل إلا بتلبية ندائها الغامض، فلا نستطيع الفكاك منها.

لن يتفهَّموا محنة الفراشة التي ذكرتها لك سلمى في رسالة وداعها.
خطفن روحك سلمى يا صديقي.

أنت مُضطر أن تصدق نبوءة سلمى عن أن زلزال الثورة الذي بدأ قبل شهرين وما زالت توابعه مُستمرة سيفتح مسامَّ جديدة، وأن الأرض هناك أصبحت مُهيأة لغرس نباتات يانعة بدلًا من الأشجار العجوز التي ماتت في أماكنها منذ سنين دون أن تثمر شيئًا.

سيصدق ذلك فقط لأن سلمى قالت بروح مخلصة.

يلكزه أحد الحاضرين حين لم ينتبه للنداء من أجل الصعود إلى المنصة لإلقاء كلمة على الحاضرين، يشعر شادي بالخرج، لم يمنعه ذلك من أن يُلقي كلمة مقتضبة، عبر خلالها عن شكره وعن ذكرياته الجميلة هنا.

الآن يتوقف عن الكلام، يرتشف من كوب زجاجي أمامه، يتنحّج، ثم يوضح للحاضرين أنه مُضطر للعودة للقاهرة لأسباب جوهرية. منها أنه يتمنى أن يخدم وطنه في هذه الأوقات التي يغير فيها الوطن جلده.

أظنُّ يا شادي أنك وقفت كثيرًا أمام المرأة للتدريب والمران على أداء هذه الجملة الصعبة دون أن تضحك أو تتلعثم أو تشخر.

الوحيدة التي أطلعها على الحقيقة كاملة كانت أورشولا ؛ كان من السهل عليها أن تلاحظ ما يمر به من اضطراب طيلة الشهر الماضي كله، كانت تراقب شروده لساعات طويلة، أحاديثه التي لا تنتهي مع نفسه، مكالماته الهاتفية الغامضة بالساعات مع شخص مجهول، أدركت أورشولا بعد ذلك بفطرة المرأة أن الطرف الآخر امرأة لاحت في الأفق لحمار الشرق فجعلته يتوقف عن جموحه وركضه السريع، حد أنه لا يُبالي كثيرًا بالتأخر على مواعيده اليومية، في أثناء مكالماته تلك كان أورشولا تلاحظ هياجه تارة ورقته ووداعته تارة، أحيانًا يضحك، يقذف هاتفه بعيدًا، ثم لا يلبث أن

يعاود الاتصال ثانية، يستيقظ بمزاج ملتهب، يهتاج دون سبب، ثم لا ينسى أن يعتذر بعدها، كان يركض في أركان المنزل دون هدف، ومُسببًا لأورسولا الكثير من الإزعاج.

قبل أسبوع سمعت أورسولا صوت ارتطامه بأرضية الحمام، فتحت الباب سريعًا لتجده فاقداً تمامًا للوعي، استدعت الطبيب، قال: إنه يعاني إجهادًا ذهنيًا شديدًا، كتب له الطبيب بعض المهدئات، فضلت أورسولا أن تبات معه هذه الليلة ليكون تحت ملاحظتها، جلست على مقعد بجوار سريرهِ، العرق كان يتفصد من جبينه، لم ترَ أورسولا أبعد من حبات هذا العرق الذي يتصبب والذي تجففه بمنديل من وقت لآخر.

في غفوته تلك كان شادي يرى فراشة ملونة، فراشة برقة سلمى، بجسد سلمى، تغازلها هالة من الضوء، تنبعث من مصباح يتدلى من سقف صالة مولان روج بباريس.

- تُذكره سلمى بفيلم يحمل نفس الاسم دارت أحداثه داخل هذا الملهى.

- الفراشة تدور في القاعة، تتعد عن بقعة الضوء الحمراء التي تنبعث من المصباح.

- أنا أعشق نيكول كيدمان يا شادي، نيكول هي بطلة هذا الفيلم.
- في الخارج يطوح الهواء الطاحونة الحمراء التي تعلو سقف الملهى، يرى شادي من خلال الواجهه الزجاجية انعكاس ظلها على الأرض.
- الفراشة تُداعب جسد الراقصات العاري على المسرح، ترقص حول الضوء.
- شادي بمعطفه الأبيض في طرقات كلية العلوم جامعة القاهرة بعد أن رفض العميد مقابلته.
- الفراشة تعود وتحوم حول المصباح.
- قصة الفيلم يا شادي تدور حول شاعر جاء إلى فرنسا سعيًا وراء الثورة الفنية البوهيمية التي راجت في فرنسا في هذا الوقت.
- من بعيد يأتيه وجه عميد كلية العلوم بتفاصيله الغبية، يا دكتور شادي انزل إلى الأرض اعمل معروف، أبحاث حضرتك دي ممكن تقلب الدنيا علينا، البلد فيها قيادة سياسية يجب الرجوع إليها.
- يزداد دوران الطاحونة أعلى المولان روج، الضوء يلسع الفراشة، تطنُ وتبتعد، تدور في حلقات حول المصباح.

- أورشولا تمسح بمنديلها العرق الذي لا يتوقف.

- الشاعر وقع في حُبِّ راقصة المولان روج، الدوق الإنجليزي الذي كان يدير الملهى وقتها وقف لهذا الحب بالمرصاد، كان يظنُّ أن جسد الراقصة من أملاكه الخاصة، حتى أنه هدّد بإغلاق الملهى.

- الراقصات في أزياء من الريش على خشبة المسرح يستعرضن أجسادهن الفاتنة.

- أيوه يا دكتور القيادة السياسية بتدس مناخيرها في كل حاجة خاصة أبحاث من هذا النوع.

- على السادة المسافرين إلى برلين عبر خطوط مصر للطيران سرعة التوجه إلى الطائرة.

- الطاحونة في الخارج تدور بسرعة رهيبة.

- تحلّق الفراشة حول جسد الراقصات الذي تنعكس عليه أضواء مصابيح قوية من كل الاتجاهات.

- لم يستطع أحد أن يفرق بين الشاعر والراقصة، الجميع كان مندهشاً لصمود الحب أمام قوة الدوق ونفوذه.

- أورشولا تغفو فوق مقعدها ومنديلها بيدها.

- يا سيدي أنا خايف على الكرسي، أنا لا أريد أن أدخل التاريخ أو الجغرافيا، أريد البقاء في وظيفتي.

- طائرة مصر للطيران تخرق سحب القاهرة مُخلفة وراءها أجواء القاهرة التسعينيات.

- أعمدة الطاحونة في دورانها السريع تكاد أن تنخلع من فوق سطح المولان روج.

- الراقصة ماتت يا شادي فوق خشبة المسرح وهي تؤدي استعراضها الأخير الذي كتبه الشاعر.

- الفراشة تتجه صوب المصباح، تندفع، لا تتوقف، لا تدور في حلقاتها الراقصة، تندفع دون توقف، تصطدم بجسد المصباح، تتساقط، تتجه ثانية صوبه، يلسع الضوء أجنتها.

- كأن الشاعر يا شادي جاء من بريطانيا خصيصاً إلى باريس لتدور ملحمة الحب الكبيرة هنا.

- تمثال نصفي لماكس بلانك يقف أمامه شادي لأول مرة.

- في عناد ثور أعمى يصارع قوة مجهولة تعاود الفراشة اندفاعها الغشيم
نحو المصباح.

- الراقصة ماتت بين يد الشاعر، الجميع في مولان روج كان يصفق لقصة
الحب هذه.

- تطنُّ الفراشة كأنها تصرخ، يصطدم جسدها بجسد المصباح، تلتصق به،
تضطرب أجنتها، ترفرف في عصبية.

- قد تكون محنة الفراش هي نفس مأزقنا يا شادي.

بل ربما مأزق البشرية كلها يكمن هنا.

- may be يا سلمى، may be.

- يكلبش الضوء جسد الفراشة، تجس أشعته الملتهبة أجنتها الرقيقة،
تصرخ في لذة بينما أجنتها تنسل وتتطاير، يمالأ زغبتها صالة المولان روج،
يهوي جسدها المحترق ما بين الكأسين بعد أن امتصها الضوء تمامًا.

- تهبُّ أورسولا من على مقعدها فزعة، شادي ينتفض، تسمح أورسولا
عرقه، تناوله كوبًا من الماء، تسأله إن كان عليها أن تتصل بالطبيب، يرفض
شادي، يتلع مزيدًا من الحبوب المهدئة. في الصباح يطلب من أورسولا

أن تحجز له طائرة إلى القاهرة الأسبوع المقبل، سألته إن كان عليها أن تحجز له تذكرة عودة بتاريخ معين، نظر إليها شاردًا، دار في أنحاء الغرفة، استدار ناحيتها، شكرها على مجهودها الكبير الذي بذلته من أجله طوال السنوات الماضية، ذكر أنه لا يعرف متى تنتهي مهمته في القاهرة وأنه ربما لن يعود ثانية إلى برلين، وقفت أورسولا مندهشة، تتطلع إليه في حيرة؛ تعرف أنه منذ عشرين عامًا لم يسافر إلى بلاده، حتى حين مات أبوه لم يعرف سوى بعدها بعدة أيام.

قال لها:

- أورسولا لست مطالبًا بتوضيح كل شيء، لكن هل تستطيعين أن تقاومي من يخطف روحك بخفة ملائكة؟
هزت أورسولا رأسها مُستفسرة.

- الحب يا أورسولا لصٌّ ماهر يتسحب خفية يسرق أرواحنا أمام أعيننا دون أن نقاومه؛ لأنه يساومنا في المقابل ببهجة مُحتملة.

جملة شادي الأخيرة أقنعت أورسولا تمامًا؛ لأنه أحسَّها بنبض شاعر، وصاغها بدقة النظريات العلمية، وأداها كما ينبغي لمطربٍ عاطفي.



القسم الثاني

التحوّلات والنهائيات

"ذلك الظلام الدامس الذي تصبح بعده كل الأشياء جلية".



- ٢٩ -

لماذا ينتحر المهرج؟ أو هل يليق للمهرج أن يختار هذا النهاية المأساوية لحياته بعد أن ظل يخدعنا طيلة عمره بابتساماته البلهاء وضحكاته الصاخبة.

هل الانتحار هو النهاية المنطقية الوحيدة التي لا بد أن تنتهي بها حياة المهرج والتي تكون أسباب الموت الأخرى بجانبها مجرد عبث لا يليق بنهاية تصلح لمهرج؟

النهايات دائماً تتخفى في رحم الحكاية، في قرارها المكين، رغم ذلك تدهشنا حين تطل برأسها، كأننا لم نكن نعرف أنها كامنة هنا منذ البداية.

يبدو أن الكيميائي يعيش حالة من التوتر والقلق، ربما حالة من التحول في حكايته حدّ أنه توقّف تماماً عن ممارسة تجاربه الغامضة لابتكار مادته العجيبة

التي ستمنح البشرية الخلود، ليس سبب ذلك أنه فشل أو أصابه اليأس من نجاح تجاربه، كما أن ذلك لا يعود إلى إدراك أو إيمان ما قد وصل إليه الكيميائي أخيراً بدور وحتمية الموت في التطور الطبيعي للحياة ولل البشرية.

الكيميائي يكرس كل تجاربه الآن من أجل ما هو أهم في نظره من خلود البشرية وهزيمة الموت.

ماذا لو طرح صدر الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة حبيتي رمان؟
الكيميائي كل صباح أضبطه عند النهر يراقب الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة وهي تمارس طقوسها الصباحية المعتادة، يروعه ما يرى من بؤس صدرها، في البداية كنت أظن أن الكيميائي قد وقع في حب الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة، لكنني استبعدت ذلك سريعاً، حين وجدته يطوف بحدائق الرمان المختلفة، يقتلع بذورها، يأخذ من حشائشها، يعود إلى معمله يحلل ويعصر حبات الرمان، يضيف إليها سوائل ومواد لا أعرفها، كأنه سيصل إلى تركيبة عجيبة، مسحوق لو دهنت منه الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة، سينتفخ صدرها، تتحور ليمونتها إلى رمانتين متورمتين بلون قانٍ ومذاق سكري لا يخلو من مذاقة مُحببة.

يبدو أن هناك ما سيحدث قريباً بين العجوز ممسوح الذاكرة والصبي المراهق، ربما صدام أو عراك حاد، هناك صراع حذر حتى الآن بينهما حول سيدة الغسيل.

كلاهما يأتي أسفل شرفتها كل ليلة، العجوز ممسوح الذي لا يتذكر من ماضيه سوى ما حدث له منذ عدة أيام حين أسقطت عليه سيدة الغسيل منحتها المبهجة، وكأنه قد بدأ التدوين لتاريخه الشخصي منذ تلك الحادثة الفريدة. ما قبل ذلك مجرد حشو لا لزوم له.

والصبي المراهق الذي يتخفي وراء الجدار في انتظار أن يمارس عادته السرية حين تسكب سيدة الغسيل فتنتها من أعلى.

نظرات غيظ وغيرة تطلُّ من عين الصبي المراهق تكاد تفلق جسد العجوز ممسوح الذاكرة والذي يواجه ذلك بمزيد من الحذر والتوجُّس.



- ٣٠ -

ماذا ينبغي عليك أن تفعل حين تريد أن تروض أسدًا؟

ربما ستضع له مزيدًا من لحوم الحمير المذبوحة؛ ليتعود تناول طعامه بطريقة آمنة ودون عناء، أو ستوضح له مزايا أن يبعد لبعض الوقت عن أجواء التوتر والقلق في الغابة. قد تحاول أن تقنعه بأهمية أن يتخلى عن وضعه الاجتماعي كونه ملكًا للغابة مقابل تلك المزايا التي سيحصل عليها كونه موظفًا مرموق نظير عمله الجديد في حديقة الحيوان أو في السيرك.

لكن ربما الأفضل من كل ذلك أن تضع في طريقه صباح كل يوم لبؤة لعبًا تناوره وتشاغله دون أن ينالها، يطاردها كل يوم، يشعر أنه قريب وأنها بين يديه، لكنها تتملص وتذوب؛ فيعود في المساء مرهقًا ومتسخًا وخائبًا.

بمرور الوقت ستتحلل أسطوره تدريجيًا في أعين سكان الغابة لدرجة أنه قد يفكر في التقاعد أو الهجرة.

كنتُ مضطراً إلى مناقشة تلك الفرضيات حين جلستُ للتفكير في نفوذ سلطان المتغلغل بين شخوصي. من هنا جاءت شخصية "فاتن".

بتروُ رحْتُ أصنع شخصيتها وأمنحها ملامحها وهيئتها، سأهبها كل مقومات الأنثى الفاتنة، جسدُ مفضوح ييوح بمشاكسته وأسراره، جسد مُناوش، متسلط، مستحود، يدك ويقلع ويستفز، جمالها آخاذ، كل تفصيلة من تفاصيلها ملفوفة بعناية ومعجونة على مهل.

جعلتها في العشرين من عمرها. واثقة شاحخة على كبرياء ككبرياء وشموخ جسدتها.

حين انتهيتُ عزمْتُ على أن أضعها في طريق سلطان كغزالة رشيقة تتحدَّى جبروته، صيدٌ عنيد يتحدَّى ويناور، غزالة لا تلين، تروغ ولا تخضع، ولا تنبغي لأحد.



كل شيء الآن على وشك أن ينتهي، سيغادر شادي عند الثالثة مساءً وسأضع نهاية لمعاناتي طوال العامين الماضيين، الحادية عشر مساءً بتوقيت القاهرة، أربع ساعات باقية على طائرة برلين، أربع ساعات تفصلني عن تلك الراحة التي أنشدها حين ينتهي كل ذلك، أخطط أن أريح أعصابي قليلاً، بعد أن أرهقتني حكايات شخوصي وجعلتني طيلة الوقت أعيش تحت ضغوط نفسية وعصبية هائلة، أريد أن أغمض عيني عنهم قليلاً، ألتقط أنفاسي وأستعيد صفاء روحي، فقط تمر هذه الساعات كما هو مخطط لها.

كل عليّ أن أطمئن تماماً أن الأمور تسير في اتجاهها الصحيح، لذا تعقبت شادي إلى البار، جلس على طاولتهم المفضلة، لم يأت أحد من أصحابه إلى البار في هذه الليلة من أجل وداعه، اكتفوا بمكالمات هاتفية مُتَعَجِّلَة.

بالآية ينظر شادي إلى ساعة يده كل بضع دقائق، يترقب هو الآخر ساعة خلاصه، يريد أن يتخفف من معاناته التي عاشها خلال السنوات الأربع الماضية التي قضاها في القاهرة، عودته مرة أخرى إلى برلين ستعيد إليه كبرياه الذي نزفه هنا، سيحدث ذلك قريباً يا صديقي، حين تتوجه من البار إلى المطار مباشرة، زجاجة الفودكا أمامه توشك على الانتهاء، يحجل إليه نجيب أذى بزجاجة ثانية، يسأله البارمان العجوز عن أصدقائه، يهز شادي رأسه صامتاً، هاتف حازم مغلق طوال الليل منذ أن تلفن له في السادسة ليودعه، نزار اختفى منذ عدة ليالٍ كعادته في الاختفاء والظهور.

هاتفه يوسف قبل أن يدخل إلى الهواء واعتذر عن عدم حضوره؛ لأن برنامج التوك شو الذي يقدمه لا ينتهي قبل الثانية عشرة.

سلمى بالتأكيد لم تهاتفه، ولن يستطيع هو أن يفعل، رغم أنه يتمنى، يتتابه الحنين إليها رغم كل ما حدث بينهما، وما حدث لم يكن سهلاً، هي امرأة عمره، لن يتجاوز ذلك بسهولة، الآن فات أوان كل ذلك، سيعود إلى برلين ثانية، وسيواصل إنجازاته العلمية الكبيرة في معهد ماكس بلانك للفيزياء كما كان قبل أن تجرفه سلمى إلى تلك المتاهة العميقة التي أوشك أن يفلت من دروبها وفخاخها الملتوية.

ينظر ثانية إلى ساعته، الحادية عشرة والنصف، كما أعلم أهدته سلمى هذه الساعة السويسرية الفخيمة في عيده ميلاده الأخير، وقبل أن يحدث بينهما ما حدث. يرتشف من زجachtته بهدوء، كأنه يفكر بعمق، تبدو على وجهه الحيرة، لا وقت للحيرة الآن يا شادي، قُضي الأمر، أو كاد.

ربما يدور في ذهنك الآن كل تلك الأحداث الرهيبة التي زلزلتنا جميعًا خلال الأعوام السابقة، عادة يحدث ذلك قبل النهاية، سيشتعل ذلك بذاكرتك كومضة تنطفئ سريعًا، وسيعاودك الصفاء بعدها، لا تنسَ أنني كنتُ أعاني أنا الآخر، وما زلتُ أبحث عن هذا الصفاء، لم تكن وحدك يا صديقي في المتاهة، كنا جميعًا.

منذ جئتُ إلى مصر وأنت لا تدرك الكثير من المعادلات المرتبكة والتفاعلات الشاذة التي تدور من حولك، القاهرة مُثقلة بضباب كثيف لا يستطيع أحد أن يشق ستائره ليستشرف ما قد يلوح من بعيد.

عقول الناس تائهة أو مُتوهته حلتُ في السنوات القليلة الفائتة ما يفوق قدرة العقل البشري على الاستيعاب، آلهة وأصنام كثيرة صنعها الناس وحطموها دون أن يعرفوا لماذا رفعوها إلى مصاف الآلهة ولا لماذا هوت معاوهم عليها هدمًا وتدميرًا بعد ذلك.

كأن الثورة كانت مجرد فُحٍّ نُصب من أجل السقوط الكبير.

كأن الزلزال الذي انتفض فجأة بعد طول ثبات وجود قد اكتفى بمراقبة الأرض ثم مضى دون أن يُعدل من أوضاعها المائلة. اكتفى فقط بأن يُسقط ما كنا نظنه ثميناً أو ما كنا نظنه صليداً غير قابل للسقوط.

الجميع كان يساقط حولنا. قامة وراء قامة.

كأن قمرًا منحوسًا قد سُلط على سماء هذا البلد، ينير فجأة ويعتم فجأة، قمر تتلاعب بأضوائه يدٌ متسلطة، تحبس النور والأمل خلفها فتسود العتمة ويحل اليأس، ثم في وسط الظلمة الضاربة بسوادها في القلوب والنفوس تُقْلِتُ اليدُ المتسلطة النورَ، فيضرب بسهام أشعته في قلب الظلمة الحالكة، فيُصرع اليأس ويُولد أملٌ يسرح في الأرواح المتعطشة، يعدها بالارتواء، لكن اليد المتسلطة غير المحايدة تُعيد الكَرَّةَ.

ليظلَّ دائماً بلد الـ بين بين، والحبة فوق، والحبة تحت، والرقص على السلم، والجمود على العتبات، وفرص السنوات الضائعة، وسنوات الفرص الضائعة.

بلدٌ في انتظار جودو دائماً، وجودو لا يأتيه حتى يفوز بالخلاص، فيقرر أن ينتظر في عبث لا ينتهي.

في متاهته كان البقر يتشابه على شادي، فيقول هي سلمى، مُسَلِّمَةٌ لا شِيةَ فيها، لون واحد جميل، فاقع لونها، بلون لا تحيدُ عنه ولا يتغير.

سلمى لشادي كانت ثابتة الوحيد في بحر يموج بالتغيرات المفزعة، وحقيقته المطلقة وسط سحائب الشك التي تعلو الرءوس، المقدار النشط الذي يُعيد إليه اتزانهُ كلما اختلَّت معادلته. لكن سلمى لم تتحمل، احترقت في غمار تلك اللعبة المثيرة بين الفراشة والضوء، لعبة قديمة تعرف الفراشة مُسبقاً نتيجتها، لكنها تمارسها بعناد، لم يفهم شادي قط تلك اللعبة بين الضوء والفراش، منذ أن سقطت فراشة كازينو المولان روج بباريس على طاولتها بعد أن مسكت النار بتنورتها، وقتها وفي هذا الوقت المبكر من علاقتها اختلفت سلمى مع شادي في تفسير قانون اللعبة بين الضوء والفراش، أنا أذكر أن سلمى ذكرت لك ذلك في رسالتها التي تركتها لك تحت الوسادة بغرفتكما بفندق الكونكورد لافاييت بباريس حينما قررت أن تعود إلى القاهرة وحيدة لتشارك في فاعليات ثورة يناير، ما زلتُ أحتفظُ أنا بهذه الرسالة كقطعة بلاغية صادقة.

على قدر ما يبدو هذا الاختلاف بينكما في تفسيركما لتلك اللعبة بين الفراش والضوء سطحياً أو غير مؤثر، إلا أنه ظل طول الوقت حاضرا

وفاعلا، إذ يبرهن على الفرق الحاد بين رؤية عالم الفيزياء ومنظور الفنانة التشكيلية للعالم.

اللعبة بين الفراشة والضوء هي نفس لعبة الثورة، هكذا كانت دائماً سلمى ترى، هناك حلم قديم لدى الفراشات، أن ينال من الضوء، أن ينعم بأشعته وهي تسرح برفق بين أجنحته دون أن تلمسه، أن تخضع سطوة الضوء للفراشات.

سيحدث ذلك ذات يوم، الضوء لن ينعدم، والفراشات الحاملة لن يخبو وهج حلمها نحو ترويض النور في رقصة الحرية التي لا يناله فيها الاحتراق.

سلمى احترقت في لعبة الثورة، طالت النار تنورتها وملابسها الداخلية وتعمقت فأكلت روحها، ربما لأنها صدقت أن البلاد المسكونة بروائح العطن يمكنها أن تفتح نوافذها الموصدة منذ سنين ليداعب النسيم الطازج ستائرهما ويطرد عنها وخم الأيام.

ما خطيئة سلمى الكبرى يا شادي؟

أنها قد سهت عن حبوب منع الحمل؟

أنها قد أجهضت جنينها؟

يبدو يا شادي أن جريرتها العظمى أنها هي التي قد زينت لك الخطيئة،
فغوتك بأن تترك برلين لتهبط إلى مصر.

ربما يا شادي وبعد أن كنتُ شاهداً وحاضراً بنفسي لكل تفاصيل الحكاية
منذ أن بدأتُ قبل أربع سنوات هناك في برلين أستطيع أن أجزم أن خطيئة
سلمى الكبرى أنها قد آمنت للضوء.



لولا شخوصي لأكلتني الوحدة في هذا العالم الذي صنعه حولي. من
وجودهم أستمّد وجودي، كأن حكاياتهم حكايتي المزعومة التي لا أجدها.
أشعر بمسؤوليتي تجاههم. ربما لأنهم يشبهونني. كأني أودعتُ في كُلِّ
منهم بعضاً مني، أو كأن كلهم هو أنا كما تمنيتُ أن أكون.
هأنا الآن أتجلى في الدرويش وعباراته الغامضة الكاشفة.
في حزن المهرج الدفين الذي سكنه آخر أيامه.
في قوة سلطان الغاشمة.
أراني في القلق الذي يسكن الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة.
في الجنوح الذي يقف وراء تجارب الكميائي الغامضة.

في خيبة عامل المصنع وقهر زوجته سيدة الحمام.

في تناقض سائق عربة الإسعاف حين يحمل الموت بين يديه كل ساعة
لكنه يخشاه ويخافه كمجهول لم يقابله من قبل، ثم بعد ذلك يتظاهر بالقوة
حين يرى الناس تخافه وتنفر منه.

يراودني ذات الملل الذي يستشعره العجوز ممسوح الذاكرة.

وتنتابني تلك الرغبة الجارحة التي تنتاب الصبي المراهق حين يمارس
انفعالاته الفطرية خلف الجدار وهو يتخيل أنه يضاجع سيدة الغسيل.
أنا تلك النرجسية التي تستشعرها سيدة الغسيل حين تجلد مفاتن جسدها
دون رحمة غرائز جمهورها الغفير.

أنا قلق سلمى وثوريتها الجارحة وإيمانها بروح الفن.

أنا شادي المتردد الخجول الذي يقدر العلم.

ثم أنا ذلك الصدق الذي يتجلى واضحا في عيني الراقصة ذات البهجة
حين تتمايل دون حياء.

من غرفتي أعلى الربوة أوصل معاشيتهم، يفاجئونني دوماً بما هو
مدهش، وبما يثير خيالي.

ذلك الخيال الذي صنعت به كل هذه العوالم.

رتبتُ جيداً لكي أزرع فاتن بعد أن سويتُ لها حكايتها في سياق سلطان من أجل تقليل مخالبه الحادة. جعلتها تعمل ممرضةً في أحد مستشفيات المدينة. ذهب سلطان إلى هناك برفقة أحد رجاله المصابين في إحدى معاركه الأخيرة لتلقي الإسعافات اللازمة.

سلطان بدا في قمة الغضب لتأخر طاقم التمريض في التعامل مع حالة رجله. ظلَّ يصرخ ويهدد. من بعيد أراقب أنا ما يحدث دون أي محاولة أو نية للتدخل في الأحداث من قريب أو من بعيد.

تبدو فاتن قادمة من بعيد من بداية ممر طويل يقود في نهايته إلى تلك الحجرة الضيقة التي يقف سلطان على بابها ثائراً حانقاً، بينما رجله مُستلقٍ على أحد الأسرّة ينزف من جبهته المنفلقة.

مشية فاتن تنبض بالحوية، وقع قدميها على الأرض مزلز ومحرك
للسواكن، مجرد مرورها في أحد الأماكن يثير ضجيجاً داخل النفوس الهادئة
الصامته.

تقترب الآن، يشعل سلطان سيجارة لينفث فيها بعض غضبه، تقترب
فاتن أكثر وهو ينادي بأعلى صوته على الأطباء أو العاملين بالمستشفى.
تتأفف فاتن من صوته الغليظ، في اللحظة التي يضرب فيها سلطان الباب
بقبضته، تظهر فاتن قبالتها، يستدير سلطان برقبته وهو يستعد لانفجاره
المرتقب الوشيك في وجه ذلك القادم.

الانفجار يحدث من الجهة الأخرى التي لم يتوقعها الحاضرون وهم بعض
رجال سلطان. تزار فاتن في وجهه، تُعنّفه على ضجته، يرفع سلطان حاجبه
لأعلى محققاً مندهشاً. أصبح تماماً في بؤرة سطوتها، تجمّد في مكانه وهو
يطالع جمال وجهها المستدير، يراقب شفّتيها المُكتنزتين المليحتين وهي تزوم
في غضب، تلامسه فاتن بعفوية وهي تعبر إلى الغرفة، فيشتعل، تأمر الجميع
بأن يغادروا الغرفة فوراً، ينظر إليه رجاله منتظرين أوامره، أو ثورته، ظلّ
سلطان صامتاً؛ لأن كل حواسه في هذه اللحظة كانت مُعطلة أو مُنشغلة بما
هو فوق طاقته أو قدرته على الإدراك؛ لذا كررت فاتن ثانية طلبها بحدة أكثر.

استجاب لها رجال سلطان أولاً، أخذوا طريقهم إلى الخارج وهم ينظرون
بدهشة إلى ذلك المغيّب الذي يستند إلى باب الغرفة، اقتربت فاتن ورفعت
سبابتها في وجهه، وهي تشير إلى الخارج وتمسك مقبض الباب وسط ذهول
رجال سلطان الذي أشفق عليه أحدهم فسحبه إلى الخارج وأغلق الباب.

سلطان بطل مُلهم ما أخرجني إليه الآن، قد يصلح بطلاً لحكايتي
القادمة؛ كل مواصفات البطولة الناجحة تتوافر في سلطان، القوة والسيطرة
وربما المصير الغامض.

سَأَتَقَوّت على سلطان إذاً.



الصراع بين العجوز ممسوح الذاكرة الذي استعاد ذاكرته مؤخراً وبين الصبي المراهق حول سيدة الغسيل ظل صراعاً صامتاً لم يتعدَّ حدود الغيرة والاحتقان المكتوم، طوال الليل يحومان حول الشرفة، ينتظران طلة سيدة الغسيل كما ينتظرها جمهورها الغفير، ثم حدث أن سيدة الغسيل انقطعت عن الظهور في شرفتها، غابت عن التجلي والحضور لشعبها الذي يحجُّ كل ليلة أسفل محرابها.

بدأ القلق يأكل أعصاب الجميع، الجمهور الغفير يقف على أصابعه، يجلس ساعات طويلة على الأرصفة مشدوداً إلى الشرفة علّها تهلُّ وتتجلَّى عليهم، ولكن غيابها طال لعدة ليالٍ متتالية.

تفسيرات عديدة خرجت لتعلل حالة الغياب الطويل، البعض يقول إن سيدة الغسيل انقطعت عن التجلي كنوع من العقاب القاسي لهؤلاء المنغمسين في الخطيئة، وأنها لن تعاود الظهور ثانية، آخرون يؤكدون أن سيدة الغسيل كانت جنية مارقة سُلطت على البشر لفتنتهم، ثم عادت إلى قومها بعد أن أدت رسالتها بنجاح.

بمرور الوقت واستمرار حالة الغياب بدأ الجمهور الغفير ينفض ويقلُّ عدده ليلة بعد ليلة، حد أن الباعة الجائلين للموا بضائعهم وغادروا المكان.

اثنان لم يفقدا إيمانها بسيدة الغسيل، لم يُصِبهما الملل الذي أصاب الجميع من طول الوقوف والانتظار، يؤمنان بضرورة ظهورها وتجليها على الكون ثانية، العجوز ممسوح الذاكرة الذي بدأ يؤسس لذاكرة جديدة، يبدأ تقويمها منذ تلك الليلة التي سقط فوق رأسه قطعة الغسيل قليلة الحياء حتى ليلته تلك حيث يظل جالسًا على الرصيف المقابل لشرفتها لأن قدميه لا يتحملان الوقوف.

هناك أيضًا الصبي المراهق الذي يظلُّ قابعًا خلف الجدار صامتًا بائسًا يضع يده على خده دون أن يمارس عادته.

عند الفجر ينصرفان بائسين، يعودان في الليلة التالية، نشأت صداقة صامتة بينهما بمرور الوقت، الصبي المراهق بدأ يجلس على الرصيف بجوار

العجوز ممسوح الذاكرة، ثم بدأ الكلام والحديث بينهما يتوالد حول سيدة الغسيل وأثرها العميق فيهما.

الصبي المراهق يظلُّ يصف للعجوز ممسوح الذاكرة جمال سيدة الغسيل وحضورها الطاعني، ذلك أن العجوز ممسوح الذاكرة لا يسمح له بصره الكليل أن يرى أبعد من موضع قدميه.

بعد ذلك تعمقت صداقتها أسفل الشرفة، يشتريان بعض الأطعمة واللب والسوداني لزوم جلستهما الطويلة، يتخيلان هيئة النصف الخفي لجسد سيدة الغسيل، الشرفة لا تكشف الكثير، ما خفي كان أعظم، ما بين فوق إلى تحت نهر عظيم من اللذة الخفية، يتحدثان عن كل تفصيلة من هذه التفصيلات الخفية، تنتج مخيلتهما هيئة بهية لا مثيل لها.

عند الفجر يسحب الصبي المراهق العجوز ممسوح الذاكرة من يديه، وفي الليلة التالية يمرُّ الصبي المراهق على العجوز ممسوح الذاكرة ويصطحبه إلى شرفة سيدة الغسيل.

هذه الليلة قررا الصعود إلى بيتها والطَّرق على بابها؛ علَّها تفتح، وربما يفلحان في إقناعها بمعاودة التجلي ثانية.

الكيميائي لم يحب الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة؛ لو أحبها لأحب ليمونتيها.

فكرتُ طويلاً في ذلك، استغرقني تفكيري العميق في المسألة التي تشغل الكيميائي حالياً وتصرفه عن تجاربه المهمة التي نذر لها حياته ثم قرر أن ينذر ما تبقى منها لحل مأساة الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة.

الكيميائي حالياً لم يعد مشغولاً بفكرته التي نذر لها حياته وجهده، لم يعد مهتماً بتجاربه التي تبحث عما يهب الإنسان البقاء والخلود وتقضي على شبح الموت والفناء.

ماذا سيفيد الإنسان إن منحناه خلوداً بائساً؟

- سؤال مثل سن الدبوس غمزته ذات ليلة قريية، فقرر أن يُنذر حياته لما هو أهم.

تخيّل قطعة قماش جميلة ذات نسيج قوي متماسك ثم تمر عليها السنون الطويلة فتبهت ألوانها شيئاً فشيئاً وتتسل ويهترئ نسيجها ولا يتبقى من سيرتها سوى اسمها فقط.

قطعة قماش من نوع كذا، ومن دون أن تفنى أو تتحلل.

لكنها في النهاية ستبقى قطعة قماش بائسة تأكل الغيرة قلبها كلما رأت
قطعة قماش أخرى جديدة جميلة ذات نسيج قوي متماسك.

الكيميائي في نظري عاد إلى صوابه، ماذا سيفيد الفتاة ذات الصدر بحجم
الليمونة إن عاشت ألف عام بنتوءيها الخجلين؟

ستتعمق مأساتها، ستحاول الانتحار دون جدوى؛ لأنها مُنحت حياة
طويلة بائسة لا تنتهي. لو طرحت حديقة صدرها رمانتين بدلاً من ليمونتها
المالحتين الجافتين، ربما ستشعر بسعادة قصيرة بحكم الزمن لكنها عريضة
بحكم مقاييس المشاعر الإنسانية. سعادة قد تنقسم على اثنين الفتاة ذات
الصدر بحجم الليمونة، والموعودة برمانتين محتملتين، وسعادة آخر يُداعبها
ويرتشف رحيقها.

الآن يمشى سلطان على مهل وسط رجاله، مشيته الناعمة تشي بالسلام،
تنفي إشاعات كاذبة ردّدها البعض عن معركة مرتقبة، عندما اقترب سلطتُ
منظاري على وجهه بحرص، ملامحه الآن هادئة تماماً، كأنه نزع طبقات كثيفة
من ركام على وجهه حتى وصل لهذه الدرجة من الصفاء، عيناه مُعلقتان بشيء
ما مجهول في الناحية الأخرى، ظل ينظر طويلاً لأعلى، جلس محبطاً على أحد

المقاهي، دخن بشراهرة، شرب عدة فناجين من القهوة، رغم الهدوء الظاهر
ظَلَّ مشدوداً متوترًا، في لحظة هبّ واقفاً، عيناه مشدودتان كعين طفل يرنو إلى
لعبة مستحيلة، في نفس تلك اللحظة تعلق عيني بضوء مصباح اشتعل فجأة
في شرفة بمبنى مقابل للمقهى، توهجت الغرفة بفاتن، جسد بضّ معجون
بمهارة أطل من ثيابها المفتوحة، أسندت يدها على سور الشرفة، الهواء بدأ
يلعب خصلات شعرها بمرح، سلطان بدا تائهاً، مخطوفاً، مكتوباً، لم يكن
صعباً أن أتأكد أن سلطان يلاحق الفتاة بنظراته، بالتأكيد جلوسه هنا ليس
من قبيل المصادفة، فاتن تتطلع بعيداً، سلطان يكاد يُجن، يتمنى أن يقبض
القمر بين يديه ليشد انتباهها.

تقدست أيها أيتها الخيال!

كم تعبْتُ بنا مفارقاتك!

حكاياتك العجيبة لا تنتهي، سبحانك، رب الحكايات أنت.

سلطان الآن أضعف من فرخ يمام، لو يشاهده خصومه التاريخيون،
لشخروا شجرة عظيمة وسخروا من جنبهم وخضوعهم لهذا السلطان
العاشق، يروح ويحيى، العيون تراقبه بذهول، رجاله يشعرون بالخلج من
القائد الذي يترنح تحت وابل لا يرحم من سهام كيوبيد.

"فاتن" و"سلطان"

يا لهما من اسمين دالين كاشفين!

دخلتُ فاتن، أغلقت خلفها باب شرفتها، طاقة النور الوحيدة التي
يمكن أن تضيء قلبًا كقلبه، ترنَّح سلطان، وهوى على مقعده.



زجاجة ثالثة، في صحتك يا صديقي، أنظرُ إلى ساعتِي، الثانية عشرة، ينقر شادي بأطراف أصابعه على فمه، لم يعد في الأمر ما يحير أو ما يدعو للتفكير يا شادي، بعد ساعة من الآن عليك أن تتحرك إلى المطار، بعدها لن يتبقى سوى ساعتين على موعد الطائرة، سأكون هناك، أودّعك من بعيد، لن يعاودني هدوئي سوى بعد أن ينتهي كل ذلك، ولن ينتهي كل ذلك إلا حينما أرى طائرتك تمخر سحاب القاهرة.

لا داعي لهذا القلق الذي يقفز من عينيك، تم ترتيب كل شيء بعناية، سيمر عليك السائق بعد قليل ومعه حقائبك ليصحبك إلى المطار، ستحلق الطائرة في سماء القاهرة عند الثالثة وخمس دقائق، ستصل برلين عند الثامنة تقريباً، وبرلين ترحب بعودتك، سيكون في انتظارك وفد من معهد ماكس بلانك الذي كنت رئيسه وأنت في الأربعين من عمرك.

مدام أورشولا مديرة منزلك القديم هناك دبرت أموراً جيداً، فليس من داعٍ للقلق، يكفيك ما عشته هنا من قلق وفشل، أربع سنوات هنا وأنت تجلس على مقعد خائب بمركز البحوث دون أن تصنع شيئاً سوى أن تمضي على أوراق بمذاق التفاهة، أربع سنوات قابلت خلالها كل رؤساء الوزارة الذين تعاقبوا على هذا البلد منذ الثورة، عرضت عليهم خططك ومشروعاتك العلمية الطموحة، وجميعهم اكتفوا بهز الرأس وتشكيل اللجان، أنت لا تعرف يا شادي أن جميعهم حرص على اللقاء بك فقط من أجل (الشو) الإعلامي، من أجل تصدير انطباع كاذب بأن هذا البلد الذي قامت به ثورة يتغير ويحتضن أبناءه النابهين.

برلين الآن تنتظرك لتستكمل نجاحاتك. أنت هنا لم تحقق سوى الخيبة وجنينٌ مُجهض شاركت أنت في قتله.

- أنا أجهضتُ جنيني.

هل تتذكر هذه الجملة يا شادي؟

قالتها سلمى هنا ببار الديك الذهبي منذ شهرين تقريباً، وعلى ذات تلك الطاولة التي تجلس الآن عليها، الجميع كان حاضراً، أنت ويوسف، نزار والدكتور شاكر عودة، وبالتأكيد العقيد حازم الشناوي لا بد أن يكون

حاضرًا في مناسبة كذلك، جملتها لم تكن موجهة في اتجاه أحد، حتى أنت لم تكن مقصودًا بها، رغم أنك طالما سعت من أجل أن تفعل سلمى ذلك، كأنها كانت تطلق جملتها التي تحمل مفاجأة مدوية في فضاء العالم لتظل عالقة في الأفق يتردد صداها في كل الآذان، لم تقلها كخبر أو معلومة تحمل حدثًا جلاً. قالتها كأنها تتلو نعيًا. ساد الصمت وحلّق الذهول فوق رؤوسكم جميعًا، الوحيد الذي كان على علم تامّ بما جرى وربما كان أحد مؤسسي الحدث، هو العقيد حازم الشناوي، بقدرته الكبيرة على المناورة كان يدرك أن هذا الوقت هو الوقت المناسب للصيد؛ لذا حرص على أن يكون على اتصال دائم بسلمى خلال خلافكما الحاد حول إجهاض الجنين، حين أفضت له سلمى برغبتها في إجهاض جنينها بارك ذلك على الفور، كان يدرك تمامًا أن هذا بداية الشرخ الكبير في علاقتهما، الشرخ الذي يمكنه أن ينفذ من خلاله إليها، سرعان ما فاجأها بأنه عرض الأمر على أحد الأطباء من أصدقائه القدامى، ودون أن يترك لها مساحة للتفكير، قال لها: إنه سيمر عليها في الغد ليصطحبها إلى عيادة ذلك الطبيب الذي سيتولى عملية الإجهاض، طلبت منه سلمى حينها أن يظل الأمر سرًّا، وهو ما كان.

لم تكن يا شادي فرحًا أو حزينًا لما حدث، الوضع المُعقد الذي سببته مفاجأة سلمى المدوية لا تناسبه مثل هذه الأوصاف الباردة. كنت مصدومًا

ومرتبكاً ولا تريد أن تصدق. تهتز الأرض تحت قدميك، لا تصدق أن سلمى قد فعلتها، أي قوة تلك التي نجحت في تحطيم عنادها؟ كيف تراجعت فجأة عن قرارها وإصرارها؟ هل نالها اليأس كما نالك سريعاً؟ هكذا كنت تفكر.

- العمى!

هكذا قطع نزار هذا الصمت الشائك حينها بتلك الكلمة التي كثيراً ما تتردد على ألسنة الممثلين الشوام في الأفلام العربية والتي هي تعبير عن الصدمة.

- والسبع تنعام شرفتي، شلونك سلمى؟ وينك كنت غاطة؟

اكتفت بنظرة عابرة إلى نزار وطمأنته بنصف ابتسامة وهزات متتالية من رأسها، شدت من سيجارتها بعمق، وراحت تحلق بنظراتها بعيداً. واصل نزار حديثه بعدها مُستلها تجربته المريعة التي ظنَّ البعض أنه قد برأ منها.

- بس والله هادا مليح، ليش تحبوا عيال؟

شنو ينفطر قلبكم عليهم، ولا شنو تلفوا وراهم بلاد الله.

الله كريم. شو تشربي يا سلمى؟ هات فودكا يا نجيب.

أرح بالنابها يا أصلع.

شربتم حينها يا شادي صامتين، شربتم كما لم تشربوا من قبل، كلما فرغت
كؤوسكم امتلأَتْ، زجاجات تلو زجاجات يحجل بها نجيب أذى ليضعها
بين أيديكم، تصبون منها وتتجرعون في سكينه، تبخلقون بعيداً، كلُّ يخلق
في ليلاه، عبر هذا الضياع الذي شملكم، وما الخمر إلا طائرٌ بجناحين يخلق
بك في الصفاء، لتر من علِّ قعركَ القبيح، كلما تشربُ لُتَغَيَّبَ هذه الحقيقة
التي تطاردك وتجعلها في سفح النسيان كلما جعلتها الخمر جليلة واضحة
أمام ناظريك، هكذا كان نزار يشرب لينسى عائلته المفقودة، فيرى زوجته
وطفلته الصغيرة في صفاء الكأس يبتسمان له ابتسامة صغيرة، مرة يبتسمان له
وهما يتناولان لفافة من المعونات الدولية بأحد خيمات اللاجئين، تارة تبدو
له ابتسامتهما قادمة من تحت قاع البحر، وتارة يراها وقد علاها غبار وركام
منزلهم في حلب. ابتسامة صغيرة مثل كرباج يجلد روحه.

وشرب حازم ساعتهُ ربما تشفيه الخمر من أحقادها القديمة عليك يا
شادي، قد تخفف عنه بعض الوقت هذه الحكمة في صدره التي يستشعرها
حين يتذكر أنه قد نصب شباكه كاملة في طريق بجعة صديقه، وربما يشرب؛
لتُعيد له الخمر على الأقل أمام نفسه هيئته القديمة التي فقدوها منذ هرب ليلاً

من مبنى أمن الدولة القديم حين اجتاحه الثوار مُتخفياً في جلباب نسائي
وجده بحوزة أحد العساكر. صحيح أنه قد عاد ثانية إلى الخدمة، لكن هناك
هذا الذي لا يزال ينقر كبرياه وهيبته.

يوسف كان يشرب لأن الخمر تجعله خفيفاً، يستطيع أن يرقص على كل
الجال دون أن يفقد توازنه، أو تزل به القدم، حين يشرب ينسى مطارحه
القديمة التي كال لها المديح والإطراء، فيبدو مستعداً ليقفز إلى أخرى جديدة
يُحتمل أن تكون رابحة لبعض الوقت، فيصوب نحوها نفس عبارات
المديح والإطراء حتى ترضى، ويهاجم تلك القديمة التي نسيها كأنه لم يكن
هناك منذ قليل يسبح بحمدها. يشرب يوسف لينسى وجوهه القديمة،
ليبدع مساحيق ومكياجاً جديداً من حقيبة الميك أب التي لا تفارقه كونه
صحفياً محترفاً.

دكتور شاكر عودة ظلّ يتجرع كأساً تلو الكأس، كان يتمنى أن تمنحه
الخمر ستاراً يداري به خجله، الخجل موجه جداً، أشد وجعاً من هبشة كلب
السجن في عهد ناصر، ومن وخز سن القضيب الحديد عند أول اختراقه
لفتحة الشرج أيام السادات، والخجل أكثر إهانة من أنظمة مبارك القمعية.
التاريخ النضالي للدكتور كان يتوارى فيما تعرف يا شادي حينما تم فضحه

بعدها تم استهلاكه من قبل الأجهزة الأمنية التي طالما عمل في خدمتها بعد
أن أُرهقت مؤخرته من عبث قضبان الحديد.

جيفارا مات.

جيفارا لم يتبقَّ منه سوى مخبر عتيد.

أمنجي مثقف يضرب مهاميز في أصحابه.



المشهد المصطنع الذي يديره سلطان ورجاله الآن له بُعد خفي بعيداً عن هذا البُعد الأخلاقي المُعلن. رجل عارٍ مُعلق على أحد أعمدة الإنارة يتهمه سلطان ورجاله بأنه يرسل رسائل غرامية للنساء يدعوهن فيها إلى الرذيلة على حد قول سلطان.

المشهد يحدث وسط متابعة كثيفة وتصفيق لا يتوقف من جموع تم حشدها خصيصاً من أجل ذلك. سلطان حتى هذه اللحظة كان يترك الأمر لرجاله ويكتفي بالمتابعة، لكنه وجد أن الوقت قد حان ليدخل كبطل تنتظره الجماهير، الدخلة حركة مسرحية مصنوعة بعناية، قذف لأعلى ما تبقى من سيجارته، شقَّ بدراجته البخارية الدائرة، أخذ يدور عدة مرات بدراجته حول عمود الإنارة المصلوب فوقه الرجل، في خفة قفز فجأة من

فوق الدراجة التي استكملت دورانها بمفردها حتى التقفها ثانية بين يديه وسلمها لأحد رجاله، من موقعي رصدتُ عين سلطان الحادة وهي تنظر للرجل العاري إلا من لباسه، دار حوله عدة مرات، وقف أمامه وهز رأسه، هوى بقبضته على خصيته، يعتصرها بين يديه بقوة، يتلوَّى الرجل المصلوب على عمود الإنارة ويصرخ صرخات تهز العالم كله، الجموع المحتشدة تصفق لهذا الدرس الأخلاقي العظيم الذي قدّمه سلطان ورجاله، يضغط الرجل بأسنانه على لسانه من كثرة الألم حتى يهرسه كما هُرسَتْ خصيته بين يدي سلطان.

أهداف هذا المشهد واضحة تمامًا لي، وهي أهداف لا علاقة لها بهذه المسرحية الأخلاقية المبتذلة، سلطان يعرف أن الناس يتغامزون، يسخرون من عشقه لفاتن المُذل.

كيف تحولت القوة الغاشمة إلى كل هذه الوداعة والسكينة في حضرتها؟ المعركة مجرد معركة وهمية لاستعادة هيبة قائد كبير في أعين جماهيره.

فاتن الآن قادمة، تقترب من المشهد الذي كُتب وصُنع لها أو بسببها، تحتضن بين صدرها الواسع المرصع بقبتين بارزتين حقبية جلدية صغيرة، تمشى على مهل كسحابة مارقة وحيدة، تثق تمامًا في إمكانات جسدها المدهش رغم ثيابها المتواضعة.

فاتن تقترب الآن، تلاحظ هذه الدائرة البشرية، يهدأ خطوها، عندما تصل تحاول أن تعرف ما الذي يدور هنا؟

ترفع رأسها وتشبُّ على أطراف أصابعها عليها تلتقط ما بالداخل، فتحتُ يديها ثقبًا بين تلك الأجساد المتراسة، سلطان انتهى لتوّه من وضع علامته المميزة على رأس ضحيته، التفت ناحية الجماهير ليرى نظرات الخوف في عيونهم، لينعم باستعادة هيئته مرة أخرى.

أطلت فاتن إلى الداخل وجدت الرجل المصلوب على عامود النور يئنُّ في انكسار، أغمضت عينها في تأثر للحظات، عندما أعادت فتحها مرة أخرى التقطتها عيننا سلطان بنظراته الحادة، لم يعد يرى سوى عينها من كل هذا المشهد المسرحي الذي حبكه وصاغه ونفّذه من أجل أهداف خاصة ضاعت كلها الآن.

أتوقّع أن المشهد سيتحول إلى ملهاة ساخرة، ظلت فاتن مُعلقة بعين سلطان، دائماً ما ترتجف من نظراته تلك التي تلاحقها، لكنها لا تخشاه ولا ترهبه، تلملم عينها، تنسحب على مهلٍ، يتتابها قلق، تمشي بثقة رغم ذلك، يقفز سلطان على ظهر دراجته البخارية، يترك مشهده المصطنع ودرسه الأخلاقي، ليمشي بدراجته على وَقْعِ خطوها، الحشود تتابع في دهشة وصمت.

- ٣٧ -

سلمى كانت تشرب بنهم بعد أن أطلقت جملتها الصادمة، تشرب لتنسى
أنها قتلت جنينها تحت وطأة أن تفقدك يا شادي، فتكتشف بعدها أنها فقدت
كل شيء، تشرب في صحتك وفي صحة الثورة والربيع العربي وعجز النخبة
وتلؤن المثقفين ولحى المتأسلمين وكابات الجنرالات والرايات السوداء.
تشرب سلمى خمرًا يكوي الحشا.

بجوارها كنت تجلس تداعب مكعبات الثلج في جوانب الكأس، في برلين
وبلاد المطر كنت تشرب ليسري الدفء اللذيذ في أوصالك رويدًا رويدًا
ليزيح في طريقه نتف الثلج وإحساس البرودة، هنا في هذا البلد الحار طول
الوقت والجاف كل العام تشرب لتنسى أنك قد جئت إلى هذا البلد الأمين،
أنك ركلت طموحك ومشروعك العلمي الكبير في برلين، وأنك اشتريت

الوهم بالحب، ربما أيضًا تشرب لأنك لا تريد أن تصدق أن فراشتك العنيدة التي طرت وراءها من برلين إلى هنا قد داخت أخيرًا وبدأت مُستأنسة تمامًا للهب الذي طال تنورتها.

دموع ثقيلة ظلت تتساقط من عين سلمى، دموع بثقل مأساة، من خلف عدسات نظارتك السمكية كنت تراها وهي تحفر طريقها على خدها دون هواده، تستشعر قسوتها، سلمى كانت ترى أن هذا الذي في أحشائها هو أجهل ما يمكن أن تقدمه للعالم، جنينها جاء في أثناء حفل العمى الذي دُعي الجميع إليه، والذي أُقيم على شرف هذا البلد، الحفل الذي خُطَّط له بعناية فائقة، حيثُ اصطف العميان عبر متاهة طويلة لها دروب متعرجة ليضاجعوا أنفسهم دون رحمة في طقس كرنفالي بات دون نهاية.

جنينها كان كل ما تبقى لها من الربيع العربي، كانت تظنه خيطًا دقيقًا يمكنها أن تتعلق بفتائله عسى أن يطفو بها إلى السطح وسط أمواج هادرة من اليأس والإحباط تحيط بالجميع.

جنين سلمى المُجهَض كان أملًا ينتظره جميعكم، كنتم دون أن تدروا تنتظرون صرخة ميلاده، شغف سلمى به وهي تُلقمه حلمتها لأول مرة، حبوه المرتبك نحوكم، تنتظرونه حتى وإن شعرتن نحوه بعداء غير مبرر.

جنين سلمى كان الوردة الوحيدة الباقية في صحراء الخيبة المحيطة. وردة
غرسها يا شادي، ذات حب في أرضها، ثم طلبت منها أن تقتلعها بيدها،
ففعلت بعد أن بدا لها أنه لا جدوى من زرع الورد.

أنت أهملت سلمى طويلاً يا صديقي، لم تُخطها بعنايتك في أشد أوقاتها
يأساً وحيرة، فقط كنت تفكر في مصلحتك، في إجهاض الجنين والهروب
إلى برلين.

العقيد حازم الشناوي صديقك القديم كان أكثر حناناً وعطفاً منك
حينها، وكونه عقيداً قديماً متمرساً في فن إدارة الأزمات استطاع أن يحنو عليها
بمخالبه، لدغ سمه في السياق المبلل بالتوتر فاشتعلت الحرائق.

منذ شجار البار لم تلتق سلمى يا شادي، رفضت كل محاولاتك في تدبير
لقاء بينكما من أجل التهدة أو فتح صفحة جديدة، لم ترد على مكالماتك
الكثيرة المتتالية، رفضت كل محاولات الأصدقاء الجادة منها والخبيثة الساعية
إلى تقليل الفجوة بينكما.

جرحها عميق، ينزف بداخلها ألماً، حتى الآن لا تعرف سلمى كيف
تورطت في قتل جنينها، لكنها اللحظة المثلثسة التي تقودك إلى فعل ما لا
تدركه، أن تسير إلى حيثُ تتورط ؛ لأنَّ كلَّ الأشياءِ أصبحتُ لديك واحدة.

في لحظتها المثلثسة كانت سلمى على استعداد أن تفقد كل شيء؛ لسبب بسيط أن كل شيء كان قد فُقد بالفعل. حتى شاديها الذي ظنته واحدًا صحيحًا لا يقبل الشك أو الانكسار.

منذ شهر جاءك يوسف هنا في البار وهو يضرب كفاً على كفٍّ، يخبرك أن سلمى قد ارتدتُ النقاب. المفارقة عابثة، الفنانة التشكيلية المتحررة، ابنة اليسار والتقدمية، سليلة الحركات الطليعية، الناشطة الثورية عضو الجمعية المصرية للتغيير تضرب النقاب والحجاب حولها، ثم تتعجبون أن يوسف ينتقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمن!

هكذا قال يوسف لحظتئذٍ.

- تتهموني يا شادي أنني منافق كل العصور، إنه زمن التحولات الكبرى، اسأل الفيزياء يا دكتور.

ساعة الالتباس لا تحيط بها الفيزياء، هي أعقد من أن تحللها النظريات والقوانين، ساعةٌ لا يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ساعةٌ غبش هي، وفي الغبش تتوه الأرواح الصافية التي اعتادت أن تسير في سكة النور. في غبشها حطمت سلمى كل أعمالها السابقة بما فيها "سقطة البجعة". لوحاتها النبؤة، يامامتها الزرقاء التي استشرفت كل هذا السقوط الذي طالكم جميعًا.

الآن اشرب يا صديقي لتنسى كل تلك العذابات والخيبات، هي آخر
كأس لك هنا، في برلين ستشرب نبذا مُعتقاً في صحة نجاحاتك.

نبذ غير هذا الذي يجعل به نجيب أذى، هو نبذ أذى لا متعة، ضلالات
لا هداية، توهان لا صفاء.

الآن ينوهتلفاز البار في الخلفية عن برنامج "هيكل". مصر أين؟ ومصر
إلى أين؟

أراك تضحك يا شادي، أسمعك وأنت تجلجل بشجرة عريضة تليق
بمفارقة موجعة.

بلد العجائز لا يستحي يا صديقي.

عجائزنا يتصدرون دائماً، لا يتوارن إلا بالموت، إن أدركهم الموت.

يداعب هيكـل قـلمـه الرصاصـ الشـهير، يـبدو النـمش عـلى يـديه كـخـريـطـة
قـديـمة باهـتة، يـتـابع شـادي لـقـطـة مـقـربـة عـلى يـد الأـسـتـاذ.
ماـذا كان سـيـفـعـل جـنـيـنـك يا سـلـمى فـي بـلد يـسـرح النـمش عـلى جـلدـها
الشـائـخ؟

هنا القاهرة.

مفرخة الجمود الأبدي.

- شادي أين؟ وشادي إلى أين؟

شادي هنا في بار الديك الذهبي. يشارك الجميع رقصة الزبيح في كرنفال
العبث، يتهاوى كل شيء أمام عينيه. حتى حبه لسلمى الذي ظنّه عميقاً
متأصلاً وراسخاً، الآن يندك هذا الحب كما تندك أحلامه العريضة التي جاء
من أجلها.

سيعود إلى برلين، بلاد الهواء النظيف والنوافذ المفتوحة.

يبدو أنك الآن قد وصلت إلى شيء ما يا عزيزي، شيء ما مرّ بك ومريح
في الوقت ذاته، هكذا تحدثني ملاحك المرتبكة كأحاسيسك.

لماذا تهب من مقعدك كالمسوع؟

تتحسس جيوبك، هذا مفتاح الرسم، أعرف هذا المفتاح جيداً منذ أن
أعطته لك سلمى لتأتيها وقتما تريد.

ما فائدة هذا المفتاح الآن؟

يمكنك أن تطوِّحه بعيداً، من الأفضل أن تتخلص من كل ما ينبهك إلى ذكرياتك الموحجة، عليك أن تمحو خريطة آلامك كلها من أطلس حياتك، هذا مفيد قبل بداية جديدة.

بأسى يربت نجيب أذى على كنف شادي، كأنه يودعه! لم تصل السيارة بعد يا شادي، أخشى أنك تفكر في اتجاه آخر، يتابني هاجس خيف أرجو ألا يتحقق.

بهدوء يتخذ شادي خطواته إلى خارج بار الديك الذهبي، أتبعه في قلق وهو يمر إلى الجانب الآخر من الطريق، يرمي أطراف كوفيته الصوف على صدره، شوارع وسط القاهرة شبه خالية، معظم المحلات قد أغلقت أبوابها، يترجّل بهدوء، ينعطف شادي إلى اليمين، ينظر إلى ساعته، يمر من أمام تمثال طلعت حرب، ثم يتجه يساراً، هواجسي تتحقق فيما يبدو، سيمرّ على سلمى في مرسومها، المرسوم على مسافة قريبة من البار، سيصله خلال خمس دقائق بمشيته المتأنية هذه.

ستتعدد الأمور إن حدث ذلك، لن يكون في مقدور أحد أن يتوقع ماذا سيحدث، لكنه لن يكون ذلك في مصلحتنا جميعاً.

ربما سيفتح أبواباً أخرى من الجحيم، لن يسلم أحدٌ، ستبدأ فصول جديدة من المعاناة، وسنجد أنفسنا متورطين من جديد.

ماذا سيفعل حين يواجهها؟

سيعاتبها؟

سيتحمل عنفها؟

سيرمي نفسه داخلها؟

سيعرض عليها ثانية أن تلحق به ببرلين؟

سيصمتُ؟

سيرجع في قرار رحيله إلى برلين إذا ما احتوته بين أحضانها؟

قرر أن يترك ذلك كله لتلقائية اللحظة.

- يا سيدي هناك أسئلة أخرى أعقد من ذلك تنتظرنا جميعاً إذا ما أكملت طريقك إلى الرسم، المسألة ليست بهذه السهولة التي تتوقعها، أنا على علم بكل شيء، هناك تفاصيل خفية، ما وراء الحُجب مهول، ليس هناك من داعٍ لهتك الأسرار، نزعُ الستائر فجأة قد يلحس الأبصار، تمهل يا رفيق...

- لا فائدة.

أسرعت فاتن الخطو، سلطان يتابع بشغف حركة أردافها المستديرة حين ترتبك وحين تعود واثقة، ما يشغله أكثر أن تقف، أن تستدير وترمى له كلمة عابرة، يجزُّ على أسنانه من الغضب عندما تكسر توقعه وتتجاهله، يكتنم نوبة غضبه، لو انفجر لفتك بها وبالعالم أجمع، لم يجد بداخله إجابة مقنعة تبرر له تنازله عن جبروته أمام هذه الرقة التي يسير خلفها بدراجه كأنه حارس شخصي، الجموع تسير خلفهما صامتة، تتابع في ترقُّب ما يمكن أن يحدث، كأنهم يتابعون حدثاً استثنائياً لا يريدون له انقطاعاً، وصلت فاتن قبالة منزلها، رمى سلطان دراجته بعيداً، جَذَبَهَا من الخلف، تستدير فاتن ناحيته مضطربة، ترميه بنظرات من عينيها فيها من السحر أكثر مما تحويه من الغضب.

ماذا تفعل يا سلطان أمام قوة كتلك؟ أنت لم تعدد معارك العشق، معارك العشق تفتك دون أن تُسيل دمًا، تدبح ولا تخدش، أظنُّ أني كنت مُخطئاً

تمامًا حين أسندت دور البطولة لسلطان، سلطان أضعف مما نتصور، يبدو مثيرًا للضحك أكثر من أبيه المهرج، فاتن هي البطلة الحقيقية ورمز الحكاية القوي.

ماذا تُجدي قوة سلطان مع هذا الجمال الغاشم؟ جسد كهذا يروض ألف سلطان ويجعلهم عبيدًا ودراويش لسحر طلته.

بدا سلطان منكسرًا خاضعًا أمام نظرتها الطاغية، وسطوة جسدها وحضورها، نظرت فاتن خلفها وهي تنفذ عبر مدخل منزلها، أحسته ضعيفًا رغم ما يُشاع عن قسوته، لكنها لم تتعاطف معه.

لم يظنّ سلطان أنه بكل هذا الضعف الذي تحجبه طبقات جلده السمكة وعضلات جسده البارزة وقلبه الذي ظنه ميتًا، تمنى أن كان يركض خلفها بقية عمره. لملّم جسده الواهن وترجّل بين الجموع التي اصطفت على الجانبين تتابع انكساره، يقرأ ما في عيونهم من سخرية وشماتة، السلطان يخضع ويتخلى عن جبروته كأسد مترهل يُخفي عجزه بين حشائش الغابة.

توقع البعض أن ذلك يُنذر بخطر سينال شره الجميع، غضب السلطان الكامن قد ينفجر في أية لحظة وسيطير كشطايا طائشة تحترق من يقابلها، أسرع الجميع بالاختفاء في منازلهم.

لكنني كنتُ على ثقة كاملة بأن أسطورة سلطان قد بدأت في التحلل.

الواحدة إلا خمس دقائق، نحن الآن أسفل البناية العتيقة التي يوجد
المرسم في طابقها الثاني، نور غرفة سلمى مُضاء، بقلق يتسلق شادي الدرج،
وبذات القلق أتسلق خلفه، يقف أمام الباب الخشبي القديم وهو يلهث من
التوتر، يدير المفتاح ويدلف للداخل، يتسحب بخفة وأنا خلفه يكاد قلبي
يتوقف، ضوء خفيف ينبعث من مصباح الغرفة إلى الخارج ويفترش أرضية
الردهة التي يعبرها شادي بحذر، يخشى أن يُرعبها ظهوره المفاجئ، كيّتي
تفترش أحد المقاعد، لم يداعبها شادي كالعادة، لم تهزل كيّتي إليه أيضًا،
أشار شادي لها أن تصمت، أغمضتُ كيّتي عينيها، يقترب من باب الغرفة،
يشب على أطراف أصابع قدميه، أكاد أنا أمشي على رأسي.

هل شاهدت هذا يا شادي؟

طبنجة حازم الميري، وكاب العقيد (كما يحلو لنزار أن يقول دائماً) على طقطوقة مُذهَّبة في الردهة الضيقة التي ستقودنا إلى ما لا يمكن أن أتنبأ به الآن.

يأتينا صوت سلمى خفيفاً كأنه يتأوّه أو يتوجّع، كأنه بين لذة أو مقاومة.

يتسحب شادي، يقترب من باب الغرفة المفتوح نصف فتحة.

فلنعد يا شادي إلى ما كنا عليه، موعد طائرتك قد اقترب.

ما وراء الأبواب لا طاقة لنا به.

سأذكرك يا شادي هنا بسقطة البجعة، لوحة سلمى التي تنبأت بكل هذا السقوط الذي حدث والذي سيصل إلى منتهاه بعد قليل إن تماديت ودخلت.

قفز هذا العنوان (سقطة البجعة) إلى ذهن سلمى حين كنتما "بزوين آليه" في أول لقاء بينكما، العنوان مُستوحى من أول مشهد لحكايتكما، حين زلت قدم سلمى من فوق درج السُّلم الرخامي للقاعة رقم ثلاثة بالكولتورفوروم بشارع بوتسدام الشهير ببرلين لتسقط بين يديك، كأنها حدث استثنائي جميل وفارق كتفاحة نيوتن، هكذا التقيتما بعد دقائق قليلة من تنحي وسقوط

مبارك، لتحفلا وتسهر حتى الصباح وسط العرب بمقاهي زونين آليه ومطاعمها ذات الطابع العربي.

تفاصيل اللوحة تشير إلى فتاة رشيقة ترتدي فستاناً أسود من الدانتيل، تبدو الفتاة وكأنها تمارس رقصة حاملة على ظهر رجل قوي مفتول العضلات. يركز ساق الفتاة اليمنى على حافة الظهر الذكوري الصلب والذي هو عبارة عن شبكة متداخلة من نسيج العضلات القوية. الساق اليسرى تبدو معلقة في الهواء عارية وحرّة في فراغ اللوحة كأنه يتأرجح مثل بندول الساعة. اليدان الناعمتان للفتاة تنساب إحداها في وداعة ويسر عالية في الهواء، بينما اليد الأخرى خلف ظهر الفتاة وقد ضمت أصابعها إلى قبضتها في إيجاء بتوتر وترقّب، هذا الوقوف الرشيق على الحافة حتى وإن بدا راقصاً واستعراضياً فإنه ينذر بالخطر المحتمل، السقوط الوشيك، السقوط الذي يبدو دوماً نهاية طبيعية لكل الرقصات الحاملة.

هذه اللوحة تثبت لي أن الفن يمتلك قدرة مذهشة على الاستشراق وقرءة تفاصيل الحياة الرخوة التي لا يستطيع العلم أن يقبض عليها، قوانين الفيزياء لا يمكنها أن تنبأ أو تفسر هذا السقوط المرعب الذي وصل إلى منتهاه خلف هذا الباب الذي تطرقه يا شادي، ستفشل قوانين الحركة

والنسبية وكل قوانينك ونظرياتك الصماء في وضع تصور ما يقود إلى فهم معادلة السقوط تلك:

(إذا مثّلنا لسلمى بنجمة في السماء عند النقطة A بينما تمثل النقطة Z أدنى نقطة في مركز الأرض، سنفترض أن النجمة قد انفلتت من صحن السماء بعد أن تلقت ركلة مجهولة نشير إلى مقدار قوتها بـ X فهوت إلى الاتجاه المعاكس بحكم الفعل ورد الفعل.

احسب من خلال ما سبق:

- ١ - مقدار قوة X التي أطاحت بسلمى.
 - ٢ - مقدار المسافة التي قطعتها سلمى من النقطة A حتى وصولها للنقطة Z.
 - ٣ - مقدار الزمن الذي استغرقته سلمى في الانحدار من A إلى Z.
 - ٤ - بحكم قوانين الحركة والمادة هل ستستقر سلمى عند أدنى الأرض أم ستواصل انحدارًا آخر مُفترض؟
 - ٥ - ماذا يفعل شادي لنجمته التي سقطت في أدنى الأرض؟
- لوحة سلمى بتفاصيلها القليلة اختزلت كل ذلك، قدمته موجزًا وواضحًا، الرقص الحالم لا ينتهي سوى بكابوس السقوط الكبير الذي نحن الآن على مشارفه.

لا تطرق بابها ثانية، خلفه جحيم، إن اقتربت احترقت، لن تحترق وحدك،
ستطول النار أجسادنا جميعًا.

يبدو أنك مُصِرٌّ على ذلك.

يا خفي الألفاف.

لا أستطيع أن أسيطر على أعصابي، على حافة الباب، على شفا
الانحدار.

يسمع شادي أصواتاً أو همسات غامضة، ربما ليست أصوات أو همسات
تحمل كلمات، مجرد احتكاكات أو ارتعاشات صوتية فارغة من الدلالة.

وضع قدمه اليمنى على عتبة الباب، وتسند بيده على المقبض المعدني،
أزاح الباب برفق، صوت المفصلات المزعج يمهد لما هو قادم، خلفية
موسيقية تتلاءم مع حفلة الرعب الوشيكة، ها قد وصل الباب إلى آخر مداه،
كأن ذلك استغرق سنوات طويلة، أطلَّ شادي برأسه إلى الداخل، ما يحويه
الداخل فج، يتسمّر في مكانه بين إطار الباب تتسع حدقتاه.

ها قد رأيت يا شادي، وها قد تورطنا جميعًا.

- ٤١ -

اتكأ العجوز ممسوح الذاكرة على يد الصبي المراهق، صعدا الدرج، يقف العجوز ممسوح الذاكرة كل بضع درجات ليلتقط أنفاسه، حين وصلا، طرق الصبي المراهق الباب، وطرق العجوز ممسوح الذاكرة، طرقات وطرقات دون إجابة، تبادلًا نظرات الحسرة، يهبطان الدرج خائبين، يسمعان ضحكتها العالية، ثم تجلّ لهما ظل نصف جسدها العلوي من خلف زجاج الباب عاريًا برّاقًا، ثم أفل الجسدُ وانقطع الصوت.

دائمًا ما ينتهي السرد عند نقطة مُثيرة في الحكاية. مثلاً أن مركب الصيادين في وسط البحر، الصيادون بعد أن طوحوا بشباكهم يلتحفون بالصبر، ينظرون إلى السماء الصافية التي تظللهم، ثم فجأة تهب الرياح مذعورة من

وسط كل هذا السكون، مركب الصيادين تتقاذفه الأمواج وتطوحه لأعلى وتتلاعب به أيدي الريح الهوجاء، يميل المركب على إحدى جانبيه، يصرخ الصيادون على متنه ويتشبثون بحبل الأمل.

حين يصل السرد إلى مثل تلك النقط المثيرة وإلى تلك اللحظات الفارقة الحاسمة، يتوقف، ينقطع البث، كأن هناك من أجمه، ماذا عن الصيادين في قلب الإعصار؟ ماذا عن المركب الذي تلامس جوانبه الماء؟ هل سيظهر ذلك المُنقذ والمُخلص المُنتظر الذي سينشق عنه بحر الظلمات ليكتب لهم النجاة؟

هل هناك من وعدٍ الأسماك المحيطة بالمركب بوجبة دسمة محتملة؟ على الجميع، صيادين ومركبًا وأسمًا أن يتحرقوا شوقًا وقلقًا في انتظار مصير غامض يلوح من بعيد.

حالتي الآن كحال هؤلاء الصيادين، فأنا الآن أقف على باب غرفة سلمى محترق الأعصاب في انتظار أن يستكمل لي السرد حكايتي، أريد أن أعرف لماذا تسمرتُ عند إطار الباب؟

ما الذي يحويه داخلُ غرفة سلمى؟

ما الذي يحدث في غرفتها؟

ماذا يُجِبُّ لنا السرد بعد كل هذه الإثارة المفجعة؟

ماذا تبقى في اللعبة؟

الحكاية على وشك أن تنتهي، وسأغادر إلى برلين بعد ساعة من الآن، لكنه السرد اللعين الذي يتحكم في الإيقاع ويأسرنا بقيوده حين يصيبه الملل أو يهجع إلى الصمت في تلك اللحظات المرعبة الفاصلة، لن يستمر ذلك كثيراً على كل حال لأن ماكينة السرد الهادرة ستعاود هرسنا تحت تروسها العملاقة التي لا ترحم.



الراقصة ملكة البهجة ظلت تقدم عروضها المثيرة خاصة رقصة النحلة إلى جمهورها العريض الذي يأتي كل ليلة إلى سرادقها العظيم من أجل اقتناص لحظات من البهجة والصفاء.

في كل مدينة وفي كل عصر سوف تجد ذلك، خطط أحدهم شارعًا تخلّيدًا لذكرى ما، دائمًا ما يسكن في قلبه الصفوة ودائمًا بعد قليل يأتي إليه مهمشون يزعمون أنهم يستطيعون تسكين الوجد وعلاج الأحران.

ينصب أولئك المهمشون خيامهم ويعدون أدواتهم استعدادًا لبيع البهجة للعابرين، ولأن الناس دائمًا ما يبحثون عن تلك الأشياء التي ترمم أحزانهم فسوف تعرف كل المدينة الطريق إليهم، بعدها يسيطرون على الشارع حين

يغادره الصفوة معلنين تأففهم، ثم لا تلبث تلك الصفوة المتأففة أن تزور المكان بين الحين والآخر ربما وهي متنكرة؛ لتتخفف من أوجاعها.

سرّاً سيأتي كل سكان المدينة، يزورن الشارع ليلاً ليتزودوا بهجة تسع أحزانهم، ثم يسبون تجار البهجة في الصباح على المقاهي ليعبد كل واحد منهم الشبهة عن نفسه. بعضهم سينادي بضرورة طردهم من المدينة، سيجعلونهم سبباً لكل الشرور التي تحدث.

تجار البهجة يسخرون من سكان المدينة ويتحملون ذلك في صمت؛ لأنهم يعرفون أن الناس سيضطرون أن يأتوا إليهم، فأحزان الناس لا تنتهي، والأحزان تريد من يلففها وما يجعلها قابلة للاحتمال.

إنها البهجة يا سيدي ما يبحث عنه الإنسان دائماً منذ جاء وحل بهذه الأرض الخراب، تاريخ الإنسانية كله عبر صراعها الطويل منذ الخطيئة كانت بحثاً عن ذلك، إذا لم يستطع الإنسان أن يتسلق إلى الجنة ثانية، فهناك عربة اسمها البهجة تستقلها روحه لتخترق جدار العدم، حتى أوقات الحرب والدمار تستطيع أن تدع سلاحك جانباً وتستظل بأطلال المدن لتشاهد فراشة نجت من كل ذلك تمارس رقصتها غير عابئة بما يحدث حولها.

هناك دائماً من يحاول أن يمنع ذلك، قد يضعون في طريق عربة البهجة
متاريس، يتوهمون أنها الأخلاق أحياناً أو الصالح العام تارة، العربة لا
تتوقف، قد تضطر أن تهبط إلى الأنفاق لتواصل سيرها وبحثها عما يجعل
الحياة قابلة للعيش.

هذا ما فعلته الراقصة ملكة البهجة وفرقتها الموسيقية بعد أن قام بعض
المهوسين من شخوص عوالي بحرق سرادقها وطردها من المدينة بعد أن
اتهموها بنشر الرذيلة والفجور.



- ٤٣ -

تستهويني اللحظات الفارقة، لحظات التحول الكبرى، وأنت تقف على الأعتاب، حين تكون خطوتك القادمة خطوة يتحدد عليها مصيرك كله، أنت قبلها لست أنت بعدها، في هذه الأوقات أنت تعيش آدميتك الحقيقية، لأنك تعيش لحظة اختيار، ولولا الاختيار ما كان آدم، خُلق آدم حين اختار أن يمدَّ يده إلى الشجرة المحرمة، قبل ذلك لم يكن آدم ينتمي إلى الأرض، كان أقرب إلى السماء، إبليس أيضاً كان يمتلك لحظة اختيار كتلك، ما بعد كلا الخيارين مجرد تحصيل حاصل، ردة فعل لضربة البداية التي بدأها إبليس و آدم.

هي أيضاً لحظات شغف وقلق مثلما هي لحظة قرار، إما أن تمدَّ ساقك وتجتاز الأعتاب، وإما أن تعود أدراجك وتنسحب بهدوء، ليس هناك خيار ثالث، كأن تظل واقفاً على تلك العتبة الفارقة، الثبات يعني أن حكايتك قد انتهت، قد تمت وقامت قيامتك، لكنها انتهت باردة مشوهة وناقصة ومن دون شغف وإثارة.

من أجل كل ذلك أجدني شغوفاً بمتابعة شخوصي حينما يقف أحدهم على عتبة اختياره. الدرويش وشادي الآن يمتلكان لحظة كذلك.

"الدرويش يقف على عتبة سيدة الغسيل، سيدة الغسيل بعد أن انقطعت عن التجلي في شرفتها، وبعد أن انفض عنها جمهورها بما فيهم العجوز ممسوح الذاكرة والصبي المراهق بعد أن أضناها الانتظار، عادت للتجلي للحظات، لمرة واحدة، رمت قطعة غسيلها الساخن قليل الحياء فسقط على عمامة الدرويش، ثم غابت وأفلت ثانية، تركت الدرويش في حيرته وقلقه، ظل يضرب بعصاه الأرض، ولعدة أيام لم يغمض جفنه، يقلب عينيه الخضراوين في جنبات السماء، يداعب لحيته، صام عن الطعام وانقطع عن الماء، لكنه منذ يومين هبَّ في الجزء الأخير من الليل، حمل حقيبته وانطلق، نصب خيمته تحت شرفة سيدة الغسيل، لكنها لم تظهر له.

لحظة الدرويش الفارقة تتجلي الآن وهو يقف على عتبة بابها، بعد أن قرر أن يصعد ويطرق بابها كما طرقه كثيرون قبله وعادوا خائبين.

يا لها من لحظة! الدرويش الذي قضى عمره الطويل على حافة الدنيا وهامشها، يقف الآن على عتبة سيدة الغسيل.

هل ستطرق بابها أنت أيضاً كما طرق شادي باب سلمى؟

لحظة شادي الفارقة لم تتجلَّ كاملة واضحة حين طرق باب سلمى وأغفل موعد طائرته، لكنها تبدو لي الآن وهو يوشك أن يطلق النار من طبنجة العقيد حازم الشناوي والتي وجدها بجوار كاب العقيد؟

كم لبثنا في هذه الغرفة؟

لا يهم، يمكن أن يستمر ذلك إلى الأبد، لن ينتهي قريباً على كل حال؛
لأننا لا نعرف كيف يمكن أن ينتهي، رغم أن النهاية معروفة، بل النهاية
حدثت بالفعل، أو ربما هي في طريقها لحدث، حتى الآن لم نتبادل أطراف
الحديث كما يليق بصحبة قديمة، لم تصدر كلمة واحدة في هذه الغرفة منذ أن
دخلتها قبل عدة ساعات أو عدة أيام لا أعرف، لم تحاولي يا سلمى التبرير،
ولم تخرج منك يا حازم كلمة واحدة للتفسير أو للدفاع عن النفس، أنا أيضاً
ألتزم الصمت الرهيب، لم أوجه لكما كلمة نابية أو مجرد توبيخ على أقل تقدير،
الكلمات لا تحبو في ساحات العبث، تتدلى الألسنة عجزاً وخجلاً في مواطن
الدهشة.

ماذا بإمكانك أن تقول يا سلمى؟

- آسفة.

- تقبل اعتذاري!

ربما تقول يا حازم "عفوًا"، معذرة يا صديقي لم أكن أقصد أن أركب فوق امرأتك.

ما الشتائم المناسبة التي يمكنني أن أقذفها نحوكم؟

- عاهرة.

- خائن.

سيبدو ذلك مثل الترجمة الرديئة المصاحبة للأفلام الأجنبية والتي تفسد المعنى وتثير ضحكنا؛ لأننا نعرف أنها لا تتلاءم مع وقاحة السياق.

الصمتُ أصدقُ إنباء.

الوقت يمر، فاتٌ موعد طائرة برلين على كل حال، يبدو أن السفر كان مجرد مناورة خبيثة من أجل استدراجي إلى هذا الفخ الذي لا أعرف كيف أنجو منه؟

الموقف شائكٌ ومُخزٍ، لكنني تحت كل الضغوط لا يمكن أن أفعل ما يزينه لي، لن أضغط على الزناد، لن أتورط معه في لعبته المثيرة، القتل مروع كالحيانة، قبضة يدي مُتشنجة على الطبنجة الميري، الرصاص المحشو بداخلها يكاد ينفلت، ربما يستفزه المشهد.

لكنني حتى إذا ما قررتُ أن أطلق النار، على من أطلق أولاً؟
هل قتل أحدكما قبل صاحبه يمثل عقاباً أم يمكن اعتباره راحة؟
أليس الأشد قسوة من القتل أن يشاهد أحدكما الآخر وهو يترنح بجواره كبالونة مثقوبة تدور مذعورة إلى أن تسقط في أحد الأركان؟
على كُلِّ حالٍ إذا ما قررتُ أن أفلت رصاصتي سأطلق رصاصة واحدة، ربما قد تكون كافية لقتل كليكما، ليس لأن المسؤولية بينكما واحدة بل من أجل حسم حيرتي.

كان من الممكن أن أكون الآن في برلين منذ ساعات أو أيام، لكن السياق الذي وضع هذه الطبنجة في طريقي قد غيّر وجهتي إلى الرسم، ثم دفعني إلى هذه الغرفة، لأطل برأسي داخلها.

تحتاج إلى بعض الوقت لتستوعب تفاصيل مشهد كهذا، المشهد كان مُقَرَّزًا، شعرتُ بغثيان ودوار رهيب، استندتُ إلى الباب حين دبَّت رعشة عنيفة في أوصالي تشبه تيارًا صاعقًا، للحظات بعدها لم أعد أرى شيئًا، مجرد ومضات تبارق في وسط الظلمة وتنطفئ سريعًا.

في أثناء واحدة من تلك الومضات الخاطفة الكاشفة وجدتُ طبنجتك الميرى يا حازم التي يبدو أنها قد صُنعتْ خصيصي من أجل تلك اللحظة على منصدة مُستديرة من الخزف، كانت خلفي مباشرة في الردهة الصغيرة بين الصالة والغرفة، مما استدعى أن أقوم بنقلتين سريعتين للخلف، قبضتُ خلالهما على الطبنجة التي كان بجوارها كاب العقيد ثم أعقبتهما بنقلتين مماثلتين إلى الأمام لأكون في المواجهة تمامًا.

كاب العقيد والطبنجة الميري لزوم برستيج المهنة التي عدتُ إليها يا حازم مؤخرًا.

ما رأيكما أن نشغل وقت فراغنا هذا الذي سيطول ربما إلى أن يفنى العالم في عمل مفيد؟ لنعد إلى سياق حكايتنا الذي ورطنا في هذا الفخ المرعب، قد يبدو ذلك أكثر إثارة مما يبدو عليه رجل متردد يمسك طبنجة ميري ٩ م حلوان عهدة صديقه القديم الذي وجده يمتطي امرأة حياته، ورغم ذلك لا

يستطيع أن يفلت رصاصاته التي باتت تشعر بالضجر تحت يده المتخشبة على الزناد، ولا يقدر في الوقت ذاته على أن يضع الطبنجة جانباً ويرحل بهدوء.

- "تذكرين يا سلمى أن بعد شهرين تقريباً من وصولي للقاهرة كنتُ ضيفاً دائماً على معظم البرامج التلفزيونية، عشرات الحوارات في الصحف والمجلات المختلفة، الجميع كان يحتفي بعودة العالم الواعد إلى بلده، المسام العام لهذا البلد كانت مفتوحة وقتها، بما يسمح بتدفق العشرات من الأفكار والرؤى التي كانت تُطرح يومياً، أدهشني ذلك كثيراً يا سلمى، وبُتُّ اعتقد أن هذا البلد يمكن أن يقفز قفزات هائلة في ظل سنوات قليلة.

دفعني هذا أن أُقدم العديد من الأطروحات والمشاريع العلمية خلال اللقاءات التلفزيونية التي تبارت على استضافتي، من هنا ظهرت فكرة مدينة العلوم، والتي راحت العديد من الصحف والبرامج تروج لها، شكّل ذلك فيما يبدو ضغطاً كبيراً، حد أن رئيس الحكومة في هذا الوقت طلب مقابلي، ووضعنا وقتها تصوراً مبدئياً للمشروع، وتعهد رئيس الحكومة حينها بتوفير قطعة أرض كبيرة لتنفيذ الفكرة.

تعرفين يا سلمى أن ذلك لم يحدث؛ لأن الحكومات كان يتم تغييرها كما يغير أحدهم سراويله الداخلية، تعرفين أيضاً أنه تم ترشيحي أكثر من مرة لأكون وزيراً للبحث العلمي، وأنني في كل مرة كنتُ أرفض؛ لأنني عندما

كنتُ أسأل عن الرؤية المستقبلية لهذه الحكومة الجديدة كانوا يندهشون وينظرون لي بعين بها من الريبة أكثر مما بها من التعجب، أحدهم قال لي مرة: "هذا البلد يعيش اليوم بيومه".

لم يضعض ذلك في عزيمتي رغم ذلك؛ لأنك كنتِ قادرة في كل مرة على احتوائي ولملمة تردي وحيرتي، في كل مرة يا سلمى كنتِ تمنحيني ما أتقوّت عليه حينما يلامسني ذلك الأمل الذي لا يخفت توهجه في عينيك، حد أنني شاركتك جهوحك الثوري، نزلتُ معك إلى الميادين والشوارع، أهتفُ كما تهتفين، أرفع معك اللافتات التي كنتُ قليلًا ما أفهم شعاراتها، أشاركك جلسة المقهى مع أصدقائك ورفقاء نضالك السياسي.

أصادقك القول كنتُ في البداية سعيدا بذلك، ظننتُ أن مقامرتي الكبرى بترك برلين والتنازل عن مشروعاتي وطموح العلمي لم تذهب هباءً، لم يستمر ذلك طويلاً كما تعلمين، يبدو أن في هذه المنطقة من الحكاية بدا واضحاً أن هناك من يعبث بنا، من يمتلك رقعة الشطرنج بين يديه ويراها بوضوح كبساط ممتد أمامه، اليد غير المحايدة موجودة طوال الوقت، تخطط للنقلات والحركات القادمة بحيث تبدو حتمية ومبررة، تتلاعب بكل القطع، تسخر حين تجعل هذه القطع تتناطح على الرقعة بجدية متوهمة.

في مقعد بعيد، في ركنه الخفي كان هناك من يضحك من أعماقه على
سداجتنا المفرطة.

لم نكن نعرف متى وكيف نبتت كل هذه اللحى التي كانت تعجُّ بها
الميادين؟

ولا إلى أي شيء ترمز تلك الرايات السود التي يطوفون بها.
من أين خرج كل هؤلاء المحللين السياسيين الذين يُنظِّرون لكل شيء
ونقيضه؟

صحف، مجلات، قنوات تلفزيونية، أحزاب، حركات سياسية.
كأن هناك من ضرب الأرض بعصاه، ثم حين انشقت خرج من جوفها
كل ذلك الخليط المهجين الذي يناطح بعضه بعضاً في هزل أشبه بالجد أو في
جدٍّ أشبه بالهزل الصريح.

هكذا مثلاً كان يسقط البعض قتيلاً بين أيدينا ونحن نطوف الميادين في
أثناء مشاركتنا في الفاعليات الثورية دون أن نعرف كيف قُتل أو من قتله،
كان علينا أن نسحبه من تحت الأقدام ونهروا بعيداً دون أن نقف لنفكر
في ذلك، إذ يبدو أن الحركات الدرامية المتتالية كانت لا تتيح لنا سوى أن
نُخلي خشبة المسرح سريعاً لما هو أهم من كل ذلك، فعجلة السرد الهادرة لا

تتوقف، تهرس في طريقها من لا يتناغم مع إيقاعها السريع، هؤلاء الذين يتوقفون من أجل محاولة الفهم أو التأويل، أو البحث عن بطولة ما.

ليس ثمة أبطال هنا على كل حال، الكل كان يسقط سريعاً، فالبطولة المطلقة كانت له، هو الذي لم تطأ قدماه خشبة المسرح، ولم يرد اسمه تصريحاً أو تلميحاً في النص.

"أبانا الذي في الخفاء".

هكذا كانت حملات التشويه المتعمد تضرب في كل الاتجاهات سهماً لا تخيب، لم يسلم منها أحد، حتى طالت إحداها الدكتور شاكروودة، الرمز النضالي الكبير وشيخك الثوري كما كان يحلو لك أن تقولي، رمية لإبرام، الرمية الصائبة كانت بيد يوسف، ويد يوسف طائلة، لم نعرف من أين أتى يوسف بكل هذه الوثائق والصور والرسائل والمكاتبات الدامغة التي تُثبت بما لا يدع مجالاً لغير اليقين أن القطب اليساري الكبير، صاحب أهم الكتب النقدية التي رصدت الحركات الفنية والأدبية، رئيس تحرير المجلة الأدبية العريقة، كان مجرد عميل قديم لدى جهاز أمن الدولة أيام حكم مبارك، مهمته الجليلة أن يشي بأصحابه من طبقة المثقفين والأدباء لذا كان جديرًا بأن يُطلق عليه يوسف لحظتها "الأمنجي المثقف".

رَفَضَ يوسف أن يُفصح عن تلك المصادر التي زودته بكل تلك الوثائق والصور التي عرضها في برنامجه، بحجة أن ذلك يتعارض مع أخلاقيات المهنة، كما رفض أن يكشف عن السبب وراء فضح الرجل وتعريته في هذه الأوقات، إذ إن ذلك لا يعنيه كونه صحفيًا، وكل ما يعنيه السبق الكبير الذي يشبه الجُرسة.

صدمتك كانت بلا حدود، حد أنك قاطعتِ يوسف، بعد أن شككتِ في صحة رواياته، الغريب أن شاكر عودة نفسه لم يرد، وحين سألتَه على المقهى: لماذا لم ترد يا أستاذي؟

اكتفى بأن وضع نظريه في الأرض كتلميذ خائب، ثم اعترف بعدها - فيما يُشبه التطهير - بأنه كان من أو شئ بكِ إلى أمن الدولة.



اختفى سلطان منذ انكساره، لم يظهر منذ عدة أيام، اختفى كما اختفى أبوه المهرج، لكنه ترك فاتن تمارس سطوتها المطلقة.

أسير خلفها شاردًا عن كل شيء سوى تأمل وَقَع جسدها على العابرين وأصحاب المحال الذين تفرغوا للفحص والتمحيص في مكان من هذا الجسد وأساراه خاصة بعد اختفاء السلطان الحارس لهذا الجسد الذي يشق طريقه كموكب من البهجة يوقظ الحواس النائمة، ويترك أثرًا من السعادة المؤقتة في النفوس.

إيقاع فاتن الواصل يدُلُّ على أنها ليست شخصية اعتيادية أو هامشية خُلقت من أجل أن يلهو بها البطل أو تُزجي له وقت فراغه، بالفعل تستحق فاتن البطولة المطلقة.

لاحقته حتى وصلت إلى النهر، قفزت خلفها في أحد المراكب الشراعية، موقعي أتاح لي تأمل ملاحمها عن قرب، أنا الذي صنعتها ووهبتها كل هذه

المَلاحَة. ملامح بها مشاكسة تستنفر وتستنفر، جمال ثوري يحرك الساكن ويهز الثوابت، يدك هُدوءك، ليس هذا الجمال الهادئ الذي تتمتع بعد رؤيته بقدرة الخالق وروعة المخلوق، بل جمالاً صاحباً يثير الضوضاء في خلاياك ويتركك على حافة القلق.

بهُدوء يشقُّ المركب طريقه وسط النهر، يحملنا وسط جزر مجهولة، هبطت وهبطت خلفها، سرنا بين أشجار الجزيرة الخالية، ظلت تداعب يديها أعناق الزهر، وتقفز لأعلى لتضرب فروع الأشجار، ثم وقفت فجأة واستدارت ناحيتي، رفعت إطار نظارتها لأعلى، عينان سوداوان واسعتان تمتست حولها مظلة من الأهداب الطويلة، تبسم لي فأرتبك، تسألني عن حكايتي، فيزيد ارتباكِي وخجلي، أسير بجوارها صامتاً، زر قميصها العلوي يتواطأ ضدي، فيكشف عن نهدين ملحميين يرقصان على وقع خطوها رقصات غجرية، ظننتُ أنها سيقفزان إلى أرض الجزيرة، وسيواصلان الرقص، ثم يهرولان بعيداً، يتخفيان مني بين الأشجار وأنا أجري خلفهما كأرنبين مارقين.

عادتُ تسألني ثانية عن حكايتي وعن منظاري الذي يراقبها في غرفتها كل ليلة.

شخصي وأبطال حكاياتي يتلصصون عليَّ كما أتلصص عليهم!

بماذا يمكن أن أجيبك يا فاتن؟

هل أقول لك إني مجرد سارد عاجز يبحث عن حكاية تليق به؟

لكنني اكتفيتُ بأن قلت:

- أنا ربُّ كل هذه الحكايات.

سألتُ ثانية:

- وما حكايتك؟

قلتُ لها:

- أعيش عارياً دون حكاية.

ضحكت ضحكة هادئة لا تخلو من سخرية.

- أنت الذي تهب الحكايات للناس وتعيش دون حكاية؟

حسم الدرويش أمره بعد طول تردد، قرر أن يطرق باب سيدة الغسيل، لكنها لم تفتح كالعادة، لم يسمع ضحكتها المشاكسة، ولم تتجل له على زجاج الباب كما فعلت مع العجوز ممسوح الذاكرة والصبي المراهق. لكن الدرويش لم يصبه الضجر كما أصاب كل من صعد إلى بابها وطرق، نصب الدرويش خيمته أمام بابها، ثم أخذ يناديها، يناجيها أن تفتح، طوال الليل ينشد لها،

يرجوها أن تشمله بعطفها، وأن تمنحه عطاياها التي لم تمنحها لأحد، حين يستبد به الوجد وتأخذه النشوة والسكر، يطرق الباب بكلتا يديه، حتى يسقط مغشيًا عليه.

" - شادي أيضًا سيحسم أمره قريبًا، لأنه هو الذي وضعنا جميعًا في هذه الورطة، بعد أن كان في إمكاننا جميعًا أن نرتاح إذا ما كان قد قرر أن يلحق بطائرته، ومن أجل حسم الجدل بداخله، فأنا أقترح عليه أن يطلق على عصام أولاً، ليس من أجل غرض ما سوى أن نُنهي تلك الذريعة الواهية التي يتعلل بها شادي من أجل إضاعة الوقت.

ستجد يا شادي وبعد أن تطلق على حازم شجاعة كافية تمكنك من أن تفعلها ثانية مع سلمى. الطلقة الأولى هي الأصعب، بعدها يمكنك أن تقتل مدينة كاملة.

الآن تدخل "كيكي" قطعة سلمى الوديعة إلى الغرفة، يمكنها أن تكون ذريعة جديدة لك يا شادي من أجل إضاعة المزيد من الوقت الذي ستنفقه في إعادة سرد ما قد حدث بالفعل، وسوف ينتهي الأمر إلى لحظتك الآنية التي يستوجب عليك فيها أن تبادر وتطلق رصاصاتك.

- لا مفري يا صديقي.

- ٤٦ -

لماذا تدخل كيتي الآن إلى هنا؟ من الصعب أن تتحمل قطة وديعة قسوة ما يجري داخل هذه الغرفة، هيا يا كيتي، اذهبي إلى الخارج، أنت عنيدة كصديقتك.

بهدوء تمرُّ كيتي بين ساقي المنفرجتين، تقف في المنتصف، تنظر ناحيتي، ثم تدير رأسها باتجاههما، كأنها تتأمل هذا المشهد الغريب، ما تشاهده كيتي هو العجب العجائب.

كيف يمكن لقطة أن تتعجب؟

تهز ذيلها؟

ذيل القطة يشبه علامة التعجب، في طريقها تتوقف، تتشمم الوافي الذي خلعه حازم منذ قليل، أنا لا أعرف لماذا فعلت ذلك يا حازم حينما وجدنتي أمامكما؟

ربما من الخجل مثلاً؟

هل لأن الكوندوم لم يعد له فائدة الآن وأنا أقف على رأسيكما؟

على كل حال استخدام الكوندوم من أجل الـ (safe sex) يعد أكثر طمأنينة من استخدام حبوب منع الحمل؛ سلمى قد تنسى حبوب منع الحمل ثانية، ربما هي التي أشارت إليك باستخدامه؛ هي فتاة واعية، تستفيد من أخطائها السابقة.

وكقطة واعية لم تجد كيتي الموقف مناسباً لألعابها المشاكسة، لن يثير ذلك اهتمام أحد الآن، تربعت على الأرض وأسندت رأسها إلى فخذ سلمى.

لماذا تمارسان ذلك على الأرض وليس فوق الفراش؟

ربما لن يشغل هذا السؤال ذهن كيتي كما يشغلني.

وجود كيتي يزيد من تعقيد الأمر، أخشى أن تنفلت رصاصة طائشة فتصيبها، مقاومتي قد تنهار في أية لحظة.

"لم تتحركي يا سلمى منذ أن اقتحمتُ الغرفة عليكما سوى الآن لتمسحي على رأس كيتي، فقط حين دخلتُ هذه الغرفة الملعونة تحركت يديك بعفوية لتستر صدرك، وانضمت الساقان بتلقائية، يبدو لي ذلك مثيراً للدهشة، الآن تشعرين بالحياء ناحيتي كرجل محايّد، كرجل أجنبي.

هناك أسئلة ما داخل هذه الغرفة يمكنها أن تركز عقل عالم فيزياء لا يجيد إطلاق النار بقدر ما يجيد التفكير في الأسئلة الشائكة.

أنتِ مثلاً لم تنظري ناحيتي حتى الآن.

ربما تخشين ذلك.

أنا أخشاه أيضاً، قد لا أتحمل نظرة الانكسار التي قد تطفو من عينيكَ حينها، يدهشني أيضاً هدوء حازم واستسلامه المفرط، وهو المعروف ببرودة أعصابه، وكضابط بوليس محترف ربما يكون قد تعود أن يتحكم في انفعالاته في أثناء المواقف الصعبة، لكنني أشكُّ يا حازم أنك قد مررتَ بموقف أصعب من ذلك من قبل، حتى عندما اقتحمَ عليك المتظاهرون مبنى أمن الدولة في أثناء ثورة يناير، تذكر أنك خرجتَ من بينهم بثياب نسائية أسعفك بها أحد جنودك، ربما وقتها ورغم صعوبة الموقف كنتَ تشعر أنك تؤدي مهامك أو أنك تنجو بحياتك، الآن أنت في مصيدة جديدة، لكن الموقف مختلف، فأنت الآن لا تؤدي مهام عملك ولا تحاول أن تنجو بحياتك، بل كنت تضاجع امرأة صديقك القديم، وكما تعودتُ منك يا صديقي القديم فأنت تجد لذتك في سرقة مُتعي حتى ولو كانت صغيرة.

هل شعرتَ يا حازم بوخزة ما في قلبك؟ وخزة تُشبه وخزة صديق يرمي بدلوه في ذات القاع المُقدس الذي كان يغوص فيه دلو صديق عمره.

في أي شيء كانت تفكر سلمى عند الإيلاج؟

هل تذكرتني سلمى لحظتها؟

الأسئلة شائكة، وإجاباتها معقدة، والساعات تمضي، زجاج النافذة هو مؤثرنا الوحيد على تعاقب الليل والنهار، تلطم أشعة الشمس زجاج النافذة بقسوة، ثم لا تلبث أن تترك مكانها لضوء القمر الحنون، لكننا على حالنا، إنها هنا متخشبون، العرق ينز من أجسادنا، قبضة يدي ترتعش وهي تكبح جماح الطبنجة وتلجم نزعها، قد نخونني قدماي المرهقتان من وقفها الطويلة، ربما تعاني سلمى تيس أطرافها، وقد يشتكي حازم من آلام الفقرات المتجمدة، لا أمل أن ينتهي ذلك قريباً.

كيف يمكنك أن تطلق النار على امرأة همست في أذنيك ذات يوم بكلمات حب صادقة وهي تجلس على ساقيك؟

أنتِ قلتها يا سلمى وأنتِ تجلسين على ساقَي صباح آخر ليلة لنا في باريس، وفي الحقيقة أنا لا أعرف هل قلتها لحازم وأنتِ تجلسين على ساقه قبل أن أفتحكم عليكما الغرفة منذ عدة ساعات أو عدة أيام أو بضع سنين، بالطبع لن أسأل عن ذلك، لكنها أسئلة شائكة تشغلني.

لنعد إلى سياق حكايتنا ثانية على كل حال حتى نشغل به عن آلام عظامنا المتيسسة هنا.

"لم أسلم أنا أيضًا من ذلك، طالتني يد التشويه الخفية، صُحف وبرامج تليفزيونية بدأت تهاجمني، يدعون أن السياسة أفسدت شخصية العالم النزيه بداخلي، وأنني أسعى لتحقيق أمجاد شخصية زائفة، وأن مشروعاتي العلمية مجرد طق حنك وأكذوبة كبرى لا جدوى منها، البعض تخطى ذلك إلى ما هو أبعد بكثير وأخذ يتساءل عن سرّ عودتي إلى القاهرة في هذا التوقيت غامزًا ولا مزا إلى أنني مجرد صناعة مخبراتية، أحد شيوخ الفضائيات أكد أنني عضو في أحد المحافل الماسونية وأنني ملحد أعبد المادة، وأرى أنها سرّ الوجود، وأنني

أنفي وجود الله.

هكذا كانت تسير بنا الحكاية إلى متاهتنا العميقة، لكن من يتحكم في رقعة الشطرنج كان يجهز لنقلة أخرى، أكثر عمقًا ودهشة من كل ما مضى، هكذا استيقظنا ذات صباح لنجد الإخوان قد تسللوا إلى مقعد الحكم كصدمة تم الإعداد لها جيدًا.

تُشعل فاتن ضوءاً خافتاً بغرفتها، أرى ظلها الرشيق يتمدد على السرير، حينها صنعتها وهبتها كل هذا الحضور والسطوة من أجل أن تقلم أظفار سلطان، الآن تبدو لي نافرة وعصية، لا أستطيع ترويضها.

في المساء التالي أشارت إليَّ بإشارات فهمتُ بعد جهد أنها تود أن تقابني في الجزيرة، في الموعد كنتُ هناك، حين جاءت اكتفتُ بابتسامة وديعة آسرة، سرنا طويلاً وسط حشائش وأعشاب الجزيرة، أخذتُ تجري وراء سرب من الأوز بتلقائية حتى أنهكها التعب، جلستُ على حافة الجزيرة وأخذتُ تُداعب الماء بساقيها العاريتين، أجلس إلى جوارها، أتمنى أن أعانقها، أن تكون حكايتي هي حكاية هذا العاشق الذي يدور في فلك امرأة كهذه، وأن تكون نهاية الحكاية هي هذا العناق الأبدي الذي لا ينتهي والذي تتوقف عنده الأحداث، ليصير لحظة سرمدية أبدية.

يبدو يا فاتن أنني من أجلك قد صنعتُ كل هذه العوالم، كل هذه
الشخوص مجرد مرايا تنعكس عليها صورتك، شخوص ثانوية تشاركنا
البراح حتى لا نعيش وسط هذا العالم بمفردنا، من أجلك كان السرد، كان
كن فيكون، فكنتِ وكنتُ، أنا هذا الضائع وسط كل هذه الحكايات، وأنتِ
حكايتي الوحيدة.

أقترُبُ منها، عيناها مثل الجزيرة، واسعة وخضراء، يجري الأوز بين
حشائشها، أقترُب أكثر، جسدها له روائح حريفة تجلد الحواس دون رحمة،
ألامس شفيتها، يصعقني ملمسها وتيارها الذي ينبض في جسدي كله،
تدفعني عنها برقة، تنظر لي بدلال، وتجري إلى المركب.



أنت رجل بائس يا شادي، تحاول دائماً أن تكون على الحياد، لا تتورط ولا تنغمس في شيء، ستظل دائماً مثل طفل مُهندم يحاول الحفاظ على هندام ملابسه فيكتفي بالفرجة من بعيد على الأطفال من حوله وهم يواصلون لعبهم وشجارهم وإثارة الغبار ورش الماء الذي يطال ثياب صاحبنا المُهندم الذي حرم نفسه من متعة ونزوة المغامرة مكتفياً بمحاولة إزالة أثارها الضارة من على ثيابه، حتى في هذه اللحظة التي لا يطيقها أي رجل حُرٍّ لا تقوى على إطلاق النار، تكتفي فقط بالثرثرة المملة وأنت تقبض على طبنجتي التي لا تصلح إلا للرجال.

أنت الوجه الأسود لطفولتي ومراهقتي، دائماً كنت الأول، وفي نظر الجميع كنت المثل الذي لا يُخطئ، المثل الذي يقدم الإذاعة المدرسية، والذي

نصطف خلفه من أجل تحية العلم، والذي لا يهرب من المدرسة، والذي لم يضبط معه سيجارة أيام الثانوي، والذي لا يشاركنا مشاهدة أفلام السكس، والمرة الوحيدة التي نجحتُ خلالها في استدراجك، انصرفت وقتها دون أن تكمل الفرجة، والذي من أجل كل ذلك كان والذي يعايرني دائماً بك كلما فشلت أو أخفقت.

بداخلي شيء ما تجاهك يا شادي، شيء لم أستطع أن أتخلص منه رغم كل هذه المدة الطويلة، لكنه بقي خافئاً وكامناً.

علمتُ بوجودك في القاهرة من خلال الصحف والبرامج التلفزيونية التي أسرفتُ في استضافتك وقتها وتقديمتك إلى الجمهور نموذجاً للشباب المصري الذي حقّق نجاحات كبيرة في الخارج، هأنت تعود وتظهر ثانية في طريقي، ليستيقظ هذا الشيء من رقاده بداخلي، شيء يشبه سلسلة سوداء طويلة تكونت حلقاتها السوداء الضيقة عبر السنين.

رغم ذلك وجدتني شغوفاً بمقابلتك بمجرد معرفتي بعودتك، كنتُ أمر بأسوأ وأحلك أيام حياتي بعد خراء يناير، أُجبرت على ترك عملي ومنزلي، تعيش أسرتي في منزل آخر في مدينة أخرى، أعيش حياتي بحس المطارد الذي فقد هيلمانه وسطوته القديمة، لكنني كنتُ أريد أن أراك، كأني سأجد لديك متعة جديدة سأسلبك إياها كما تعودتُ دائماً.

لم يخب ظني، وجدتُ لديك سلمى، أكبر متعك بالتأكيد، عرفتني عليها في البار، الفنانة التشكيلية "سلمى فؤاد". لم يحتج الأمر مني إلا لعدة ثوانٍ. سلمى فؤاد!

تذكرتها، من يعمل مثلي في الجهاز الأمني العظيم يمتلك ذاكرة بمساحة الكون، نحفظ داخلها بالمعلومات والملفات السرية ونستطيع أن نستدعيها في أي وقت، ذاكرة غير قابلة للمحو أو النسيان، الغريب أن سلمى لم تتذكرني، كثيرون من زملائي الضباط في الجهاز العظيم يُفَضِّلون أن يدخل عليهم من هم رهن التحقيق بعصاة على أعينهم، حتى تبقى وجوههم مجهولة لهم، ورغم أن ذلك مثير للخيال، إذ إن الضحية أو المتهم سيظل طيلة الوقت يخمن ويرسم في خياله ملامح هذا الضابط الذي كان يجلدته بأسئلته أو يركله في حشايه، إلا أنه دائماً ما ينتج عن هذا الخيال المريض صور مشوه ونماذج مزيفة لا تطابق الحقيقة، لأننا ليس لنا أنياب طويلة تتساقط منها الدماء مثل دراكولا، كما أننا لا نملك سوى رأس واحد لكل البشر، لذا كنتُ أفضل التعامل المباشر والواقعي بوجهي البشري الذي من حُسن حظي لم تذكره سلمى.

وقتها وضعت عدة تصورات لسرقة جائزتك الكبرى يا شادي، وهأنت قد شاهدت ذلك بأَمِّ عينك حين اقتحمت هذه الغرفة لترى غزالتك الشاردة طائعة مُروَّضة، رغم ذلك تقف وقفتك الخائبة تلك منذ أوقات طويلة دون

أن تضغط على الزناد الذي لا يقوى عليه إلا الرجال، أنت الآن تتحجج بدخول كيتي إلى المشهد، كيتي جلست مطمئنة على فخذ سلمى لأنها تعرف أنك مثل القط المدلل لا يخربش ولا يستطيع أن يحمي مؤخرة قطته من عبث قطط الشوارع الشرسة، كلنا يعرف يا شادي ماذا سيحدث إذا خرجت كيتي، لأننا شاهدنا هذا من قبل، إذا خرجت كيتي يستوجب ذلك عليك أن تطلق النار، ستهشها سلمى بعد قليل إلى الخارج وسنرى ماذا ستفعل بعدها.

لم أكن قد شاهدتك منذ ثلاثة وعشرين عامًا، لحيتك كانت طليقة وغير مهذبة، لم أتعرف إليك في البداية وأنت تقف أمامي مبتسمًا نصف ابتسامة مُسنَدًا يدك إلى الباب صامتًا مترقبًا، عيناك كانتا ساكنتين بلمعانهما القديم المُخيف.

- حازم الشناوي!

- شادي أبو المجد

ظهورك كان مفاجأة لي، قدمك السارد العليم على أنك صديقي القديم الذي يجد شغفًا لذيذًا في سرقة مُتعي الصغيرة، برهن السارد على ذلك بمشهد قديم أيام المدرسة الابتدائية:

"أخذ شادي يطارد الفراشة في فناء المدرسة، ألوانها الزاهية خطفت

عينه، ذهب خلفها إلى الحديقة الخلفية، صعد وراءها الشجرة، راح يترقبها، في غفلة منها قنصها بين قبضته، فرحته الطاغية جردته من توازنه، سقط في الوحل، نال الطين من قميصه وبنطاله.

جُزعت قدمه، لكنه لم يُفلت الفراشة، فرحته بها طغت على ألمه وعلى أزمة ملابسه المتسخة. وضع الفراشة في إناء من الزجاج وأحكم إغلاقه، ثم بدأ يراقبها وهي تحاول أن تطير داخل الإناء.

حازم شاهد الفراشة الجميلة تتقافز في الإناء، طار عقله.

في أثناء درس الحساب كان قد انتهى من نسج خطته كاملة. على باب المدرسة انتظر والدته شادي. جرى نحوها ثم لدغ "أقول لحضرتك مُصيبة. شادي سقط من فوق الشجرة. قميصه كله طين.

وضعت السيدة يدها على فمها. قبل أن تسأل عن السبب أكمل حازم. بسبب فراشة يخفيها في حقيبته.

ظهر شادي من بعيد. حين شاهد حازم يقف بجوار أمه فهم سر نظراتها الفاحصة ووقفها المتحفة. حاول أن يسير بشكل طبيعي، تحامل على نفسه، رفع الحقيبة ووضعها على ظهره من أجل أن يتخفى تحتها الطين الذي جفَّ على قميصه.

عندما وصل قبالتها كانت عين حازم تشتعل بلمعان غريب وخيف.
في غضب نزعَت الأم حقييته، أخذت تُقلب في محتوياتها إلى أن عثرت على
الإناء الزجاجي، طوّحت به بعيداً وسط بكاء شادي وصراخه، سحبت أمه
من يديه بعنف وساقته خلفها.

يتحسر شادي حين يرى حازم ينحني ليلتقط الإناء الزجاجي من فوق
الأرض، ثم يسير دون لا مبالاة.

- حكاية قديمة، تكررت كثيراً بعد ذلك، حين رأيتك رحبتُ بك،
استرجعنا ذكرياتنا القديمة حكيت لي عن معاناتك بعد قيام الثورة كونك
ضابط شرطة، اندهشت من عودتي للقاهرة في هذا التوقيت المُرّيب،
حكيتُ لك عن سلمى.

(كأنك هنا قد انتبهت إلى ما يُثير لعابك).

- شادي أبو المجد يقع في الحب أخيراً، سأراها للأبد.

خرج حديثنا إلى السياسة وأحوال البلد، لم يكن العقيد حازم الشناوي
بالتأكيد يحمل أي إشارات إيجابية لثورة يناير، مؤامرة خارجية، ثورة رعا،
الفوضى في كل مكان، البلد على حافة الإفلاس، انعدام الأمن، التيارات

الدينية ستلتهم التوراة، البلد لها أسيادها. بالتأكيد كنتُ أراعي حالتك النفسية السيئة التي تمر بها، بعد ذلك قدمتك لسلمى في البار كصديق قديم، أنا أذكر يا سلمى شجاركما وعراككما الدائم في البداية، وهو صدام طبيعي تمامًا بين ثورية عتيدة وضابط أمن دولة يعيش في الظل خوفًا من تصفية حساباته القديمة بعد أن فقد برستيجه وهيبته.

كنتِ تقولين لي إن هناك في وجهه ما هو غير مريح.

على أن حدة هذا الخلاف بينكم بدأت تخف وتيرتها رويدًا رويدًا خاصة بعد أن وصل الإخوان إلى الحكم.



أيامًا وليالي طويلة أقامها الدرويش داخل خيمته أمام باب سيده الغسيل، لم يكل من الطرق، ولم يمل من الانتظار، كأن وقوفه أمام بابها أصبح غايته، ديدنه وعادته، كأنه يترقى في مقامات العشق، وصولاً إلى مقام الفتح العظيم، حينها ستبدأ مقامات وحالات أخرى.

بدأ يسجل أسماء وهبها لها على بابها الخشبي العتيق، فهي سيده الأزمان، السلطانة، صاحبة باب الفتوح، ذات الروائح، ملكة الحواس، عربة البهجة، ذات الستر الرفيع.

لم يفقد الدرويش شغفه لحظة، ولم يراوده اليأس مرة، نحل جسده، وتورمت قدماه من الوقوف، لكنه ظل على حبه العظيم.

هذه الليلة حين انتهى من ابتهالاته التي لا تنتهي، سمع خطوها، جلجلة

خلخالها بين قدميها، رقصة أساور يديها، ثم جاءت ضحكتها قادمة من عمق الصمت الرهيب صاحبة حية مجسمة بالوعد، فأخذ الطرب، واستخفت به النشوة، حتى فَقَدَ وعيه.

طوال الليل كان سائق عربة الإسعاف ينقل أجساد المحروقين والمشوهين على إثر حريق عظيم، وكالعادة حين ذهب إلى منزله وقف زوجته على باب الحمام ترقبه وهو يغتسل، رائحة الحريق كانت نافذة من جسده كله، ظل يدعك جلده بالماء والصابون والحجر، تكتم زوجته أنفها وتبتعد بوجهها، استيقظ أولاده من نومهم على رائحة الجلد المحروق الذي يعبق أركان المنزل، لم تفلح كل أدوات النظافة وكل مساحيق الغسيل في أن تُخفف من رائحة الحريق التي تلبد في أنحاء جسده، وأمام نظرات التأفف والضييق في عيون زوجته وأولاده اضطر سائق عربة الإسعاف أن يرحل من منزله.

الراقصة ملكة البهجة وفرقتها الموسيقية أقامت على حواف المدينة، نصبت سرادقها في الصحراء، ثم بدأت تقديم عروضها للقوافل التجارية التي تسلك دروب الصحراء.

بعدها جاءها البدو بعد أن وجدوا في عروضها الساحرة ما يُخفف عنهم
قسوة الطبيعة وجفاف حياتهم، تحول سراقق الراقصة ملكة البهجة إلى
واحة عذبة تبل الريق الصلبد لساكني الصحراء والمارين بمسالكها وشعابها
الوعرة.

حين علم أهل المدينة بأن الراقصة ملكة البهجة نصبتُ سراقق البهجة
على تخوم المدينة بدؤوا يتسللون ليلاً إلى الصحراء، أول من أتى كان هؤلاء
الذين طردوها من قبل.

قوافل من السيارات الفارهة تزحف كل مساء عبر الطريق الذي أُطلق
عليه طريق الحرير، ثم تقفل عائدة قبل أن تفتح المدينة عينيها.



أنت لن تطلق النار يا شادي، أنت مُتردّد، نصف خجول، نصف جريء،
وعند القرارات الصعبة ربع حاسم، هذه طبيعتك دائماً؛ لذا من الأفضل لنا أن
تنحي هذه الطبنجة جانباً؛ لتريح ذراعك وأصابعك، هيا يا كيتي قومي من
فوق فخذي، واخرجي خارج هذه الغرفة، لأن شادي سيطلق النار، ها هي
تمر بين ساقيك يا شادي وتتمسح بحذائك، وهأنت تغلق الباب وراءها.

مساكين نحن شخوص الحكايات؛ نعيش الكوابيس حينما تغافلنا على
فراشنا، ثم حين نفتح أعيننا مذعورين لنهرب منها خلف نور الصباح
تطاردنا هذه الكوابيس ثانية في فضاء الحكاية الواسع وقد أصبحت حقيقة
نتورط فيها حتى آذاننا، يبدو أن هذا ما سيحدث داخل هذه الغرفة، الأمور
تسير في الاتجاه الذي مهدت له اليد غير المحايدة، أنت أطلقت النار كما ورد

بمخطوطة الحكاية بعد خروج كيتي التي لم تطق الصمت والسكون الكثيب داخل هذه الغرفة الحاملة والمتجمدة؛ لأن الحيوانات لا تحب الاستاتيكا.

- " الأمر المُعقد ازداد تعقيدًا، إذًا بما يُحتم ضرورة أن يمتلك أحد شجاعة تكفي لاتخاذ نقلة نوعية في اتجاه إنهاء هذا الوضع المتجمد والممتد والذي لم يعد أحد يمتلك أعصاب كافية لاحتماله.

فعلت سلمى ذلك بأطراف أصابعها ضربت كيتي على مؤخرتها. كقطة مُهذبة فهمت كيتي أن ذلك إشارة ما إلى عدم الرغبة في وجودها حاليًا، هبت سريعًا وتمطعت بجسدها ثم أخذت طريقها للخارج بعد أن تمسحت بحنو بحذاء شادي.

خطوات كيتي إلى الخارج أعادت الحيوية والحركة ثانية إلى الغرفة، سارع شادي بإغلاق الباب وراء كيتي، ثم وجد أنه من الأفضل عدم العودة ثانية إلى ذلك السكون الخانق.

تقدم خطوتين للأمام حتى أصبح في المواجهة تمامًا شاهرًا فوهة الطبنجة. أصبح الآن أكثر جاهزية، بهدوء شد شادي أجزاء الطبنجة، أغلقت سلمى عينيها. جَزَّ حازم على أسنانه.

أعاد شادي تنظيم أنفاسه في محاولة للسيطرة على حركة يديه المتوترة والمرتعشة.

أخذ يفكر على من يطلق أولاً. نظراته الزائغة تنتقل بين حازم وسلمى.

ربما حازم يستحق أن يكون هو الأول؛ لأنه هو الذي نصب هذا الفخ منذ البداية بإحكام يليق بعقيد متقاعد، وقد تكون سلمى هي المرشحة الأولى للقتل؛ لأنها تعاملت عن الفخ وذهبت إليه بخضوع غزالة وقحة أردت أن تستمتع بمغامرة مثيرة بين أحضان الصياد.

قرّر شادي أن يطلق على حازم أولاً.

الاختيار كان فقط من أجل حسم هذا الجدل الدائر بداخله دون أي اعتبارات أخرى، انفلتت الرصاصة صارخة سريعة لتستقر في رأس حازم دون أن يتعمد شادي أن ترقد الرصاصة هناك بالذات، لم يسمح ذلك بأن يكون أمام حازم وقتاً كافياً من أجل الألم؛ لأن جسده ترنّح سريعاً إلى الوراء إلى أن ارتطم بالحائط خلفه.

كتمت سلمى صرخة كادت أن تنفلت خاصة بعد أن تناثرت بقع دماء على كتفها وفخذها العاري، لم تقوَ أن تنظر إلى حازم، وضعت رأسها بين ركبتيها، ثم انتظرت مصيرها بخضوع تام.

مسح شادي عرقاً كثيفاً تصبَّب من كل مسامه، حتى أن الرؤية أصبحت بالنسبة له غائمة وغير واضحة، أخذ يفرك بعصبية فروة رأسه. كان يشعر بغثيان شديد وبرغبة مُلحة في القيء. رغم ذلك أخذ يُجاهد نفسه من أجل أن يُوجِّه الطبنجة ناحية سلمى.

مرَّ وقت طويل دون أن يطلق. وقت يكفي لأن يسترجع شادي في ذهنه تفاصيل ثلاثة أعوام مرت منذ أن التقى سلمى ببرلين لأول مرة في إحدى قاعات الفن التشكيلي بعد دقائق قليلة من تنحي مبارك. وصولاً إلى هذا الموقف الشائك الذي ساقه إلى القتل منذ قليل ويضعه الآن على المحك.

سلمى كانت قد غفَّت خلال هذا الوقت الطويل الذي لم يقدره أحد، والذي أعقب إطلاق النار على حازم. أسندت رأسها على الحائط ومددت جسدها العاري بجوار جثة حازم.

في غفوتها تلك، تذكرت لوحتها اللعينة "سقطعة البجعة" التي أحرقتها منذ عدة أيام. هذه اللوحة التي نبتت فكرتها هناك في برلين والتي استوحتها من سقطتها أمام شادي بعد دقائق من تنحي مبارك، لكنها ظلت دائماً استشرافاً وقرأة مبكرة لكل هذا السقوط الذي طال الجميع بعد ذلك وصولاً لتلك اللحظة الحاسمة.

رصاصه طائشة خرجت فجأة ودون قصد من شادي ربما بسبب ارتعاشه يديه وعرقها. نخرت الرصاصة الحائط، هبت سلمى من غفوتها على إثر ذلك، لم تكن فرعة أو خائفة، كانت فقط ترتعش كبجعة مسكينة تتوق للخلاص.

نظرت إلى شادي الذي كان يرتعد وهو يوجه فوهة الطبنجة إلى الأرض. تحسست جسدها، ثم غفت ثانية.

الرصاصه الطائشة كانت كافية تمامًا لتلهم شادي الشجاعة اللازمة لإطلاق واحدة أخرى صائبة استقرت بالجانب الأيمن لسلمى، بيد أن سلمى لم تستيقظ من غفوتها.

التزم شادي السكون لحظات، أغمض عينيه وابتلع ريقه بصعوبة لم يقوَ أن ينظر ناحية سلمى، التي ظلت تنزف في سكينه.

بعدها انسحب من الغرفة بهدوء، أغلق بابها حتى لا تتسحب كيتي إلى الداخل، دخل إلى المرحاض، شعر بدوران عنيف، على جدارية الحمام شاهدَ بدقة تفاصيل المشهد الذي كان منذ قليل أحد عناصره، رأى ملامح وجهه الجامدة حين أطلق النار على سلمى، كما راقب وجه سلمى حين استقرت الرصاصه بأحشائها. شاهدها تنظر ناحيته، لم يلاحظ نظرتها تلك عندما

أطلق رصاصته الثانية. الآن يراها تنظر إليه. ليست نظرة انكسار كما كان يظنُّ. تنظر إليه نظرتها القديمة. نظرتها الحاملة الشائرة دوماً. عينها تتجلى فيهما الحقيقة الكاملة. دائماً ما كان يشعر أنها أقوى منه، حتى في هذه اللحظة وهي تترنَّحُ قبالة.

كيف رغم ذلك نفذ حازم إليها؟

لماذا استسلمت وفتحتُ بابها له؟

شعر شادي بإعياء شديد، أفرغ ما في بطنه، أخذ حماماً بارداً، خرج من الحمام وهو يرتعد بشدة، شاهد كيتي تحمش باب الغرفة الساكنة بمخالبها. ألقى شادي عليها نظرة أخيرة ثم غادر الأتيلية متوجهاً إلى قسم قصر النيل.

ـ هل ستفعلها يا شادي الآن أم ستبقى متردداً كعادتك؟

لا تخف يا شادي، أنت لن تستطيع أن تطلق النار، لأنك رجل هسٍّ، لم تستطع أن تواجه فشلك الزريع هنا في القاهرة، حملتني أنا مسؤولية كل ذلك، كما حملتني مسؤولية هذا الجنين الذي نبت في أحشائي، أنت أيضاً لم تستطع أن

تحمي امرأتك من محاولات صديق عمرك لاصطيادها، لذا أنا أعرف أنك لن تستطيع أن تنهي هذا المشهد الممل الذي يحدث داخل هذه الغرفة، وكتزجية للوقت الطويل الذي يمر علينا دون أن نشعر في هذه الغرفة، يمكنني أن أقطع الآن فقرات قصيرة مما ورد بالمخطوطة في هذه المنطقة من الحكاية عقب وصول الإخوان وهي فقرات مختصرة بتصرف لا يؤدي إلى خلل:

- بطبيعة الحال لم يكن شادي يدرك كثيرًا مما يدور حوله بحكم غيابه الطويل في برلين، وبحسّ ليبرالي محض كان يرى أن صندوق الانتخابات هو الذي جاء بالإخوان إلى الحكم، وأن الشعب الذي اختار عليه أن يتحمل نتيجة اختياراته. ومن ثم كان مندهشًا من هذا الانزعاج البادي على وجوه الجميع.

(السارد موضحًا وجهة نظر شادي بعد وصول الإخوان للحكم).

- الإخوان يقومون بترتيبات وإجراءات مريبة من أجل السيطرة على كل مفاصل الدولة.

(حازم إلى شلة البار).

- "ساحوا شاكر عودة يا بنتي؛ لو كتتم مكانه ربا لعقتم الأذية".

(عمو لبيب إلى سلمى).

- على المقهى كان المناضل اليساري الدكتور شاكر عودة يوضح للجالسين وبينهم شادي وسلمى وعمو ليب أن وصول الإخوان إلى الحكم مثل شربة خروج على المصريين أن يشربوها حتى ترتاح أمعائهم بعد ذلك أو لا ترتاح إلى الأبد.

- سلمى توضح لشادي خطورة أن تجثم التيارات الدينية على قلب بلد بحجم مصر.

- ماذا أفعل لو أغلق الإسلاميون البار؟

(نجيب أذى البارمان العجوز).

- تسرح بمسابح في الحسين يا نجيب.

(نزار بسخريته اللاذعة ردًا على سؤال البارمان العجوز).

- اطمئن. ستعصر خمرًا، وستقدم زجاجاتك للشاربين. لن يغلق الإخوان أو السلفيون البارات والملاهي. ستفرض المواءمة قوانينها. قد يشترطون أن يُبنى مسجدٌ أسفل البار أو الملهى، وألاً يفتح البار أبوابه إلا بعد صلاة العشاء.

(شاكر عودة إلى البارمان العجوز تعليقًا على سؤاله السابق).

- الشباب هم الذين قاموا بالثورة. وهم أولى بشمارها.

(رئيس الوزراء المصري في عهد الإخوان إلى وسائل الإعلام بعد لقائه بشادي).

- يجب أن نعود إلى برلين يا سلمى، هم يتاجرون بي ثم لا شيء سوى هذا المكتب الكئيب في مركز البحوث.

- أنت رجل هش يا شادي

(مكالمة تليفونية بين شادي وسلمى تلاها صدامٌ حاد).

- أنتِ المبتدأ يا سلمى وربما أنتِ الخبر الذي تنتهي به جملةتي.

(جملة نحتها شادي كذكرى بأسنان مفاتيحه على حافة سرير سلمى

بعد لقاء حميم عقب تصافيهما).

- حازم يغيب كثيراً وحين يأتي إلى البار يأتي متخفياً، كان يشعر بالقلق من

تصفية الإخوان لحسابات قديمة معه قبل الثورة.

(السارد عن قلق حازم بعد وصول الإخوان للحكم).

- متفائل بمشروع الإخوان وأظنُّ أن التجربة الإسلامية لديها الكثير لتقدمه إلى هذه المنطقة بعد أن عانينا من فساد الرأسمالية وتسلط الاشتراكية.

(افتتاحية مقال يوسف يوم ١٥ أكتوبر ٢٠١٣ بعد شهرين من وصول

الإخوان للحكم).

- اشرب كثيرًا / ترَ الوجود جميلًا يا أبا كرما.

(حكمة نزار الخالدة).



حين انتهى الكيميائي من تركيبته الجديدة التي استغرقت منه جهداً كثيفاً، والتي ستحيل حبتي الليمون النابتتين على استحياء على أرضية صدر الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة إلى رمانتين ناضجتين عبأها في وعاء زجاجي، وذهب في الصباح ناحية النهر، وجد الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة تجلس قبالة النهر بحزنها العميق بعد أن انتهت من طقسها اليومي، جلس جوارها، ربت على كتفيها الصغيرتين مبتسماً، أشار إلى وعائه، هزأت الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة رأسها، قال لها: ستطرح حديقتك رمانتين عامرتين.

الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة لم تصدق ذلك، رغم ذلك راودها شعور بسعادة طاغية أن هناك من يهتم بقضيتها العادلة في أن تمتلك صدرًا

يانعًا ناضجًا، لذا استجابت للكميائي، استلقت على ظهرها، وباعدت بين ذراعيها باسترخاء، أخذ الكميائي يربت على كتفيها بتركيبته وعجيبته الجديدة وهو يراقب ابتسامتها الخجول.

أمل عظيم بدأ يدغدغ صدر الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة والكميائي يعبث به بأطراف أصابعه.

ظهيرة اليوم كنتُ مع فاتن في الجزيرة، راغتُ مني كعادتها، جريتُ خلفها، كانتُ تتخفى مني وراء الأشجار، وبين الأعشاب الطويلة، حينما وجدتُها كامنة خلف شجرة حاولتُ أن تجري ثانية، أحطتها بذراعي، كانتُ في متناولي، ظننتُ أنني الآن بإمكانني أن أروضها بين يدي، لكنها فجأة سألتني:

- لماذا نفيت سلطان بعيدًا؟

سائق عربة الإسعاف ومنذ أن ترك بيته يلازم ماء النهر، سكن النهر تقريبًا، يدعك جسده بالماء والطحالب وريم النهر وأسماكها التي يجدها بين

يديه، لكن رائحة الحريق لم تفارق جسده، حين خشي الناس على النهر قاموا بطرده، فأخذ يجري وهو ينشب أظفاره في جلده يحاول أن ينزعه من على جسده.



العلاقة بين العجوز ممسوح الذاكرة والصبي المراهق تحولت إلى علاقة صداقة مدهشة، صباحًا يمر الصبي المراهق على بيت العجوز ممسوح الذاكرة يساعده في تناول أدويته، ثم يتبادلان الحديث، يحكي العجوز ممسوح الذاكرة عما يخطر على باله من وقع ما تبرق به ذاكرته حينها من حكايات وذكريات قديمة عادة ينسى أغلب تفاصيلها وأسماء شخوصها، فيخرج إلى حكاية أخرى، ويظل (يلضم) حكايات في أقوال، يضحك الصبي المراهق على معظمها، في المساء يصحبه الصبي المراهق إلى المقهى، يمران أسفل شرفة سيدة الغسيل دون أن يتذكر العجوز ممسوح الذاكرة أنه قد مر من هنا يومًا، ولا أن قطعة غسيل ساخنة قليلة الحياء قد سقطت على رأسه وأنقذته قليلًا من الملل، كما أن الصبي المراهق يمرّ محايدًا تمامًا من غير أن تنتفخ غريزته ودون أن تتصب حواسه.

لا بد أن ينتهي ذلك الآن، صدقوني أعصابي لم تعد تتحمل مزيداً من التوتر، لم يغمض لي جفن منذ عدة أيام. أنتم أصدقاء مزعجون، وخطئي الكبير أنني قد سمحتُ لنفسي منذ البداية بأن أشارككم هذا العبث، تعاملتُ معكم دائماً بحنو بالغ، كنتُ أقتطع من وقتي كي أشارككم همومكم التي لا تنتهي، وأوقات صفائكم النادرة، شغلتُ ذهني كثيراً بالتفكير في هواجسكم.

كثيراً ما كنتُ أحاول أن أصلح بينكم عندما تصل الأمور إلى حدّ الصدام، أتدخل في اللحظات الفاصلة والأوقات الصعبة لأوضح لكم خطورة الموقف، وما تقتضيه الحكمة من أجل الخروج بأقل الخسائر.

هكذا رجوتُ شادي كثيراً ألا يأتي إلى هنا، وإن جاء لا يطرق الباب، وإن طرق لا يدخل، لكنه جاء وطرق ودخل، فساقتنا جميعاً إلى تلك المعاناة

رغم أن الأمور كانت على وشك أن تنتهي بما يضمن راحتنا جميعاً، وهو ما لم يحدث.

وكعادتكم تطرقون بابي عندما تصل الأمور إلى حد الورطة، وكعادتي أشغل ذهني كصديق مخلص في البحث عن مخرج، فأجد نفسي متورطاً معكم، كما حدث هذه المرة.

ربما كنتُ أفعل ذلك في البداية بشيء من المتعة، لكن مع مرور الوقت تحول ذلك إلى عبء ثقيل يستنزف طاقتي ويفترس أعصابي، من أجل هذا أتمنى أن ينهي كل شيء الآن ودون إبطاء، لن أترك هذه الغرفة قبل أن أضمن تنفيذ هذا، أنا طرحتُ عليكم الخيار الوحيد الذي يمكن أن ينهي كل ذلك، وهو ما تماطلون في تنفيذه حتى الآن، رغم أنه استغرق مني ساعات طويلة وعبوات عديدة من الحبوب المهدئة التي أصبحت عادة إجبارية منذ أن تورطتُ معكم منذ البداية.

الأوضاع المعقدة هنا والمتجمدة منذ ساعات أو أيام عديدة ليس لها سوى هذا المخرج. أن يطلق شادي رصاصاته، وأن تتقبل سلمى وحازم تلك الرصاصات بصدر رحب.

لم أفكر في خيارات أخرى حتى الآن، ولم تطرحوا أنتم حلولاً بديلة يمكنها أن تُنهي هذا الوضع المتجمد، اكتفيتم بتجميد الأوضاع على ما هي

عليه، سلمى وحازم عاريان على الأرض وملطخان بالرديلة، وشادي يقبض على الطبنجة في مواجهتهما لا يملك شجاعة كافية من أجل أن يُنهي هذه المهزلة كما ينبغي لفارس نبيل، كأن ذلك يمكن أن يستمر إلى الأبد.

أصدُقكم القول، كنتُ أشعر بإثارة مجنونة منذ أن دخلتُ إلى هذه الغرفة، رغم أنني كنتُ متحفظاً على ذلك منذ البداية، لأنني أعلم بمدى حجم الورطة التي نعانيها الآن، لدينا في هذه الغرفة تفاصيل مدهشة، إلا أنها لن تقودنا إلا لهذا الخيار الذي ترفضونه، لدينا هنا في سياقنا هذا:

(رجل شرقي - حتى وإن قضى نصف عمره في أوروبا- مطعون في كرامته + حبيبة خائنة + صديق تعود أن يسرق مُتّع صديقه القديم + فراش مُبعثر + مبلل بسوائل لزجة + كوندوم مُلقى على الأرض باستهوار واضح + طبنجة محشوة بالرصاص + ليل ساكن ينتظر مزيداً من الإثارة + حجرة مُغلقة على كل هذه التفاصيل).

ما الذي يمكن أن ينتج عن كل هذا؟

كل هذا يساوي = صوت طلقات متتالية لا تتوقف إلا حين تفرغ الخزانة / صرخات مكتومة (ربما من الحياء) / دماء متناثرة هنا وهناك / أصوات حشرة مُتّعجلة / جثتان عاريتان ترقدان بسلام / رجل شرقي يشعر

بالرضا وهو يتوجه إلى أقرب قسم شرطة (وهو هنا قسم قصر النيل) ليسلم نفسه كبطل شعبي.

لن ينتج عن هذا سوى ذاك.

يتوهم البشر دائماً أن بإمكانهم التدخل في الوقت المناسب لإيقاف عجلة الانحدار التي وضعوها بأيديهم على حافة المنحدر ثم ركبوا ظهرها منتظرين يد الريح التي ستدفع العجلة بقوة، يبدو ذلك مثيراً في البداية، لكن ماذا يمكن أن ينتج عنه سوى السقوط في القاع؟

من يستطيع أن يدعي أن بمقدوره أن يوقف هذا السقوط الوشيك؟
النتيجة واحدة لا يمكن تغييرها؛ لأن السياق يجرفنا أمامه كأكياس فارغة من البلاستيك إلى حيثما يريد.

لماذا تُحمّلونني مسؤولية ذلك؟

البطولة دائماً للسياق.

أطلق يا شادي النار الآن، قد يبدو ذلك مخيفاً، لكنه عمل سهل للغاية،
هو يحدث دائماً في كل وقت وفي كل مكان على سطح هذه الأرض، القتل أصبح مثل لعبة عادية لا تستوجب حتى غسل الأيدي.

القتل تراث إنساني قديم يا صديقي، حدث بعد أيام قليلة من هبوط آدم
الاضطرابي على الأرض، الله علّم قابيل أن يُواري سوءة أخيه، كان ذلك
مرعباً بالطبع، الآن يحدث ذلك ونحن نتبادل سجائرنا.

هناك من يقتل دائماً، من أجل الوطنية، أو من يقتل بدافع نشر السلام على
الأرض، أو حتى من أجل إعلاء كلمة الله.

تعددت الأسبابُ والقتل واحدٌ.

اقتل أنت يا شادي من أجل هدف نبيل آخر.

من أجل أن تنتهي الحكاية كما ينبغي لها أن تنتهي.

فقط أفلت الزناد.

عليك يا حازم أن تستقبل ذلك بهدوء، وأن تسند رأسك التي سيثقبها
الرصاص إلى هذا الحائط خلفك، لترقد بسلام.

رجاءً يا سلمى ألا تحاولي النظر باتجاه شادي، قد يفسد هذا الأمر كله،
يمكنك أن تضعي رأسك بين ساقيك في انتظار أن يهديك شادي موتاً مريحاً.

هيا يا شادي، لم يعد في إمكاننا أن نتحمل مزيداً من المعاناة أو حتى
الإثارة.

افعلها الآن يا صديقي.

- ٥٣ -

لم يجد سائق عربة الإسعاف حلاً لرائحة الحريق التي تفوح من جسده
والتي تسببت في نفور الناس منه حد أنه قد تَرَكَ بيته وهجر زوجته وأولاده
سوى أن يعمل بائعاً للعطور.

حيث افتتح محلاً صغيراً للعطور، ياسيمن وفل وزنبق ونرجس ريحان
وقرنفل، زعفران، وبابونج، ربما تشكل هذه الروائح ستاراً نافذاً يمنع رائحة
الحريق من أن تتسلل إلى الناس.

ظل سائق عربة الإسعاف ينادي على بضائعه من أجل أن ينسى الناس
مهنته القديمة.

كان يلوح بزجاجات العطر وهو يقول للعابرين: أنا بائع العطور.

لكن الناس كانوا يمرقون من أمام دكانه الصغير سريعاً ودون أن يحفلوا
بالنظر تجاهه، فقط كانوا يسدّون أنوفهم، ثم يبتعدون.

استفاق الدرويش من نوبة سكره وغيبوته على لحظة العظيمة التي
انتظرها طويلاً، لحظة الفتح العظيم، تجلّت له سيدة الغسيل على زجاج
الباب فأنارت روحه.

واصل الطرق، أنا سيد المداحين، نذرت ما تبقى لك، جعلتُ إنشادي
وقفاً عليك، فافتحي أبوابك، وتقبليني بين يديك.

واصل الدرويش ابتهالاته واستغاثاته، مر زمن طويل، لم يحسبه أحد،
الدرويش لم يمل من الطرق والابتهاال باسم سيدة الغسيل، يقينه لم يترشح
بأنها ستتجلى له ذات لحظة صافية.

هذه الليلة سمع تكات بابها في أثناء رقاده، هب واقفاً وهو يتحسس
إن كان في حلم أو يقظة، أخذ يخطو خطوات مرتجفة نحو الباب المفتوح،
قلبه يرتجف وهو يقترب، يتشمم رائحتها، ترتعش أوصاله، يسمع صوت
أساورها وحليها، يخطو ويخطو، يجتاز مسافات ومسافات في الداخل،

كلما اقترب يبتعد، وكلما يبتعد يقترب، رغم ذلك كان يُمني نفسه بوصول قريب.

لعدة أيام ظل الكيميائي يراقب زريعته التي نشرها بأرض الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة، عند النهر تكشف له الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة عن حديقته الموعودة بالثمار الناضجة، لكن ذلك لم يحدث، عجينة وتركيبه الكيميائي التي ابتكرها من أجل أن تنمو حبنا الرومان مكان الليمونتين، لم ينتج عنها سوى أرض قاحلة تمامًا، كأن تركيبته كانت للقلع لا للزرع، للمحو لا للخلق.

تحول صدر الفتاة التي كانت ذات الصدر بحجم الليمونة إلى صحراء جرداء، وبدلاً من أن تنتفخ وتستدير حبنا الليمون وتتكوران إلى رمانتين، انفثأتا كبالونتين وسط دهشة الكيميائي، وصدمة الفتاة التي كانت ذات صدر بحجم الليمونة.

لعدة ليالٍ لم تظهر فاتن في شرفة غرفتها، كما لم تذهب للجزيرة من أجل لقائنا اليومي بعد الظهر، كدتُ أفقد عقلي، لماذا تعاقبني لبؤتي الجميلة التي صنعتها بالغياب؟

انتظرتُها قُرب مقر عملها بالمشفى، ساعات تمرُّ وأنا كامن مترقب ظهورها،
يشغلني السؤال، لماذا أنا مأخوذ بها بهذا الشكل؟

وهل المصير الذي آلت إليه حكاية سلطان مرتبط بشغفي بها؟
رأيتها قادمة بمشيتها اللعوب تحتضن معطفها الأبيض، يا ملكة الرحمة،
تغمدينني برحمتك، ليشفع لي تعبى في صنعك وجهدي الذي نزفته في تهيئتك
لبؤة فريدة يُحَرُّها كل أسود الغابة صاغرين.
أشاحت بوجهها بعيداً عندما رأيتني قادما نحوها، لاحقتها، سألتها عن
سرِّ هذا الغياب.

لم ترد، حين ألححتُ عليها بالسؤال، لطمتني بالتساؤل:
- سرِّ غيابي أنا أم سر غياب السلطان؟



- ٥٤ -

ذروة الحكاية هي أعلى نقطة في قمة جبل السرد، وصول الشخص لتلك الرتبة العالية من الحكاية، يعني أنهم باتوا مُهيئين لرؤية مصيرهم القادم من عل، ربما لن ترى شيئاً في البداية، الضباب كثيف دائماً هناك في الأعالي، غَبْشٌ حين ينقشع، سيبدو لك الأمرُ جلياً كنور الصبح الوهاج، حد أنه سيلحس ناظريك، لتنبج العتمة ثانية من هذا الضوء الفج، حينها لن ترى موضع قدميك، ستزلق حتماً، تهوى إلى هذا المنحدر السحيق الذي عند نهايته سيحدث الصدام المروّع، يتشظى لحظتئذ الحدث ويتناثر، تمهيداً لهذا السكون النهائي الذي سيحل على الجميع في ختام الحكاية.

في ذروة حكايتنا يا شادي حدثت أحداث فارقة، ربما هي التي جعلتنا فيما نحن فيه الآن، ربما كان بدايتها سقوط عمو لبيب بين أيدينا فجأة وبشكل أقرب إلى العبث.

... "عند المغرب مرّت سلمى وشادي على عمو لبيب في منزله، أخرج لهما ألبوم صوره القديمة، صورة له في المدرسة الابتدائية بالجاكت والطربوش والبنطال القصير، صورة له مع عبد الناصر حين زار الزعيم شركة التأمين التي يعمل بها لبيب.

كان ذلك قبل أن يموت ناصر بأشهر قليلة، أخذتُ تصريح إجازة من الجيش عشرة أيام من أجل الزواج، ذهبتُ إلى الشركة لأدعو زملائي إلى حفل الزفاف، كان ذلك من حُسن حظي لأقابل الزعيم، تشعر بمواجهته أنك تقف أمام هرم ضخّم، رغم ذلك لا أعرف حتى الآن هل أحبُّ هذا الرجل أم أكرهه؟

هذه صورة حفل زفافي، هذه زينب الله يرحمها، جميلة... ها، تينة طرية من يوم ما خالتي ولدتها لغاية لما ماتت.

صورة أحمد ابنه المهاجر إلى كندا.

- من عشر سنين ما شوفتش الواد أحمد، ربنا يكتب له السلامة.

صورة أخرى له ببدلته العسكرية على الجبهة مع رفقاء سلاحه.

- كلهم ماتوا، إليّ ما ماتش في الحرب، طحنته الأيام، رحمة الله على الجميع.

يغلق ليبب ذكرياته القديمة، ينظر لسلمى وشادي بعين صافية، لا تؤاخذاني، الناس العواجز لا يتبقى لها إلا الروائح القديمة.
يضغط على بخاخة الربو، يستنشق ويسعل.

استأذن منه شادي وسلمى من أجل الذهاب للمشاركة في تظاهرة عند نقابة الصحفيين للتضامن مع بعض الصحفيين المقبوض عليهم، فاجأهما ليبب بأنه سيذهب معهما، لم تجد محاولتهما في ردّه عن قراره الغريب، قال: إنه يريد أن يخرج، يشعر بالاختناق هنا.. رائحة الغاز يا عمو ليبب، يسعل بشدة، يضحك.. لم أعد أخشى رائحة الغاز.

هكذا سقط منا عمو ليبب يا شادي وهو يقف بيننا على سلم نقابة الصحفيين، هكذا فجأة خرّ ساقطاً بين أيدينا، كنا نعتقد أنها أزمة الربو، لكن دمائه كانت تلتخ تشيرته المونتيجو القديم كما تلتخ أيدينا، حتى الآن لم نعرف كيف حدث ذلك، من فعل ذلك كان سؤالاً أكبر من طاقتنا على الإحاطة به، ذكر السارد أنها رصاصة غامضة، كثيرة هي الألغاز الغامضة في حكايتنا يا شادي، لكن ابتسامة عمو ليبب وهو يودعنا كانت واضحة وصافية، كأنه قد تُصالح مع أيامه، الآن أدركت لماذا جعل السارد عمو ليبب يُقلّب في ذكرياته القديمة، كأنه سيأخذ هذه الروائح القديمة معه، هي آخر ما سكنت صدره الذي أرقته الروائح، السارد فيما يبدو يؤمن بالإشارات والعلامات القدريّة.

أتوق الآن أن تنظري إليّ يا سلمى، أتوق أن ألمس هذا التوهج ثانية في عينيّك، ربما حتى لا تنهار مقاومتي وأفلت رصاصاتي.

ما نحن فيه لا بد أن ينتهي في وقت ما، وربما سنظل خالدين في هذه الغرفة.

هل تسمعان وقع هذه الأقدام؟

ما زال هناك من يتحرك في هذا العالم، أنا تركتُ باب المرسم مفتوحًا، لم أكن أتوقّع هذه المفاجأة حين جئتُ، هذه الأصوات بالخارج تبدو مألوفة لنا، ربما هم شلة البار، جاؤوا يتحسسون غيابنا الطويل، أظنُّ أنه لا داعي للانزعاج، ليس هنا ما ينجّل، هم أصدقاؤنا على كل حال، وربما كانوا على علم بما يحدث في الخفاء، أنا المغفل الوحيد، وربما اسم بار "الديك الذهبي

" قد خطر على بال صاحبه اليوناني حين أسَّسه في القرن الماضي لعلمه أن
ديكًا غير مهذب سيتمطي ظهر دجاجة صديقه في القرن الذي يليه، أنا الآن
خفيفٌ لدرجة تجعلني أرى ما لم أكن أراه.

يمكننا أن نميز أصواتهم في الردهة بالخارج، يوسف، نزار، حتى نجيب
أذى نادل البار العجوز قام أخيرًا من فوق كرسيه العالي الذي يراقب من
عليه ما يحدث في الصالة وجاء إلى هنا، العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام،
أنا لا أدري إن كانت قد تغيرت هياثهم، أصابهم العجز، انحنت ظهورهم؟
ربما، نحن لا نعرف كم لبثنا في غرفتنا هذه.

لطفك يا الله! هذا مرعب، بل هذا مدهش، أستمعين يا سلمى ما أسمع؟
صوت عمو لبيب بالخارج، بالتشيرت المونتيجو الأزرق الذي تلتطخ بدمائه
على سُلَّم نقابة الصحفيين، دائمًا ما كان يرتدي عمو لبيب أثناء الحكاية هذه
الماركة من التيشيرتات التي كانت رائجة وشهيرة في وقت من الأوقات، عمو
لبيب جاء من الموت خصيصي من أجل أن يشاركنا هذه اللحظة الفاصلة من
حكايتنا.

لا داعي للخجل من عُريكما، نحن أوشكنا أن نكون تماثيل من الشمع،
والتماثيل العارية لا تتجمل ولا تثير غريزة أحد، على كل حال ووصلهم إلى

هذه الغرفة سيكون مفيداً ونحن ننبش جسد حكايتنا، هم شركاء حكايتنا،
ضحهم السارد في عروق الحكاية حتى تستعيد حيويتها، كما أن دخولهم إلى
هذه الغرفة الساكنة الصامتة منذ ما لا نعلمه قد يقضي على هذه الاستاتيكا
الباردة، ينبغي أن نُرحّب بهم في هدوء.

*عمو ليب،

تعرفنا إلى عمو ليب أولاً في المقهى بوسط القاهرة، كان ذلك عقب
وصول شادي للقاهرة بأسبوع، الأحداث في القاهرة كانت محدمة، على بُعد
أمتار من المقهى كانت المظاهرات تطالب المجلس العسكري الذي فوّضه
مبارك لإدارة شئون البلاد بتسليم السلطة، وهو ما لم يحدث، عمو ليب لم
يكن يهتم شيئاً من ذلك، كل ما كان يشغله أن يجد أدوية الربو المستوردة
بسهولة بعد أن تسببت الأحداث في وقف الاستيراد من جانب وفي زيادة
حدة أزمة الربو من جراء رائحة الغاز الذي كان يُستخدم في فض المظاهرات
من جانب آخر، عمو ليب كان يعيش وحيداً بعدما توفيت زوجته وبعدها
هاجر ابنه الوحيد إلى كندا، كان قد تجاوز السبعين، يقضي معظم أوقاته على
المقهى، كنا نلتقيه على المقهى، وأحياناً كنا نزوره في شقته القديمة بشارع

طلعت حرب والتي يستأجرها من شركة التأمين التي كان يعمل بها منذ أن كان موظفًا صغيرًا، عمو ليبب هكذا كنا نناديه كان يخشى أن تقتله رائحة الغاز التي تتسلل إلى داخل شقته فيموت وحيدًا، لذا يفضل أن يأتي للمقهى منذ الصباح.

*"كنتُ أفضل أن أموت وسط الناس، الربو مرض لعين، يقتلك في اليوم مائة مرة، كنتُ أظن أن أزمة ربو قاتلة ستغافلني وأنا نائم، دائمًا كنتُ أتخيّل أن الربو له يدان نحيلتان تنتهيان بأظفار طويلة حادة مثل أيدي الأشباح، تلتف حول عنقك، ثم تضغط وتضغط، تعنصر أنفاسك بهدوء، كثيرًا ما التفتُ هاتان اليدان المخيفتان حول عنقي، لكنني كنتُ دائمًا أنجح في دفعهما بعيدًا، رغم ذلك أظن أنهما قد تفعلانهما في ليلة ما، وستتركانني وحيدًا على سريري، جسدًا أزرق يطل الفزع من عيناه المتحجرة، وبعد أسبوع سيكتشف الجيران خبر موتي، حين تتسرب إليهم رائحتي النتنة، أنا قلت لك يا شادي ذات يوم: إن أكثر ما يزعجني هو أن يشم أحد رائحة موتي، من أجل ذلك فضّلتُ أن أموت على سلم نقابة الصحفيين بجوار أحذية الناس، هذا أكثر ونسًا عند الموت.

آراء عمو لبيب لم تكن تعجبك يا سلمى، كانت تتعارض مع ثورتك المتأججة، كان دائماً يرى أنه لا فائدة، وأن تلك الثورة لا جدوى لها، وأن مبارك كان يجب أن يظل فوق مقعده حتى يموت.

بحدة كنتِ تهاجمين أقواله، وتتهمينه هو وجيله بالسلبية.

كنتُ أضحك كثيراً حين ينقركِ فتقرينه في سجال لا ينتهي، يشبه عراق دجاجة ثائرة مع ديك عجوز يضع بخاخة الربو في فمه، عمو لبيب يسعل أخيراً في النهاية، أنتم جيل لا تستمعون إلا لأنفسكم، ثم يضغط على بخاخته، هكذا دائماً كان يغلق باب العراق.

أنا بالفعل كنتُ أتهمُ جيل عمو لبيب بأنه يتحمل مسؤولية كبيرة عما وصلت إليه الأمور في هذا البلد عبر العقود الماضية، دائماً كانوا يتعللون بأنهم يمشون داخل الحائط من أجل أن يربوا أولادهم ومن أجل لقمة العيش، على أنهم تركوا السيارة التي تكوروا بداخلها تسير إلى الحافة أمام أعينهم دون أن يجرؤ أحدهم أن يصيح في السائق الأرعن ليتوقف، اكتفوا بالصمت الرهيب.

أنا أتذكر حينما زرنا عمو ليبب بشقته لنهديه بخاخين للربو، سعادته كانت عارمة بالزيارة وبالبخاخين، لكنه وقتها وجد الوقت مُهيأً ليدافع عن جيله بهدوء دافعاً عنه تهمة السلبية والخنوع وهو ما جعلني أحبه كثيراً بعد ذلك.

"... ست سنوات كاملة قضيتها على الجبهة أنا وكثيرون غيري، منذ حرب العام السابع والستين إلى حرب السادس من أكتوبر، نُواجه الموت كل يوم بصدور مفتوحة، واجهنا خيبة الانكسار والهزيمة بشجاعة واستطعنا أن نتخطى ذلك إلى النصر، كنا على استعداد أن نحارب إلى نهاية العالم، جيلنا تربى على الوطنية، على أغاني عبد الحليم وأشعار جاهين، لكن هناك ما تكسر داخلنا عبر السنين، ما لم تفلح حتى فواجه الحرب في تحطيمه، أنا مثلاً دهستني أقدام جنود الأمن المركزي في انتفاضة ٧٧ التي قامت بسبب جنون الأسعار المفاجئ، أو انتفاضة الحرامية كما أطلق عليها السادات، ثم كان من الصعب على هذا الجيل الذي قضى أجمل أيام شبابه في الحرب والذي كان يدفن بيديه أصدقاء له يسقطون كل يوم داخل الصحراء أن يتقبل إملاءات كامب ديفيد أو معاهدة السلام، لاحظي يا سلمى أن كل شيء في بلادنا له أكثر من تسمية، ثورة وانتفاضة، هزيمة ونكسة، كامب

ديفيد، معاهدة السلام، ضحية وشهيد، هكذا تنوّه هذه البلد دائماً عبر متاهة تلك المصلحات، مرور السنوات كان يهرسنا، أُلقي القبض على أنا والدكتور شاكر عودة عدة مرات، آخرها كان قبل مقتل السادات، وقبل أن يتحول شاكر عودة إلى آفالك كبير، لكنني أعذره على كل حال، رأيتهم بعيني هذه وهم يدخلون قضييًّا من الحديد في مؤخرته.

لُحسن الحظ لم يحدث هذا معي، شاكر عودة تم تعذيبه في كل العصور إلى أن قرر أن يرتاح ربما من آلام المؤخرة، على كل حال مات السادات، لكن عجلة السنين لم تتوقف عن دهس جيلنا، كنا نشعر بضلوعنا تتحطم تحت وطأة ما يحدث من حولنا، كل ما بنينا به عرقنا وكفاح السنين كان يُباع أمام أعيننا، يفتح عمو ليبب دولابه العتيق، هذه البيجا ما كانت من شركة بيع المصنوعات المصرية، هذا الجاكت من شركة المحلة، من صندوق خشبي يُخرج حذاءً جلدِيًّا قديمًا، يُزيل من عليه الأتربة، هذا الحذاء من شركة قديمة اسمها باتا، كنا جميعًا نرتدي مثل هذه الأحذية ونلبس من منتجات المحلة بقطنها المصري ومتانتها المعروفة.

الآن لم يعد هناك شيء من هذا... دائماً كان هناك ما يحدث حولنا، ودائماً كان يوجد ما يُباع بيننا وبين هذا البلد، هكذا بيعت شركة التأمين التي

كنتُ أعملُ بها، وخرجتُ على المعاش المبكر قبل الموعد الافتراضي بخمس سنوات، ماتت زينب زوجتي بالسرطان الذي أصبح اسمه لا يخيف كأنه صداع أو زكام، ثم حينما فاجأني سامح ابني برغبته في الهجرة لم أجد من الحجج ما يمكنني أن أقنعه بها بالبقاء.

لا لا يا سلمى، جيلنا لم يكن سلبياً، الأوضاع كانت أكبر من طاقتنا على المقاومة، تقدرّون تقولوا: إن الحبل الشَّريّ الذي كان يربطنا بهذا البلد قد تقطع، هناك من وما مزقه، ثم إننا قد وصلنا للُبِّ الحكمة الخالدة، مفيش فائدة...

"ربما الآن يا سلمى وأنت عارية بجوار العقيد تدركين مدى عمق المأساة التي تورط فيها جيلي الذي عركته الأيام، هذا المشهد على فظاظته ربما يؤكد حكمتنا الخالدة.... ما فيش فائدة، هذا المشهد يصلح كنهاية واقعية لثورة خائبة، وختاماً يليق بجيلٍ بائس.



على حافة النهر يترى الكميائي والفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة،
يبدوان في حالة من الصفاء والهدوء، يخوضان بساقيهما في ماء النهر، ترش
الفتاة ذات الصدر بحجم الليمونة وجه الكميائي بحفنة من الماء، تضحك
وهي تنفست بعيداً عنه، يطاردها الكميائي حتى يقبض عليها بين يديه، ثم
يسقطان متعانقين على وجه الماء.

كنتُ أظنُّ أن الفتاة ستمارس طقسها القديم، ستدعك صدرها بماء النهر،
لكنها تألفت مع الكميائي.

الكميائي كان شغوفاً بالليمونتين، وببذرتين غامقتين نابتتين كحبتين من
القهوة.

الآن أستطيع القول إن الكيميائي أحب الفتاة التي كانت ذات صدر بحجم الليمونة، أحبها هكذا، بعد أن أصبح صدرها حديقة قاحلة لا ليمون فيها ولا رمان.

الكيميائي فيما أظنّ لم يفعل ذلك من أجل التكفير عن الذنب بعد هذا الذي سببته تركيبته، الكيميائي أحبّ هذه الأرض المستوية وتلك الحديقة البكر كمادة أصيلة غير مُفتعلة، ليس من الغريب إذاً أن يصبح بستانياً مُحبّاً لتلك الحديقة يتعهدا بالرعاية.

أستطيع القول أيضاً إنني لم أضبط الفتاة التي كانت ذات صدر بحجم الليمونة في مثل هذه الحالة من الرضا منذ أن صنعتها على ورقي كما أجدها في تلك الساعة.



* شاكر عودة،

تلميذتي الثورية في ملاءة واحدة مع ضابط أمن الدولة الذي كان يستمتع
بإذلالي!

لا تنزعجي يا سلمى، لستُ هنا من أجل محاكمتك، كما أنني آخر من
يصلح لذلك، هذا المشهد ليس مفاجأة مروعة بالنسبة لي، سقوطنا جميعًا
في الوحل لا يمكن اعتباره مفاجأة مروعة، لا يمكن أن ترفع سيفك طول
الوقت، لن تستطيع دائماً أن تعيش الحياة فوق صهوة فرسك، ستشعر بالملل
غالبًا، لن تتحمل أعصابك ضغط المعارك المتتالية، ولن تفلح دائماً أن تخدع
رثتيك بأن تقدم لها غبار الحروب المتصاعد في جو المعارك على أنه نسائم
الحدائق حيث تحب أن تعفر فيها قدميك، ستكتشف رثتك ذات يوم أنك
كنت تخدعها، وفي كل الأحوال هم لن يسمحوا لك أن تكون هذا الفارس،

يمكنك أن تبقى فارسًا لبعض الوقت، تتلقى ضرباتهم الطائشة إلى أن يتكسر درعك، وينقص سنُّ رُمحك، ويخُرُّ فرسك من التعب، ستجاهد حتى تقف ثانية، ثم تترجل في الميدان مرهقًا ومُجردًا من أسلحتك، ستقاوم بعض الوقت، إلى أن تقع في الفخ الذي نصبوه لك.

أستطيع الآن أن أكشف لكم عن جسدي؛ لتروا بأنفسكم آثار السنين والمعارك محفورة كثرات حافل بكل ما هو قبيح.

هبشة كلب جائع هنا في فخذي اليمنى تعود إلى آخر العهد الناصري، لم يكن العقيد حازم الشناوي وقتها موكلاً بي، كان ضابط آخر له نفس الوجه تقريباً، وجوه الجلادين واحدة على مدى العصور، جسدي وقتها كان يافعاً وليناً ربما لهذا كنتُ وجبة شهية لهذا الكلب الذي أطلقوه داخل زنزاني في الظلام، لم أكن أرى سوى عينيهِ الحمراء اللتين يطل منهما الجوع حين بدأ ينهش لحمي وأنا أدفع رأسه بعيداً.

بالتأكيد لساعات الكرباج على الظهر، وخلع الأظفار، وركلات الأحذية في القضيب والبطن لا تترك عاهات مستديمة، كما أنني لشدة الخجل ومراعاة للياقة العامة لن أكشف لكم عن مؤخرتي التي تتدلى منها البواسير من كثرة تلك القضبان الحديدية التي ضاجعتني بغشم، رغم ذلك يبقى جسدي النحيف كمتحف تاريخي يجسد بصدق تاريخ هذا البلد المعاصر منذ ناصر

إلى مبارك مرورًا بالسادات، والجسد الذي كان يافعًا في معتقلات الناصرية، صار شائخًا ويابسًا في معتقلات مبارك ولن تجد فيه الكلاب ما يغيرها.

هنا يستطيعون أن يفعلوا معك ما هو أسوأ، حين كتبتُ عدة مقالات مسلسلة انتقد فيها عصر مبارك، نصحني كثيرون بالتوقف، خاصة أن هذه السلسلة حققت دويًا هائلًا وقتها، قالوا إنك تجازوت كل الخطوط الحمراء، جرى استدعائي إلى لاظوغي حيث المقر الشهير لجهاز أمن الدولة، وقتها كنتُ أكبر من أن يتم التعامل معي بالركل أو الضرب، كما أن مؤخرتي في هذه السنّ لن تتحمل أن يخترقها المزيد من القضبان، ضابط برتبة رائد هو الذي تولّى التحقيق، تعامل معي بكل لطف، وطلب لي فنجانًا من القهوة، قال لي إنهم متأكدون من إخلاصي وصدق نيّاتي، ويدركون أن السبب في انتقاداتي العنيفة يكمن في أنني لا أعرف الكثير من الظروف المعقدة والخبايا المتشابكة التي تدور في الخفاء والتي تحيط بالوطن، وفي الحقيقة أنا أعرف تمامًا ما معنى أن يقول الضابط: "تحيط بالوطن"، ولا يقول: "تحيط بالبلد".

الضابط أردف بعدها وهو ينظر لي بأدب جمّ: كنا نتوقع من قامة كبيرة مثلك أن تمد لنا يدها في مثل هذه الظروف الصعبة.

في الحقيقة لم يقدم لي الرجل عرضًا معيّنًا وقتها، لكنه قدّم لي رجاء أن أوقف المقالات على الفور، لأنهم لا يريدون مصادرة أعداد المجلة فتتخذ

المنظمات الحقوقية ذلك ذريعة لتوجه سهامها إلى ظهر الوطن في هذا التوقيت الحساس. رفضتُ ذلك بالتأكيد، هَزَّ الرجل رأسه وودعني، على الباب قال لي: عليك أن تواجه معركة صعبة من الغد.

لكن المعركة بدأت ظهر ذلك اليوم، حيث فوجئت بإنذار على يد محضر بضرورة هدم منزلي خلال أسبوعين ومتحملاً مصاريف الهدم وإلا قامت السلطات المحلية بذلك.

حين استفسرتُ عن السبب، أوضحوا لي بأنني خالفت شروط الترخيص والبناء، حيث قمت منذ عدة سنوات بعمل بشع يصعب وصفه، قمتُ بتوسيع دورة المياه!

في صباح اليوم التالي جاءني أحد أصدقائي على المقهى بنسخة من صحيفة قومية كبرى، رئيس التحرير الشهير والمعروف بولائه الشديد للسلطة في هذا الوقت خصَّص الصفحة الأولى كاملة لمقاله الطويل والحقير الذي هاجمني فيه بشدة، وكال لي تهم العمالة والخيانة، والقبض من المؤسسات الدولية لحقوق الإنسان، ومن بعض الرؤساء العرب الكارهين لمصر، كما عرض صوراً لما زعموا أنه شيكات بنكية قمت بصرفها، ولم ينسَ أن يعرض صورة من محضر الهدم، مع صورة للمنزل.

أنهى الرجل مقاله بعبارة توضح أن كل ما سبق هو مجرد قرصة أذن، وأن

هناك المزيد من الفضائح ما زالت في الجراب لكننا نقدر للرجل - الذي هو أنا - عطاءه الفكري والأدبي، وإذا عُدتُم عُدنا.

في الحقيقة توقفتُ عن نشرِ المقال القادم بناءً على نصائح وضغوط من المقرين، كما توقفت عن كل شيء؛ لأنني كما قلتُ لكم، لن تستطيع دائماً أن تعيش الحياة فوق صهوة فرسك.

نعم أنا فعلتُ ذلك يا سلمى، وشيئتُ بك كما وشيئتُ بكثيرين من قبلك، وعندما قامت هذه الثورة ظننتُ أنني قد تخلصتُ من كل ذلك العناء الذي يُمزقني، وأن سرِّي هذا قد مات للأبد، لكن هذه الثورة اللعينة أزاحتُ الغطاء عن بئر الأسرار العميقة، فتطايرت روائح فضائحنا في كل مكان.

أنا أذكر ذلك اليوم جيداً حين جاء إلى مكتبي الدكتور شاكر عودة المثقف الكبير، استقبلته في مكتبي بصفتي الضابط المسئول داخل الجهاز عن ملفات الأدباء والمثقفين، وفي الحقيقة أنا أجد لذة كبيرة في التعامل مع هذه العقول الجبارة، كيف يمكنك أن تناور هذه العقول الجبارة التي تحمل من الموهبة والذكاء بقدر ما تحمل من التمرد والكبرياء من أجل أن تُخضعها وتصبح تحت سيطرتك؟

هي معركة طاحنة بين عقليْن يقفزان طوال الوقت مثل خيول جامحة،

حتى يدعن أحدهما للآخر، وفي كل الأحوال كان عقلي هو الذي يركب في النهاية.

على أن التعامل مع مثل هؤلاء مرهق بمثل ما هو مثير، كنت مضطراً أن أقرأ الكثير من الكتب والروايات حتى أكون قادراً على التناطح مع عقولهم، قرأت كتاب "أزمة المثقفين" حتى أصل إلى عمق أرواحهم المتأزمة، قرأت "بودلير ورامبو وماركيز ومحموظ وسارتر" اغترفتُ من كل هذا المعون الذي يستقي منه المثقفون خراءهم الذي يسكبونه في عقول الناس، وفي الحقيقة الكثير من المؤسسات الثقافية والفنية في هذا البلد يديرها رجالنا أو من هم تحت الكنترول.

الأمر مع الدكتور عودة كان مختلفاً بعض الشيء احتاج مني وقتاً طويلاً حتى أناخ الرجل عقله، أنا قرأت كل ما كتبه الدكتور من كتب ومقالات وأعمال نقدية، جلستُ مع تلاميذه حتى أعرف كيف يفكر، كنتُ أذهب إلى المقاهي والبارات التي يجلس فيها مع ندمائه ومريديه،

كنتُ أضع ظلالاً باللون الأحمر على بعض جملة وأحفظها عن ظهر قلب، وما زالت ذاكرتي تحتفظ بجملته البديعة التي لم أفهمها حتى الآن "هذا البلد غير مسموح له سوى أن يعيش بخصية واحدة حتى لا تتمدد خصوبته أكثر مما ينبغي".

أنا لا أستخدم تلك الأساليب التي عفا عليها الزمن، ومن الممكن أن يدلي الدكتور هنا بشهادته، فلم أعبث بمؤخرته في يوم من الأيام، وفكرة هدم منزله من أجل أنه خالف ترخيص البناء بتوسيع دورة المياه تتماشى مع نصوص القانون الذي يطبق على الجميع في هذا البلد دون استثناء كما تعلمون.

كنا نعلم أن الدكتور قام بتوسيع دورة المياه منذ فترة لكننا كنا نتعامل معه بروح القانون، وروح القانون حانية، تشمل بعطفها من نشمله نحن بعطفنا، لكن القانون في نفس الوقت له يد باطشة، تبطش بأولئك المارقين، بعض المثقفين ينتطعون ويطلقون على ذلك لعبة العصا والجزرة، في كل الأحوال فكرة هدم منزل الدكتور كانت مجرد محاولة لشل عقله لبعض الوقت، أعقب ذلك هذا المقال الذي هاجم الدكتور والذي نشرته الجريدة الحكومية، أقول نشرته الجريدة لأنني أنا الذي كتبته بنفسني وتركتُ لرئيس التحرير أن يعيد صياغته ويضع اسمه عليه، ثم استدعيْتُ الدكتور ثانية بعد أن بدأ يترنح، أظهرتُ له وثائق دامغة تثبت أن رئيس الحزب اليساري الذي ينتمي إليه مجرد دلدول صغير يعمل بالرموت من مكثبي، كما أظهرتُ للدكتور ما يثبت أن منصبه في رئاسته تحرير المجلة الأدبية الشهيرة ورئاسته لأحد المهرجانات السينمائية الكبيرة وعضويته في أحد المجالس القومية المتخصصة كان بتوصية من الجهاز، لا يحتاج الأمر إلى ذكاء ليعرف الدكتور أن بتوصية مماثلة سيفقد

كل تلك النعم التي ننعم بها على بعض من نظنُّ أنه سيمرق في يوم من الأيام من أجل أن نصطاده بعدها في لحظات كتلك.

هنا كانت فرصتي لأركب، وقد ركبت.

بعدها أصبح الدكتور شاكر عودة بقامته وقدره تحت السيطرة تمامًا، حيثُ كان عين الجهاز الساهرة في مجالس المثقفين ودهاليزهم، حدا أنه أوشى لي ذات يوم بتلميذته العزيزة سلمى.

لكن الدكتور شاكر عودة بعد خراء يناير أظنُّ أن بإمكانه أن (يفلفص) من تحتي أو من تحت سيطرة الجهاز العظيم ويعاود سيرته الأولى، لكننا موجودون طول الوقت، حتى في تلك الأوقات التي ظننتم أننا فقدنا فيها السيطرة، حتى في تلك اللحظة التي اضطرتُّ فيها إلى ارتداء ملابس نسائية وأنا أتسلل من مبنى الجهاز عشية يناير، كنتُ واثقًا أننا لم نفقد سيطرتنا بعد، في هذه المرة استخدمنا يوسف كأحد أدواتنا الجديدة من خلال برنامج التوك شوك الذي وضعناه فيه من أجل أن يعود شاكر عودة إلى صوابه.



شخصي يستفزون دهشتي دائماً حين يتمردون ويخرجون من تحت
وصايتي، وهم الذين أنجبتهم بمداد كلماتي، لكنهم عندما ينحرفون عن
المسار الذي عبده لهم يصبحون مثل قطارات طائشة لا يملك أحد السيطرة
عليها أو إقناعها بالعدول عن شططها والعودة إلى مكانها الطبيعي فوق
القضبان.

لم أكن أتصور قط أن فاتن ستعشق سلطان كما عشقها السلطان، هذا آخر
ما كنتُ أتوقع،

كيف يمكن لكل هذه الرقة أن تذوب في تلك القوة القاسية؟!
رفقاً بي أيها الخيال.

فاتن في انتظار عودة السلطان ثانية، تتوقع عودته من جديد، تقول
لرجالها:

- سلطان سيعود مثل أسد عظيم أجبرته كرامته على الرحيل عن الغابة،
لكنه سيعود يوماً، وحين يعود سأكون له لبؤة مطيعة.



*يوسف،

"كان زئبقياً، لا يستطيع أن تمسكه، أو أن تضبط مؤشره على اتجاه ما.
"هكذا قدمني السارد العليم دائماً ببواطن الأمور في حكايته، و"زئبقياً"
هذه هي مرادف مُهذب لكلمة "رقاص" والتي هي بدورها تقود إلى
مرادفة أخرى أقل تهذيباً، "عرصجي" التي سترد على السنة بعض شخوص
الحكاية بعد ذلك، وهي تعني بشكل أكثر لياقة أنني أنافق وأهادن الجميع،
وأني عديم المبدأ، وهذا محض كذب، وافتراء بيني، لأنني شديد التمسك
بمبادئ ولا أحيد عنها قيد أنملة، فمبدئي الظاهر والمعلن للجميع هو
اللامبدأ، ويشهد الله أنني لم أخالف هذا المبدأ يوماً، لأنه يتيح لي حرية الحركة
والمرونة في ظل عصر يمتلئ بالتغيرات اللاهثة والفجة في نفس الوقت.

أنا أساير الموضة السائدة لا أكثر، ولم يسـل حبر قلمي على الورق بشكل مجاني قط، هو دائماً في خدمة سادتنا الذين يركبون رءوسنا طيلة الوقت وتمدد سيقانهم بأريحية لترتاح أحييتهم على أطراف آذاننا، وكلما في دائماً لا أوجهها إلا لشخص واحد، يظنُّ القراء خطأ أننا نكتب من أجلهم، وأن كلمتنا موجهة إلى عقولهم وقلوبهم.

لكننا في الحقيقة نحن لا نكتب إلا لسيادته، ولا ندبج الافتتاحيات الطويلة والعناوين العريضة إلا لنخاطب فخامته، ومن ثم لا نملك إلا أن نكتب ما يرضي سيادته، وهو أمر لو تعلمون عظيم، فأنت مطالب دائماً أن تضبط إيقاع كلماتك وفق إيقاع سيادته، ومزاجه المتقلب، وسياسته الهوجاء دوماً التي تتجه صوب الشرق تارة والغرب تارة وفي كل الاتجاهات أحياناً، الخطأ المهني الصغير هنا قد يكلفك حياتك، نحن دائماً نكتب على أعصابنا، لكننا طوال الوقت كنا نتبارى ونتنافس بشرف في ساحة حب سيادته وعطفه، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

لكننا في هذا الميدان الفسيح لسنا وحدنا، يتبارى معنا طوال الوقت، سياسيون، فنانون ورياضيون، ليبراليون وماركسيون، سلفيون وإخوان، وصدر سيادته الواسع يستوعب الجميع، أنا أتذكر الآن ما قاله أحد الشعراء لمبارك ذات يوم:

"مبارك تهتف به الأكوان، وعنوان الزمان، وهو العذب الفرات ولا يستوي البحران".

وفي الحقيقة أنا لم أستفحل في مغازلتي للقائد إلى هذا الحد الفج، كما لم أستطع قط أن أجاري أساتذتي الكبار في هذا المقام، مقام عشق سيادته (أي سيد يأتي بالطبع وكل سيد يركب بلا شك) فالأستاذ (س ر) كان صاحب باع كبير في هذا الميدان، أذكر أنه كتب في يوم أحد الاستفتاءات الشهيرة على بقاء مبارك في الحكم آية قرآنية على يسار مقاله تقول:

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله).

كما لم تصل بي الفجاجة أن أقول ما قاله رئيس تحرير الأخبار يوماً واصفاً مبارك وتضحياته العظيمة:

(لا يستطيع أن ينام مثل البشر ولا يستمتع بالأطعمة ولا برائحة طشة الملوخية مثل باقي البشر)

لا أخفي عليكم أنني كنتُ وما زلتُ أتمنى أن أخلص من حيائي ومن عقدة قلبي لأصل إلى هذه المنطقة العالية التي يكتب منها هؤلاء الأفاضل مقالاتهم في حب الرئيس.

ما لا تستطيعون استيعابه أن سيادته لو ترك السلطة لأمر ما وهو ما كنا
نؤمن أنه لن يحدث، لكنه غافلنا وحدث بعد أحداث يناير، ماذا عسانا أن
نفعل سوى أن نوجه كلماتنا أيضاً إلى سيادته الجديد الذي خضعت له الأمور
حتى وإن كان إخوانياً من إخوان الشياطين، المهم أنه يركب، أنتم لا تدركون
ماذا تعني السلطة حين ترضى، وحين لا قدر الله تغضب عليك.
أنا أعرف ذلك جيداً.

لا أعرف لماذا يُصّر بعض شخصي على إعادة سرد المسرود وحكي
المحكي، هل سيقودهم ذلك إلى نهاية جديدة؟
حين ينطلق قطار السرد على القضبان الممتدة في خط مستقيم، لا تتوقع
أن تنتهي رحلتك في حديقة أو على حافة نهر، لأنها حتماً ستنتهي في محطة ما
على جانب القضيب. فالبطولة دائماً للسياق وليست لشخص الحكايات
مهما تكن سطوتهم.

شخصي وأصدقائي المزعجين في الغرفة المغلقة يمسون في تلايب
اللحظة، يريدون أن يجمدوا الزمن على لحظتهم تلك، لا يعرفون أن إعادة
سرد الحكاية سيقودهم إلى تلك اللحظة التي يهربون منها.
لنعد إلى حكايتهم وتراثهم القديم الذي سيقود إلى ما يفرون منه.

*نزار،

نزار فيما يبدو كان أنبل شخوص حكايتنا، الرياح كانت قد حملت حبوب
اللقاح التي أنبتت الربيع العربي في تونس ومصر لتطال أرض سوريا وصحراء
ليبيا وحدائق اليمن السعيد، هنا بزغت شخصية نزار في ثنايا الحكاية.

"لم يلتفت أحد إليه عندما دلف إلى البار لأول مرة بخطواته الهادئة
البطيئة، عيناه الزرقاوان تتلفتان في أنحاء البار، حزن غامض يطل من
وجهه الأبيض، جلس على طاولة قريبة منا، بعد قليل أخرج من حقيبة
جلدية صغيرة ألبوم من الصور، ظل يتصفحه في شروذ وبوجع لم يتنبه له
أحد، تشاغلْتُ بالحديث مع شادي، حضر حازم ثم يوسف، واشتبكنا في
حديثنا المعتاد عن الأوضاع الراهنة، تنبهُتُ إلى أكوام من زجاجات البراندي

والفودكا قد اصطفت فارغة على تلك الطاولة القريبة منا، عدتُ أتابع نزار وقد أمسك بيد نجيب أذى نادل البار العجوز بعد أن وضع أمامه زجاجتين من البيرة، أشار نزار إلى ألبوم الصور، قرّب نجيب أذى الألبوم من وجهه، وأخذ يتفحصه بعينه الضيقتين، ثم وضع الألبوم على الطاولة ومطّ شفتيه إلى الأمام وانصرف، ظل حازم يتحدث عن تنامي دور التيارات الدينية، خاصة بعد هروب الكثير من القيادات من السجون بعد اقتحامها إبان انفجار الثورة، وبحكم خبراته الأمنية السابقة حذر حازم من تعوّل هذه التيارات إذا لم تجد من يروضها، يوسف أرجع ذلك إلى ضعف الحركات المدنية في مصر وهو ما يعطي لهذه التيارات الدينية الفرصة لسحب البساط من تحت أقدام الجميع، بينما أوضحتُ أنا أن القوى المدنية التي ظهرت بعد الثورة تحاول تجميع نفسها في أحزاب وحركات سياسية، لكن هناك من يعتمد تشويه رموزها لأسباب مجهولة، ثم عدتُ إلى نزار، كنتُ أشعر أن هذا الرجل يتخفى وراءه سرٌّ كبيرٌ.

حينما جاء نجيب أذى إلى طاولتنا سألته عن هذا الرجل بجانبنا، رفع نجيب أذى كتفيه الساقطين لأعلى، لا أعرفه، أول مرة يأتي إلى البار، لكنته تقول إنه من الشام.

لعله أحد اللاجئين السوريين الذين جاءوا إلى القاهرة عقب الثورة السورية. هكذا توقع يوسف، ثم بدأ يحكي عن معاناة الملايين من اللاجئين السوريين على الحدود، نزار فاجأنا، تابعته وهو يترنح في مشيته ببدانته الواضحة كدب أسكرته الخمر، اقترب من طاولتنا وتساند عليها محاولاً أن يحفظ توازنه، يحمل ألبوم الصور بين يديه، أثر الشراب كان بادياً على وجهه الأبيض، فتح ألبوم صورهِ أماننا، الصور كانت لامرأة شقراء وبنت في الخامسة عشرة تقريباً، في صور أخرى أقدم نسبياً ظهر نزار وهو يحتضن المرأة ويحمل الطفلة على يديه. علامات التعجب كانت بادية على الجميع، بصعوبة تحدث نزار.

❖هاذا الدبدوب الواقف قدامكم عم ييلوب عن المرأة والطفلة، ما صارت طفلة الآن، هي الآن أنسة جميلة، هادي "كرما" بنتي، تقريباً هي الآن في السابعة عشرة، لم أشاهدها منذ كانت في الخامسة، وهادي بنت عمي، زوجتي يعني، منذ أن حدث ما يحدث في سوريا الآن والذي لا أعرف ما أسميه انقطعت أخبارهما عني، لا لا هي انقطعت قبل ذلك، بل أنا الذي قطعته قبل ذلك بعدة سنوات، هذا يطول شرحه، أنا أسألكم: هل شاهدها أحدكم في شوارع القاهرة من قبل؟

هناك من يؤكد أنها هنا في القاهرة، وهناك من يشير أنها في تركيا، آخرون يقسمون أن زوجتي وابنتي في أحد المخيمات على الحدود اللبنانية، وأنهم قد شاهدوهما هناك بأم أعينهم، البعض يزعم أنها في الأردن، في حين جاءني مكالمة منذ أسبوع أنها من ضمن اللاجئين السوريين الذين نزحوا إلى ألمانيا، أنا عدتُ من ألمانيا أمس، مسحتها بالكامل دون جدوى، هم أيضاً ليسا في تركيا أو لبنان أو الأردن، لأنني ذهبتُ وفتشتُ هناك أكثر من مرة.

لا تتعجبوا، فأنا لي أكثر من عام أسرح بهذا الألبوم في أرض الله مثل الملاح التائه، وكلما لمّح لي أحد عن مكان يُحتمل أن تكون زوجتي وابنتي قد ذهبتا إليه أطير سريعاً إليه، لكن كل ذلك دون جدوى، وأظنُّ أنني سأقضي عمري كله سارحاً هائماً على وجهي كعقاب أزلي على تفريطي فيهما منذ البداية.

* "عرفنا بعد ذلك يا سلمى أن محنة نزار أشد عمقا من رجل يبحث عن زوجته وابنته، كما روى السارد على لسان نزار أنه سافر للخليج للعمل في أحد المطاعم، وترك زوجته وطفلته في حلب، على أمل أن يلحقا به بعد استقرار أوضاعه، بعد سنوات افتتح نزار مطعمًا يُقدِّم الحلويات الشامية، ثم تزوج من فتاة فلسطينية، تناسى خلال ذلك زوجته وطفلته، إلى أن تذكرهما حين قامت الثورة في سوريا.

تعودنا اختفاء نزار المفاجئ بعد ذلك، إذ لم يترك شبرًا من الأرض يُحتمل أن عائلته الصغيرة قد لجأت إليه إلا وجمع متعلقاته ورحل بحثًا ونبشًا عنهما، بعدها يعود إلى القاهرة كطائر موعود دائمًا بالفشل، لكنه حين يحط بالقاهرة لا يلبث أن يعاود تحليقه إلى مكان آخر يُتوهم أن فرخيه الضالين قد نزا إليه.

نسي نزار كل أعماله في الخليج وتفرغ للبحث عن أسرته الصغيرة كقضية وحيدة يعيش من أجلها.

أصبح نزار صديقًا مشتركًا لنا، يجالسنا في البار أو في الأتيليه، حاول يوسف أن يساعده، استضافه في برنامجه وعرض قضيته كقضية إنسانية مؤثرة، كما عرض صورًا لزوجته وطفلته، ووجه نداءً إنسانيًا لكل من يمتلك معلومات عنهما بالاتصال بالبرنامج.

تذكرين يا سلمى، دموع نزار وقتها على الهواء، واعتذراه لزوجته وابنته، والاتصالات والرسائل العديدة التي تلقاها البرنامج من كل أنحاء العالم والتي عمّقت جرح نزار وزادت من حيرته، بناء على هذه الاتصالات كان على نزار أن يطوف العالم كله.

هما في ألمانيا.

شاهدتهما في إيطاليا.

كنتُ أعمل في برنامج إغاثة اللاجئين وشاهدتُ ابنتك على الحدود الأردنية.

نعم أنا متأكد أنها في اليونان.

السارد فيما يبدو كان يريد أن يتقمص دور الآلهة في الأساطير القديمة، فجعل نزار يجوب العالم كله تكفيراً عن خطيئته.

ما زلت أذكر كيف انتهت هذه الحلقة بنهاية غير متوقعة، حينما ردد نزار جملة الشهيرة التي تناقلتها بعد ذلك مواقع التواصل الاجتماعي كمفارقة لاذعة تثير هذا الضحك الأسود الذي ضحكناه كثيراً بعدها يا سلمى "إحنا بسوريا كان عمبيحكنا الأسد، بدي أعرف مين صور لأولاد اللبوة أن يثوروا على الأسد من أجل شنو، إنا نعيش مثل الفراخ الضالة في حظائر العالم، يا خيي ملعون الأسد وملعون ولاد اللبوة".



واصل الدرويش خطواته الواثقة المرتجفة، كأنه يمشي فوق صفحة البحر
أو يعرج بتأنٍ نحو السماء، رائحة سيده الغسيل تجلد حواسه، يسمع صوت
أنفاسها كأنها نغم شقي صاحب، كان يريد أن يناجيها، أن يدعوها للحظة
الكشف، أن تنزع الحُجب بينها وبينه، لكنه لم يقوَ على الكلام، الصمتُ في
حضرتها أبلغ، والسكوت في معيتها يغني عن المناجاة.

ثم وهو في حيرته تجلّت له دون ستر، بيضاء تسرُّ الناظرين، عارية
دون غطاء، سيده الغسيل بكامل سطوتها وهيئتها، بجسدها كله، بنصفها
المحجوب الذي لم يُكشف لأحد من شرفتها.

لم يتحمل الدرويش الوقوف في حضرتها، هاله ما رأى، فغاب وحلق
بعيداً، فوق جزر وبحار، هضاب ومنحنيات، أرض عسلية، عصاه تتحسس

أرض زلقة، في قاعها العميق تستوي حديقة كاملة من البهجة لا تنبغي إلا
للعاشقين.

الدرويش يفيق ويغشى عليه، ينهل ويعطش، يغترف فيزداد جوعه.

كان يسمع صوتها ناعما يتدفق:

- أنت عبد مخلص، وأنا لا أمنح عطايائي سوى للمخلصين.



- ٦٢ -

هل أنا اصطنعتُ فاتن لنفسي أم اصطنعتها من أجل سلطان؟

كيف خرجتُ فاتن عن طوعي هكذا؟

أحدثها عن نفسي فتسألني عن السلطان!

أحاول أن أجذبها إليّ فتحدثني عن حب سلطان الكبير.

أقول لها أخيراً وجدتُ حكايتي في عشقها، فتطلب مني أن أحكي لها
حكاية سلطان من بدايتها.

إلى هذا الحد الذي تذهب فيه كل يوم إلى الجبل الذي أوى سلطان إليه،
أو قل الجبل الذي نفيتُ أنا سلطان إليه، تنتظر عودته كل يوم حين يخرج من
كهفه.



القسم الثالث

"الجمود"

"حين يُصبح كل شيءٍ مثل رماد أجوف لحكاية مُحترقة".



يلسعني الحر فأنتبه، السرير من تحتي كأنه لوح من صاج ساخن يتقلب
جسدي فوقه.

المُكَيِّف صامت.

هل ضرب المنبه؟

بصعوبةٍ أفتحُ عيني، أزحُ من عليها طبقات من العرق الذي يسبح فيه
جسدي كله.

مروحة السقف ساكنة.

الجو خانق.

ساعة المنبه متوقفة عند الواحدة، تحسستُ ساعة يدي على الكومودينو،
الواحدة صباحًا، نهضتُ من على فراشي، تجردتُ من كل ملابسي التي

تشبعتُ تمامًا بالعرق، من الدولاب أخذتُ خيارات جديدة، في طريقي للحمام أنتبه إلى شاشة التلفزيون التي تُواجه سريري، الشاشة ساكنة، لا حركة ولا صوت، فقط هناك لقطة جامدة لفاتن حمامة تنام بدفء في حضن عمر الشريف، لا أذكر اسم هذا الفيلم وإن كنتُ شاهدته كثيرًا قبل ذلك، أقترُبُ من الشاشة، عينا فاتن حمامة مغلقة، يدها على صدر عمر الشريف الذي تشرق عيناه كالعادة، لم تفتح فاتن عينيهما، ولم يضمهما عمر الشريف إليه بقوة كما هو متوقع بناءً على مشاهدات سابقة للفيلم.

ضربتُ سطح الشاشة بيدي، ظلتُ اللقطة ساكنة، تذكرتُ أن هذه اللقطة كانت آخر ما شاهدتُ من الفيلم قبل أن يغلبني النوم، أحرص دائمًا أن يأتيني النوم وأنا أشاهد فيلمًا قديمًا. هل كنتُ أشاهد هذا الفيلم بالأمس؟
ربما أول أمس.

لا أتذكر.

أسفل الشاشة من جهة اليمين تُشير ساعة القناة أيضًا إلى الواحدة بعد منتصف الليل، فتحتُ نافذة الغرفة، لم يصدم أذني ضجيج الشارع المعتاد، صمتٌ مُطبق، تعرّض كل شيء لخرس مفاجئ، أبواق السيارات، أصوات الباعة الجائلين، همهمات العابرين أسفل النافذة، شتائم الشباب القبيحة، زقزقة العصافير التي بنت لها عُشًّا في ذلك التجويف أسفل نافذتي.

حركتُ رأسي في كل الاتجاهات، السيارات متوقفة، إشارة المرور ثابتة على اللون الأحمر، القمر لم يغادر السماء، شباب متجمدون في وقفتهم على الناصية، يد معلقة في الهواء وهي تسحب باب أحد المحلات لأسفل، سيدة مُنحنية لتلتقط طفلها من على الأرض، ذيل فستان مرفوع في الهواء فاضحاً المُستتر والمخفي، أغلقتُ النافذة، بدأت أشعر بقلق وريبة فيما يحدث، السكون والجمود والصمت.

كم لبثتُ؟

ماذا حلَّ بعوالمِي التي صنعتُها عندما كنتُ نائماً؟

يبدو لي أن ما يحدث حولي هذا الصباح أو قل هذا المساء؛ لأنني لا أعرف فعلاً إن كنتُ في الصباح كما هو معتاد حين أستيقظ أو عند الواحدة صباحاً كما تشير كل الساعات من حولي.

يبدو أنها مناورة قد تمتد إلى المؤامرة.

شخصي من أصدقائي المزعجين في الغرفة المغلقة قادوا العالم إلى الجمود، هذه العوالم الفسيحة التي صنعتُها بخيالي، ثم نثرتُ فيها الحكايات بعد أن كانت مجرد خلاء واسع مثل السطور البيضاء الفارغة. ها هم الآن

في الغرفة المغلقة قد جمدوا الحكاية، رافضين هذا التابع والتسلل الطبيعي للأحداث الذي حتماً سيتهي بأن يطلق شادي النار على حازم ثم سلمى، ثم يسلم نفسه إلى أقرب قسم شرطة، حتى عندما حاولت أن أغير المسار قليلاً، ودفعْتُ عمو لبيب ونزار ويوسف ونجيب أذى إلى قلب المشهد البشع في الغرفة المغلقة من أجل استفزاز شادي لأطلاق النار عليهم جميعاً، ثم إطلاق النار على نفسه في النهاية من أجل الوصول إلى نهاية معقولة مناسبة، إلا إنهم اكتفوا بمواصلة السرد دون توقف، من أجل تفتيته والبحث عن تلك اليد غير المحايدة التي دفعتهم إلى هذا الانحدار وتلك اللحظة.

أدورُ حول نفسي في غرفتي الصامتة، بل حول العالم الذي جُمد عند الواحدة صباحاً. الهاتف مجرد قطعة من الحديد، جهاز الحاسب جسد ميت، التليفون الأرضي لا يستجيب.

ارتديتُ ملابسِي سريعاً، قررتُ أن أتجوّل في هذا العالم الساكت.

ساعة الميدان عقاربها الثلاثة تركب فوق بعضها عند الواحدة.

يبدو أن العالم قد تعطل عند هذه اللحظة، هي لحظة مناسبة تماماً لنهاية العالم، لا يمكن للعالم أن ينتهي عند الثالثة عصرًا، ولا عند السابعة وخمس دقائق صباحًا، لكنه هنا عند اللحظة الفاصلة بين موتٍ يومٍ وبدايةٍ مُحتملةٍ لآخر.

سيارات متوقفة بعرض الطريق، رجل المرور تجمدت عصاه الإلكترونية التي رفعتها يده اليمنى، رجل يشير لامرأة عبر واجهه زجاجية لإحدى المحال إلى بيبي دول بنفسجي اللون بينما نظرة السيدة الجامدة إلى الرجل تشي بأنها نظرة مُعرضة.

عاصفة السكون طالت التجمعات على مقاهي وسط البلد، دخان الشيشة عالق في الهواء، صبي المقهى يرفع صنية المشروبات إلى أعلى فوق رءوس بعض الجالسين، يدٌ تقبض على الزهر، في مقابلها عين مصوبة إلى الرقعة الخشبية تنتظر رمية لم تحدث حتى الآن، على الرصيف المقابل هناك عالقون يهبطون أو يصعدون النفق.

تأكد لديّ حجم المؤامرة التي تُحاك ضدي بخبث، رغم ذلك عزمتُ على استغلال الموقف لأقوم بجولة في عوالم الساكنة، سيساعدني هذا السكون على سرعة التنقل دون زحام أو مضايقة من أحد.

أنا المتحرك الوحيد في وسط هذا العالم الراكد والراقد الذي لم يستيقظ بعد.

أنا لا أعرف من الذي أتى بكم إلى هذه الغرفة في لحظة مخزية كهذه، لم يرد في مخطوط الحكاية أن أُطلق النار عليكم جميعاً، كما أنني حتى هذه اللحظة لم أطلق على مَنْ يستحق، ربما اليد غير المحايدة دفعتكم إلى هنا في محاولة لكسر التوقع لدى القراء، فبدلاً من أن يقتل شادي سلمى وحازم كما هو متوقع، يفتح النار على جميع شخوص الحكاية، ثم يفتح فمه ويفلت رصاصة رحمة تجاه حنجرتة.

مهما يكن الأمر، وجودكم على أرضية هذه الغرفة في هذه اللحظات التي نستعيد فيها حكايتنا سيساهم في منحنا تأويلات مفيدة تُساهم في تفسير لماذا نحن هنا الآن؟

"تذكر يا يوسف أنك فجأة قد تخلّيت عن الإخوان وبدأت تهاجمهم بضراوة في مقالاتك وفي برنامجك، حين بدأ ذلك تأكدنا أن هناك ما يلوح في الأفق، أنا أذكر أنك وقتها لم تندم شي مثلي يا سلمى، لهذا الانقلاب المفاجئ، قلت لي: يوسف شخصية انتهازية، يتنبأ من بعيد بالاتجاه الذي سيكون عليه الريح ثم يُعدّ شراعه ومجدافيه ليكون مُستعداً للإبحار في أية لحظة يحددها البحارة الجدد وأنه يسخر قلمه دائماً في خدمة الجواد الرابع، ساعتئذٍ توقعتُ قرب انهيار نظام الإخوان وأن انقلاب يوسف عليهم مؤشر دالٌّ على ذلك.

حدث ذلك بالفعل بعدها بأسابيع قليلة، شاركنا في هذه الانتفاضة الجديدة، كنتُ على حماسك القديمة، في حين كنتُ أنا متوجساً ومرتبكاً، حدثتني عن أن الثورة تصحح خطيئتها، في الميدان قابلنا حازم ويوسف، الجميع فيما يبدو كانوا قد تحولوا إلى ثوريين لبعض الوقت.

ثم سقط الإخوان فجأة كما جاؤوا فجأة، بعدها انقسم الجميع كالعادة إلى مع أو ضد.

هكذا دائماً الرؤية غائمة في هذا البلد، وهكذا هم شخوص الحكايات عندما يصلون إلى تلك النقطة المرتبكة والمربكة من الحكاية، ليس بغريب حين أدركتنا تلك اللحظة من حكايتنا أن يعلن نزار فجأة موت زوجته

وظفله ليستريح من عناء البحث عنها طيلة أربعة أعوام، وهو الذي ظل دوماً يصدق حدس قلبه الذي يحدثه بأنهما حيان يُرزقان في بقعة ما تحت سطح هذا الكوكب الواسع.

كان ذلك عندك في الأتيلية، حازم ويوسف كانا بصحبتنا حين فاجأنا نزار ومعه بواب العمارة يحملان لفافات عديدة من الكباب والكفتة والكثير من زجاجات الشمبانيا والويسكي، كان ذلك على غير العادة ؛ لأن نزار معروف بين شخوص الحكاية بحرصه الشديد، كان قادماً لتوه من حلب في مغامرة كبرى تأكد خلالها بعينه أن بيته هناك قد سوته الغارات بالتراب، لم يؤكد له أحد من الجيران موت زوجته أو ابنته، كالعادة سمع روايات عديدة، بعضها كان يزعم أنها كانتا في السوق وقت الغارات، كنا نعلم أنه في سوريا، وكنا نظنُّ أنه ربما لن يعود ثانية، لكنه حين عاد هذه المرة، بدا لنا مُبتهجاً، يتألق وجهه بصفاء غريب لم نعهده من قبل، لم نكن نعرف سببا لكل ذلك، تجنب نزار تلك الدهشة التي كانت تطل من أعيننا، وراح يفتح لفافاته وزجاجاته وهو يدعونا لمشاركته حفله الصاخب، ظلَّ يأكل ويشرب وهو يطلق نكاته وسبابه الذي لا نعرف لمن يوجهه، يضحك فتنفجر الدموع من عينيه، يمسحها وهو يحدث نفسه:

- بدي أعرف يا أبو كرما منين تحيك الدموع؟

- شُبُك؟

- ماتوا عيالك وانتھينا، وبا يقشك، ماتوا في حلب، ماتوا في بلاد الأتراك،
اتقبروا في أوربا، في مصر، في البر ولا في البحر، خاطرك، تاكلك الدودة
العميا.

- إيش يهملك قتلهم بشار ولا الروس ولا الأتراك ولا الدواعش، اتفق
القط والفار على خراب الديار.

ينمحئوا عيالك يا نزار، تنمحىء سوريا وكل بلاد العرب..

- اشربوا يا أولاد الأوساخ في صحة الثورات العربية، في صحة ها الربيع
المنحوس المنجوس.

- من قال لكم إن حكامكم يجوز الثورة عليهم؟

هم آلهة مباركة، ستطاردكم لعنتهم أينما تحلون، حتى إن انتزعتموهم من
على مقاعدهم وعروشهم، ستنهدم معابدهم فوق رؤوسكم، وسيتناثر غبار
هذه الآلهة الغاضبة ليحرق الجميع، بعدها ستجدون أنفسكم مضطرين لأن
تبنوا معابد جديدة تصلح لآلهة أخرى أكثر بطشاً ويقظة بحيث لا تسمح

أن يُثار عليها، تنصبوها بأنفسكم راضيين مرضيين، لتنعموا ببركتهم،
فيمنحوكم أمنكم وخبزكم.

تقولون يا سادة إن يوسف منافق كل العصور.

تُبرني. والله ما بقصد يا يوسف، أنا بدي أوضح إيش؟ اه إنك يا ابن
عمي من حملة المباخر لتلك الآلهة المُحتملة، أنت وأمثالك تعبدون لهم أرض
المعبد حتى يصبخوا قادرين على أداء رسالتهم السامية في مضاجعتنا بهدوء.
أنا أفهمك يا يوسف، لا تاخذ على كلام رفاقك. دول ما بيعرف الخمسة
من الطمسة، طاقين فيوزاتهم، حتى ها الزلّة إيلي اسمه الدكتور شادي صدق
النبؤة الكذابة، جري وراها الثورة المجلوقة، ترك حلمه في أوربا حتى ينغرس
هنا في الوحل. مسكين شادي. ما حدا بلغه إن أرض العرب لا تنبت فيها
الأحلام، أما أنت يا يوسف حين تنافق الآلهة الجديدة؛ شنو إنك تدرك أن
بلاد العرب يلزمها ها الآلهة. سيبكم من ها الحكي إيلي بلا طعمه، والله اليوم
لازم نرقص يا دكتور شادي.

بعدها أمسك نزار يدي وأصر أن تتشابك أيدينا وأن نرقص الدبكة، كان
ييكبي بحرقة، وكنا نكي يا سلمى.

ويليدلعونا ويليدلعونا

راحوا الحبايب ما ودعونا

يا أرض بلادي يا بعد روحي

عنك ما أتنازل والله وما بروح

ولو قطعوني وما داو وجروحي

عترابك باقي وما أرحل من هونا

كان المشهد موجعا يا سلمى كما كان فجأ.

بعدها غاب نزار ثانية لفترة طويلة، قبل أن يعاود الظهور ثانية.



ها قد وصلنا إلى تلك المنطقة من الحكاية، مركز الانفجار، كل الخيوط السابقة تتجمع هنا، ليس من أجل شيء سوى لانفجارٍ عظيم، ما سبق كان البارود، يتم الحشو هنا، هنا زر الانفجار القادم.

منذ البداية كان هنا اتفاق على تأجيل الزواج بعض الوقت ريثما تهدأ الأحوال في مصر، حتى ينتهي شادي من ترتيب أوضاعه.

سلمى كانت تتفهم ذلك، تستعين بحبوب منع الحمل، حافظت على ذلك لفترة طويلة، حتى هذه اللحظة التي سهت فيها عن حبثها في ذات جماع وحين مضاجعة.

ذهن سلمى ليلتئذ لم يكن رائقاً بما يسمح بإقامة هذا اللقاء الحميم مع شادي؛ لتوها كانت عائدة من المستشفى القبطي، حيث زارت صديقة

قديمة أصابها شظية قبله انفجرت داخل كنيسة أثناء قداس الأحد، الحادثة كانت ضمن عشرات الحوادث المتزامنة والمُعدة جيداً، والتي ضربت العديد من الكنائس في أنحاء متفرقة من البلاد عقب رحيل الإخوان عن الحكم، رفضت سلمى في البداية محاولات شادي المتكررة في الاقتراب منها، لكنها لم تستطع صده في النهاية، في أثناء ذلك كانت شاردة، تشم رائحة الحريق في كل الأشياء حولها، وجه صديقتها المشوّه ظل يطاردها قطعاً تركيزها وانسجامها وإحساسها بجسد شادي، لم ينتبه شادي لذلك إلا حين انتهى.

حين سألها، أبعدته برفق وهرولت إلى الحمام لتغسل جسدها من رائحة الحريق التي تفوح منه، في خضم كل ذلك، نسيّت أمر حبّتها المعتادة. بعد ذلك بيومين حدث نفس هذا السهو، هذه المرة كان سهواً بشرياً، مجرد غفلة، خطأ وارد أن يحدث من أي امرأة تتناول حبوب منع الحمل، حين حاولت سلمى أن تتدارك ذلك الخطأ، توقفت عن تناول حبوبها، وأسرعت إلى الطبيب الذي أخبرها بكل هدوء بالخبر الصادم وغير المتوقع.

أصابها ذلك برجة عنيفة، حد أنها طلبت من الطبيب إعادة اختبار الحمل، أخبرها الطبيب بعدم وجود داع لذلك، إصرارها الغريب على إعادة الاختبار أدهش الطبيب، لكنه لم يجد مفرّاً من تنفيذ رغبتها، بعدها ابتسم وهزّ رأسه وهو يحمل نتيجة الاختبار ويشير إلى صحة نتائجه.

- والحل؟

قالت سلمى شاردة.

لم يكن سؤالها مُوجَّهًا إلى الطبيب الذي بدأ يدون بعض الفيتامينات والأدوية المساعدة للآم الجديدة المُحتملة، في هذه اللحظة لم يكن لديها وعي كاف يجعلها تفكر في إجابة لسؤال معقد كهذا.

كانت فقط لا تستوعب.

ذروة الحكاية تتفرع منها دومًا جداول عديدة، تحفر أحاديدها بتؤدةٍ، تتلوى وهي تشقُّ طريقها؛ لتنتهي عند ذلك المحيط الكبير الذي حين يمتلئ سيبتلع في أحشائه كل شيء، ثم يبتلع ذاته في النهاية، ليطبق الصمت ويحل السكون على الحكاية؛ لذا لم يكن بمستغرب يا سلمى أن تتزامن في المخطوطة كل تلك الأحداث التي ستأخذنا كرهاً إلى محيطنا الفاجر فاه في انتظار قدومنا الوشيك.

لذا جاء هذا المشهد في المخطوطة تاليًا ومتشابكًا مع صدمة الحمل المفاجئ والذي حتى هذه اللحظة الزمنية من عمر حكايتنا لم أعرف به؛ لأنك لم تخبريني بذلك في حينه.

"ككل رؤساء الوزارة السابقين منذ قيام الثورة وعودة شادي إلى القاهرة، قابل رئيس الوزراء الحالي الدكتور شادي أبو المجد بحفاوة تليق بعالم كبير حقق إنجازات علمية هائلة في الخارج.

في البداية وككل رؤساء الوزارة السابقين شكر سيادته شادي على تلبية الدعوة واستعرض روح التغيير الكبير الذي من المنتظر أن تشهده البلاد خلال الفترة القادمة في ظل الثورة الثانية، وبعد التخلص من كابوس الإخوان، وككل رؤساء الوزارة السابقين أعرب سيادة رئيس الحكومة الجديدة عن أمل الحكومة في الاستفادة القصوى من إمكانيات كل أبناء الوطن خاصة الطيور المهاجرة النادرة.

منذ وصلت الدعوة لشادي ظلَّ بمكتبه في مركز البحوث يُعدُّ خططه التي سيعرضها على رئيس الوزراء بنفس هذه الحماسة الذي سبق وأن عرض به خطته المماثلة على كل رؤساء الوزارة بعد الثورة والذين يتغيرون بألية رجل نظيف يحرص على تغيير سراويله.

وكما كل مرة وبالحماسة ذاتها شجعتة سلمى دون أن تفوت الفرصة في البرهنة على عمق التغيير الذي يشمل البلاد.

سلمى كانت تتمنى أن يجد شادي الفرصة المناسبة لتحقيق أحلامه العلمية التي جاء خصيصاً إلى مصر من أجل تحقيقها، وحتى يتسنى لها أن تنتهز تلك الفرصة النادرة لترمي خبر حملها بين يديه.

في أثناء المقابلة عرض شادي على سيادته خطته الإصلاحية لبرامج التعليم والتنمية. رغم شيخوخته الواضحة قابلَ رئيس الوزراء الحالي كل ما يعرضه شادي بحماسة مماثلة لكل تلك الحماسات التي أبدأها سابقوه من رؤساء الحكومات البائدة، حتى أن سيادته كان يهزُّ رأسه متجاوباً عند ختام كل جملة ينطقها شادي.

حين انتهى شادي أخذ سيادته يمتدح خطته الواعية والتي من شأنها أن تحقق طفرة عملاقة في مجال البحث العلمي على حد قوله، كما أثنى كثيراً على وطنية شادي، واعتبره نموذجاً وقدوة حسنة للشباب.

أخذ سيادته يُسوي من وضع شعرتين يضاوين منتصبتين وسط حاجبيه ضمن شعر كثيف يعلو عينيه الضيقتين، ثم ساوى في حركة لا إرادية الملفات المكدسة، برقت عيناه الضيقتان كأنها ستُلقي مفاجأة، وكما كل مرة قال سيادته:

- إنه سيُشكل لجنة لعرض الأمر عليها.

ضَحِكْ شادي. نظر له سيادته بدهشة حائرة تسأل عن سر تلك الضحكة في هذا السياق الجاد. تعودتُ أن اللجنة في تقاليد المصريين تعني التحنيط. قال شادي موضحًا. انفجر سيادته ضاحكًا وهو يسعل بشدة، صدره كان يُشخلل شخللة تتناسب مع إيقاع عجزه الواضح، رغم ذلك واصل سيادته الضحك بوتيرة أقل إلى أن انتهى.. تقول "تقاليد المصريين"! كأنك لستَ منهم. هاهاها، ضحك سيادته ثانية وسعل، هذا كان في الماضي يا دكتور شادي. لا وقت لدينا الآن للتحنيط.

أمام وسائل الإعلام تعهد معالي رئيس الوزراء وهو يواصل هَزَّ رأسه بتشكيل اللجنة في أسرع وقت ممكن.

بناء على تجاربه العديدة السابقة كان ذلك يوحى لشادي بأن يقبع محنطاً في مكتبه بمركز البحوث حتى يُقال رئيس الحكومة الحالي قبل أن يتم تشكيل اللجنة المزعومة.



كأن عاصفة من الثلج قد ضربت عوامي وشخوصي عند الواحدة، الكل تماثيل محنطة.

على المقهى العجوز ممسوح الذاكرة يضرب جبهته بيده، يريد أن يتذكر كالعادة، بجواره الصبي المراهق يفتح فاه بشغف منتظراً أن يكمل العجوز ممسوح الذاكرة حكايته.

- في لحظة عشق واضحة يمرح الكيميائي على حديقة الفتاة التي كانت ذات صدر بحجم الليمونة فيما هي مستسلمة تماماً للخدر اللذيذ.

- فاتن عند سفح الجبل، تضع يدها في منتصف خصرها، تنظر لأعلى، إلى تلك المغارات والكهوف التي يحتمل أن يكون سلطان عالماً بها، فبدت

كشخصية أسطورية قديمة حكمت عليها الآلهة بالتجمد والانتظار الأبدي
نظير خطيئتها.

- سلطان في ذلك الكهف الذي خبأته فيه، يسند ذقنه على فوهة بندقية،
عيناه شاردتان، كأنه يفكر أن يعود ثانية من هذا المنفى القسري الذي أرسلته
إليه، وبالتأكيد فاتن في بؤرة اهتمامه.

- أمرٌ على دكان العطور فأجد رماد سائق عربة الإسعاف بائع العطور
ككومة من الثلج، فيها اختفت تمامًا رائحة الحريق التي كانت تفوح من
جسده.

تتابني الحسرة، ويقتلني الألم على كل حكاياتي الصغيرة.

ما أصعب أن تظل الحكايات عالقة في الفراغ!

ما أقسى أن تمتد البرودة إلى أطراف الحكايات!

الآن كل حكاياتي كيبوت خربة مهجورة، عشعش العنكبوت في جوانبها،
وبسط خيوط السكون في أنحائها.

كيف تعود الحركة ثانية ويدب النبض في قلبها الجامد؟

جميعكم هنا الآن في غرفة نومي، أخصّ خصوصياتي مكشوفة أمام أعينكم، جسدي وملابسي الداخلية، وهذا الذي كان سيظل سرّاً بيني وبين حازم، نشرة فضائح كاملة بين أيديكم، وهذه المرة حقيقة من لحم ودم، ليست زائفة أو مفبركة .

تلکاً شادي في إطلاق النار عليّ وعلى حازم، فعاقبتنا تلك اليد غير المحايدة بما نحن فيه الآن، وربما تتهدى في عقابها بما هو أشد وأقسى .

قد يكون لازماً من أجل أن ينتهي ذلك كله أن يطلق شادي النار على كل من الغرفة، ثم يمتلك شجاعة كافية ليطلق على رأسه بعدها، ربما بديل ذلك أن تتجمد على هذا الوضع في غرفة نومي المغلقة علينا إلى الأبد .

بمرور الوقت علينا، واستغراقنا فيما نحن فيه، تناسينا حاجتنا البيولوجية التي لا حياة بدونها، هكذا يتعاقب الليل والنهار على العالم بالخارج دون أن نشعر بحاجتنا إلى النوم أو الطعام والشراب، ومن ثم فَقَدْنَا رغبتنا في الذهاب إلى الحمام، تخلصنا من العادات الأثيرة التي كنا نَظُنُّ أننا لن نستطيع العيش دونها، من يتخيل أن الدكتور شاكر عودة ليس بين أصابعه السيجارة الكنت، أو أن نزار دون زجاجة على فمه، أو أنني أستطيع أن أعيش كل هذه المدة الطويلة دون قهوتي الغامقة؟

نحن إذاً أكثر حريةً من أي وقت مضى، هكذا نحلق في سماء حكايتنا لنرى ما كان قبل ذلك مُستغلَقًا وغير قابل للفهم.

أنا كنتُ أريد أولاً أن أصدق أنني حامل، نعم كنتُ أحتاج ذلك، كأن اللقاءات الحميمة بيني وبين شادي حتى ولو تناسيت حبوب منع الحمل لا يمكن أن تؤدي إلى ذلك، لديّ رحم مُهيأة لاستقبال جنين بالتأكيد، وإن حدث ذلك سينقطع عني الطمس، سأشعر بالدوار والرغبة في القىء كأى امرأة، وسيتمدد بطني أمامي بالتدريج.

لكنني كنتُ قد نسيْتُ أن ذلك يمكن أن يحدث، وحبوب منع الحمل كنتُ أعتبرها مجرد عادة تصاحب الجماع، سأوضح لكم كيف يمكن لامرأة

أن تنسى أن داخلها رحم يمكنها أن تلتقط جيناً، زواجي الأول كان مجرد تجربة فاشلة استمرت عدة شهور، وقتها كنتُ في أواخر العشرينيات، التجربة القصيرة تركتُ ندوباً عميقة داخلي، فانكفأتُ على لوحاتي وأعمالِي الفنية ومحاضراتي في كلية الفنون الجميلة، ثم جرفني التيار ناحية السياسة حين انضمتُ إلى الجمعية المصرية من أجل التغيير التي تشكلت قبل سنوات من ثورة يناير.

حين رحلتُ أُمِّي، حولت جزءاً من الشقة الواسعة التي ورثتها عنها بوسط القاهرة إلى أتيليه يقصده الرسامون ومحبو الفن وطلابي في الكلية، شغلني كل ذلك عن التفكير في تكرار تجربة الزواج ثانية، حتى أنني رفضتُ عدة عروض بعضها كان مناسباً برأي البعض حينها، تعودتُ أن أعيش وحيدة، ربما نسيت في خضم كل ذلك أنني امرأة يمكن أن يأتيها المخاض، ربما داعبني ذلك قديماً كما يداعب كل فتاة في مستقبل العمر، ثم تلاشى مع الزمن والأحداث إلى أن أصبح أمراً لا يمكن تصديقه.

حين بدأتُ أصدق ذلك، كان عليّ وقبل أن أفكر في ردة فعل شادي أن أفكر أولاً هل أحتاج أنا إلى هذا الجنين في هذه الأوقات المضطربة؟

طبقاً لما ورد بمخطوطة السارد العليم، احتاج منك الأمر يا سلمى لعدة أيام، كنتِ خلالها تبحثين عن إجابة للسؤال الصعب، قررتِ أن تتركِي الأمور لإحساسك، كما تعودتِ دائماً في مثل هذه الأمور الشائكة، قادمكِ إحساسك إلى أن تتمسكي بهذا الجنين.

الغريب أن أسبابكِ في موقفكِ ذلك، هي نفس الأسباب التي كنتُ أرى أنا من وجهة نظري أنها مدعاة لرفض هذا الجنين، ما زلتُ أذكر تلك الليلة في الأتيليه، في مطبخكِ كنتُ أجلس بينما كيتي - قطتك المدللة - تتمطع على ساقي، فارتُ القهوة رغم أنك تقفين أمامها تتابعينها، كنت مضطربة وحائرة، رغم أنكِ قبلها رتبتِ جيداً حديثكِ وطريقتكِ ومدخلكِ الذي يمكن أن تنفذي من خلاله إلى عقلي في محاولة لإقناعي بتقبُّل ما قد ذهبَ إليه.

وضعتِ قهوتكِ الغامقة جانباً، لم تُمهدي للموضوع كما خططتِ سابقاً، تحسستِ بطنكِ وأنتِ تجلسين قبالي، ثم جاءتِ ابتسامتكِ الهادئة المترقبة.

- أنا حامل.

هكذا خرجتِ منكِ بنبرة سيدة شرقية تزفُ بشرى المولود الأول لرجلها.

صوتك كان متقطعاً وضعيفاً لكنه كان حاسماً، لم أسمع جيداً تلك الجملة القصيرة حينها، أو سمعتها ولم أدرك ما الذي يمكن أن تعنيه جملة قصيرة كهذه "أنا حامل".

—ایہ؟

... إجابة منطقية خبر صادم يُلقى بطريقة روتينية.

أعادت سلمى الجملة بوتيرة متقطعة وأكثر جدية.

- أنا ااا حااا امل يا شادی.

مطت حرف الياء عند النطق وهى تنظر إلى عينيه المحدثتين.

"هَزَّ شَادِي رَأْسَهُ مُسْتَفْهِمًا أَوْ مُنْدهِشًا أَوْ مُصْدمًا. الأَدَقُّ أَنَّهُ كَانَ كُلَّ ذَلِكَ. رَفَعَ حَاجِبِيهِ لِأَعْلَى. بَهْدْوٍ أَنْزَلَ كَيْتِي مِنْ فَوْقِ سَاقِهِ. ظَلَّ صَامِتًا. رَبِّهَا حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةَ لَمْ يَأْخُذْ مَا سَمِعَهُ عَلَى مُحْمَلِ الْجَدِّ أَوْ كَأَنَّهُ لَا يَرِيدُ.

سلمى راحت تُفسّر له كيف حدث ذلك في محاولة لتبرئة ساحتها، كانت تُراقب ملامحه وانفعالاته وحركات يديه اللاإرادية، حين انتهت لم تعطه فرصة للتعليق على ذلك، أوضحت له إنها في أشد الحاجة لهذا الجنين الآن، أحمل ما جادت به الأيام عليها في سنواتها الأخيرة، هكذا قالت.

شادي ظلَّ صامتًا ومصدومًا، كان يريد أن يستوعب، كأن حمل سلمي
أُحجية جديدة لا يفهمها تُضاف إلى كل تلك الأجاجي التي تُحاصره منذ أن
هبط مصر، هو لا يعرف مثلًا لماذا ثار الناس على مبارك ثم تعاطفوا معه؟
لم يستوعب وصول الإخوان إلى الحكم، ولا يفهم كيف أنه بعد شهور
قليلة من ذلك احتشد الناس ثانية بالميادين في ثورة ثانية من أجل خلعهم؟
لا يحيط شادي بتلك العلاقات المريبة والترتيبات السرية التي حدثت
وتحدث حتى وصل الحال لما صار إليه.

أسئلة مثل رءوس الدبابيس تلدغ عقل شادي دون إجابة:
" في هذا البلد المُشفر".

أجب مُستعينا بكل ما لديك من عبث على هذه الأسئلة الإجبارية:

- ١- من الخونة العملاء؟
- ٢- من الوطنيون الشرفاء؟
- ٣- من يناطح من؟ من يساند من؟
- ٤- لماذا حدث كل ما حدث؟
- ٥- كيف يحدث كل ما يحدث؟

- تَحْيَرُ الإِجَابَةِ الصَّحِيحَةِ مِمَّا بَيْنَ الْأَقْوَاسِ :

- ١- الثورة (ضرب من ضروب الوطنية - صنف من صنوف الخيانة).
 - ٢- هذا الشعب (يسعى إلى الحرية والحياة الجديدة - يحن إلى خنوعه القديم).
- ماذا يحدث لو: لم يحدث كل ما حدث؟
- بِمَ تُفَسَّرُ مَا يَلِي:

- ١- سلمى تنسى حبوب منع الحمل.
 - ٢- عودة العقيد حازم الشناوي إلى عمله مرفوعاً على الأكتاف
 - ٣- يوسف يدبج سلسلة مقالات جديدة يغسل فيها يديه من الإخوان
 - ٤- الدكتور شاكر عودة المناضل اليساري القديم يقدم برنامجاً على شاشة مملوكة لأحد أكبر رجال الأعمال ويصف الثورة بفجر كاذب بشر به أنبياء مراهقون.
- والقائمة طويلة، والأسئلة إجبارية، ودون إجابات، كأنها ألغاز مُبْهِمَةٌ، كأن هناك من أراد أن يرسم الجميع في فخ الاختبارات القاسية.
- ... "رغم كل توسلاتك ومحاولاتك في إقناعي إلا أنني رفضتُ بقاء هذا الجنين، خيرتُك بين الجنين وبين استمرار علاقتنا، أعطيتك أسبوعاً للتفكير،

كنتُ مرهقاً وفي كامل إحباطي، خاصة أن الحكومة رفضت مشروعاتي وخططي العلمية التي قدّمتها، رئيس الحكومة رفض مقابلي، اكتفى سكرتيه بشكري، وردّ باقتضاب على أسباب الرفض، بأن البلد لا تمتلك الآن رفاهية تنفيذ تلك المشروعات الطموحة الآن!

كنتُ قد قدّمتُ عدة مشروعات، أهمها في نظري هو تطوير مركز البحوث وجعله على غرار المراكز البحثية الغربية الكبرى، ليستقطب تلك العقول الجبارة التي قابلتها هنا والتي يحوي هذا البلد مئات منها وآلاف، طاقات ضخمة تمتلك رؤى غير مسبوقة، تحوّل بعضهم إلى مجرد كهنة في معبد الإهمال والجمود، وبعضهم تبوّأ مطرحه على الرف منذ زمن دون أن يعبأ حتى بأن ينفذ عن نفسه الغبار والأتربة، وآخرون يعيشون على حلم مُدخر أن تتخطفهم أحد المراكز البحثية في أمريكا أو أوروبا والتي لا يملكون من مراسلتها.

الغريب أن البرامج التلفزيونية التي كثيرًا ما استضافتني وقدّمتني كأنموذج للشباب المصري قد بدأت في مهاجمتي بقسوة بعد أن هاجمتُ أنا في إحداها هذا البلد ووصفته بأنه مفرخة الجمود الأبدي عقب رفض خططي ومشروعاتي.

ثم ما الذي يمكن أن يحدث أيضًا في هذا السياق؟ ما الذي يمكن أن يقدمه لنا السارد في إطار استدراجنا عبر السرد إلى فخِّ المنصوب على مهل؟

- الفيديو القديم المفبرك والمصطنع الذي حدثتني عنه في برلين، وكما جاء في مخطوطة السارد أن الفيديو ظهر على مواقع التواصل الاجتماعي أولاً قبل أن يبرزه أحد مقدمي البرامج المعروف بعدائه الشديد للثورة تحت جملة قبيحة

"الناشطة الثورية كانت تبتز طلابها جنسيًا".

ذكر السارد أن شادي وإن صُدِمَ بالمقطع القصير الذي تبدو من خلاله سلمى داخل أحد ورش أكاديمية الفنون بين أحضان أحد طلابها فإنه لم يتشكك في أنه مجرد فيديو مُلقَق وصناعة أمنية كما ذكرت له سلمى.

لم نعرف يا سلمى من راء تسريب ذلك الفيديو، لم يوضح السارد العليم ذلك، كنتِ تظنين أنه زوجك السابق، لم يشر السارد إلى حازم كما تعلمين، كما لم يتبادر ذلك إلى ذهننا في أثناء الحكاية، لكننا الآن نستطيع أن نجزم بذلك؛ لأننا نرى كل شيء بوضوح بعد أن صار فضاء الحكاية ملكنا.



أواصل جولتي في أجواء كرنفال الثلج الذي بدت عليه عوالمِي.

ماذا يمكنني أن أفعل في مُتحف الشمع الكبير الذي صار العالم إليه؟

أداعِبُ تلك التماثيل المُحَنطة، أخطف جريدة من يد الرجل الجالس أمام محله، أخذ سيجارة مشتعلة من فم هذا الرجل النحيف، أضرب هذه السيدة البدينة على مؤخرتها المترهلة، أحاول إثارة أحقادهم نحوي فأقفز في الهواء أمامهم، أصفق في وجوههم، أضحك بصوت عالٍ، ربما يشعرون الآن بالغضب أو بالحسرة، أصرخ، أستمتع بصدى صوتي الذي يرتج في الأنحاء الأربعة.

كيف يمكن إنقاذ العالم وإفاقته من سُباته؟

لن يستيقظ العالم سوى بحكايات جديدة تداعب أهدابه، وتستفز خياله.
لا يمكن لهذا الجمود أن يكون هو النهاية، العالم لن ينتهي هكذا، سينتهي
العالم حين لا يكون هناك المزيد من الحكايات.

أمر من أمام مركز البحوث، ذكريات شادي هنا كانت موجهة، لم يكن
المركز سوى مقبرة فخمة تليق بأن يسكن داخلها جسد عالم فيزياء يمتلك
طموحات مُزعجة ؛ انصرفُ سريعًا إلى المقهى الشهير بوسط القاهرة،
المقهى معروف بأنه تجمع للمثقفين والمفكرين أو من يظنون أنفسهم كذلك،
كما يحفل بتجمعات شبابية تقصده من أجل أهداف عدة، كثيرًا ما كان شادي
وسلمى يقصدان هذا المقهى لاستقطاع وقت من الراحة والتقاط الأنفاس
في أثناء مشاركتهما في الفاعليات الثورية العديدة التي راجت خلال فترة
حكايتهما، وقتها كان المقهى يفيض بالمناقشات الملهمة، وبالخلافات الحادة،
وبقراءات عديدة للحاضر وللأحداث الجارية، كثيرًا ما التقيا هنا بوجوه
سياسية وعلمية، صحفيين وفنانين، كُتّابًا وأدباء. وكثيرًا ما سقطت أمامهما
هنا قاماتٌ مقدسة، وانحنت هاماتٌ كان البعض يعتقد أنها لا تنحني.

يبدو المقهى الآن خاليًا تقريبًا سوى من قليلين يتوزعون على طاولات
متناثرة هنا وهناك، البعض ينقر بأصابعه الجامدة على شاشات الهواتف،

والبعض يخلق مع سحب الدخان التي لم يسمح لها الجمود الذي ضرب
العالم بأن تتلاشى في الفراغ.

المرسم قريب من هنا، أحتُ الخطو إليه، يجب أن أعرف ماذا يحدث داخل
الغرفة المغلقة، ما يحدث ليس ببعيد عما أصاب العالم من حولي، هم صنّاع
هذه المؤامرة.

سيبدو جسدك أكثر جمالاً يا سلمى داخل هذه الثلاجة التي تحوي العالم
كله الآن.



فشلتُ في احتوائك يا سلمى هذا ما يظهر لي الآن جلياً كمُسَلِّمة علمية قديمة، كان الأسبوع الذي حددته لك مهلةً قد انتهى، الأسبوع الذي كنت أنتِ في غنى عنه ؛ لأن إجابتك كانت حاسمة منذ البداية، رغم ذلك حاولتُ أن أكون بجانبك في هذه اللحظات، كنتُ أدرك مدى عمق الجرح، خاصة بعد الفيديو القديم الذي شاع وانتشر، حد أنك توقفتِ عن الذهاب إلى أكاديمية الفنون بعد أن تعمَّد طلابك عرض الفيديو في قاعة المحاضرات أمام عينيك، لم تردِّي على مكالماتي العديدة، وعندما ذهبتُ إليك في الأتيليه لم أستطع حينها أن أحتوي غضبك الذي كان أكبر من أن يُحتَوَى.

... لم يجد شادي ما يُقدِّمه لسلمى في فورانها الغاضب سوى أن يعرض عليها العودة مرة أخرى إلى برلين مع الاحتفاظ بالجنين، ذكر لها إنه راسل

معهد ماكس بلانك وأنهم رحبوا بعودته من أجل أن يستكمل خُططه
ومشروعاته العلمية المؤجَّلة هناك.

اعتبرت سلمى ذلك مجرد مساومة، أنانية، لا تفكر سوى في مشروعاتك
يا دكتور، لم يعد هناك مبررٌ لوجودنا هنا يا سلمى. ردَّ شادي.

- عُدَّ وحده.

- وأنتِ؟

- سأرُبي ابني هنا.

- مثالية فارغة. شعارات جوفاء كشعارات الثورة.

وكأن شادي قد نكأ الجرح النازف.

... "بالفعل فشلتُ في احتوائك، ولم أستطع حينها سوى أن أُشعل
مزيداً من غضبك، حدَّ أنك لملتِ أشياءي ومتعلقاتي لديك وقذفتِ بها في
وجهي".

ها نحن نعود إلى ذات النقطة في مسار الحكاية، إلى تلك اللحظة الملتبسة
التي عانتها سلمى ونفذ منها حازم إليها، ثم كان هذا الذي نحن فيه الآن.

الآن أستطيع أن أجزم أننا سنظلُ خالدين هنا في هذه الغرفة، وبحكم عملي أستاذًا في النقد قرأ مئات الروايات فإنني أستشعر الآن عمق الأزيمة والمأزق الذي يعاينه السارد العليم حاليًا، هو يريد أن ينهي هذه الحكاية ويفتح قوسين ويكتب الكلمة التي تمثل نهاية العناء دومًا (تمت) وقتها سيشعر بما يشبه الوصول إلى الأورجانيزم.

بعدها ستُغلق أبواب الحكاية على شخوصها كأبواب قلعة قديمة، سيظلُ المتن إلى الأبد ككتاب مُقدس دون أن يملك أحد له تعديلًا أو تحريفًا، سيلوك الناس الحكاية آلاف المرات باستمتاع غريب، دون أن ينتبهوا إلى ذلك الضجيج الصاخب لمن هم خلف تلك الأبواب المغلقة، ودون أن يدركوا أن ما يحكونه مجرد فقاعات متناثرة تخرج من فم السارد العليم.

نحن الآن في طريقنا لنخلع عنا هذه الحكاية كما يخلع أحدكم قميصاً لديه
ينبئه لذكريات موجعة، خاصة بعد أن رفضنا هذا التابع القاسي للأحداث
الذي قاد إلى هذه الغرفة المغلقة، قد يتبارى الرواة من أجل إخفاء ذلك عبر
الآعيبهم السردية الكثيرة، من أجل أن يظل قمعهم لشخصهم مُموهاً
ومطموساً، لذا يجتهدون كثيراً في نسج حكايات جميلة، يُجهدون مُخيلتهم
في خلق عوالم غريبة، أو في إحداث مفارقات ومفاجآت مثيرة تكسر التوقع
المحتمل لدى القراء، يقدحون أذهانهم رغبة في الإيهام بأن ما يسوقونه
مُبرراً تماماً، لكن كل ذلك سيبدو في النهاية مجرد طبقة سميكة من الحيل
والمكر المفضوح، يقبع تحتها قمعهم جلياً واضحاً.

نتورط نحن دائماً كشخص للحوكايات في كل ذلك يا سلمى، لنجد
أنفسنا في النهاية نسير عبر هذا المسار الإجاباري الذي مهّده وعبّده لنا السرد،
هذا ما حدث حين سيق شادي عبر هيمنة السرد إلى هذا المشهد المثير الذي
كُتب ببراءة ليتحوّل فيه إلى مجرد رجل شرقي أحمق يطلق النار على حبيبته
الخائنة وعلى صديق عمره الذي أفترش هذه الحبيبة الخائنة ليسبر أغوارها
العميقة، عفواً أنا أقول ذلك من وجهة نظر السرد بالطبع.

تاريخ السرد حافل بأمثلة كثيرة تبرهن على صدق ما أدعيه، أنا لا أعرف
مثلاً لماذا يلجأ رواة الحكايات عادة إلى ذلك التمييز الفج بين شخص

حكاياتهم عبر ما يطلقون عليه أبطال الحكايات وما يقدرّون له أن يكون مجرد شخصية ثانوية، لا أستوعب تلك الأسس والمقاييس التي بنوا عليها هذا التقسيم المغلوط، خذي مثلاً هذا المثال من حكايتنا "عم نجيب أذى" نادل البار العجوز الصامتُ دائماً - حتى وهو معنا الآن، وأظنُّ أنه سيظل صامتاً إلى الأبد - نجيب أذى كان الخلفية الصامته لكثير من أحداث حكايتنا، لا تنسوا أن بار الديك الذهبي كان هو الأتون الذي نضجت تحته حكايتنا على مهل، النادل العجوز كان هو الوحيد الذي لا يغفل عقله، ولا تأخذه سِنَّةٌ من سُكر، وهو الوحيد الذي كان يستمع إلى أحاديثكم حين تخضعون لسطوة الخمر، كل تفاصيل حكايتنا كانت دون أن ندري تُصَبُّ هناك بين يديه، تمتص خرقة الصفراء حين ينحني أمامنا ليمسح المفارش كل ما نثرناه على الطاولات من أحاديثنا أو سبابنا، هي التي كانت تجفف دموع نزار السوري حين تتساقط على الطاولة أمامنا عندما يتذكر زوجته وطفله الوحيدة وهو يضرب كفّاً بكفٍّ لأنه لا يعلم إن كانت هناك في حلب، أم هنا في القاهرة كما ذكر له البعض، أو نزحتا إلى تركيا مع آلاف اللاجئين حسب رواية بعض الشهود، ثم من غير نجيب أذى يا سلمى كان فطناً لمحاولات حازم الخفية من أجل اصطيداك. مآزق السارد العليم قد يتسع وقد يتخذ أشكالاً عبثية ربما لن يكون في قدرة أحد أن يتحملها؛ لكم أن تتصوروا كيف يكون الوضع حين

تتبه شخوص الروايات (هؤلاء الذين تجسّدوا في أذهاننا كأبطال كلاسيكين) لتلك الفخاخ التي تم نصبها لهم بإحكام عبر سرد مُتّنع ولثيم خلال تاريخ طويل من القمع، سيبدو المشهد مُرعباً، وسيقود الجميع إلى ورطة حقيقية إذا ما تشققت صفحات الحكايات عن أبطالها، سيعاني كثيراً شكسبير وسرفانتس وديستوفسكي ومخفوظ وماركيز وغيرهم من أجل استعادة السيطرة والقمع أمام محاولات هاملت ومدام بوفاري وأوديب وأنا كارنينا ومجوب عبد الدايم وآخرين؛ لأنهم حتماً حين تجتاحهم حمى التمرد كما تجتاحنا الآن سيركلون بأقدامهم أبواب الحكايات المغلقة عليهم، سيدقون بكعوب أحذيتهم على المنضدة، ويقفون كدمى صغيرة مزعجة على سطح الكتب معلنين تمردهم، ومتهمين بأبادة السرد بالتسلط، رافضين المحاولات الحثيثة الساعية إلى إخضاعهم مرة أخرى إلى هيمنة السرد أو العودة مرة أخرى إلى سجن الأوراق القديمة الصفراء إلا بعد أن يستمع الجميع إلى وجهة نظرهم المطالبة بإعادة السرد من جديد، ومن منظور آخر، بخيال أكثر ثراءً بعد أن تُتاح لهم الحرية الكاملة في تحديد مصيرهم.

ربما هذا ما يدفعنا الآن إلى التمرد على سطوة ذلك الخيال العتيق الذي يارسه السارد العليم علينا نحن أبطاله الذين أنجبنا على الورق بمداد أقلامه.

قد يكون في استطاعتنا إذا ما واصلنا هذا التمرد ولم نخضع لشروطه أو لعقابه المُنتظر أن نكتب حكايتنا بأنفسنا.

من الرائع أن يمتلك المرء حريه كهذه. أن تجلس أمام ورقة بيضاء تسود عالمك بنفسك وتكتب حكايتك دون أن يروياها عنك سارد مُتسلط. تحكي تاريخ العالم من وجهة نظر شخصية، تحذف وتضيف، تقتلع شخصيات من سياقها وتطوح بها إلى أقرب صندوق نفايات كأنها لم تمرّ جوارك، وتزرع أخرى بحديقة العالم، ترويها بمدادك إلى أن تستوي خلقاً جميلاً، تمنحها كل ما تحبُّ، ثم تعطيها حريتها في أن تكتب حكايتها مثلك.



صعدتُ إلى المبنى العتيق الذي يوجد المرسوم في الطابق الثاني منه، تسحبتُ للداخل، بهدوء اتخذتُ خطواتي عبر الصالة الواسعة التي تتخذ شكل حرف L، جدران المرسوم خالية تمامًا من اللوحات الفنية سواء التي اقتنتها سلمى من عيون الفن العالمي أو التي سبق أن ابتكرتها خلال مسيرتها الفنية والتي ظلت تزين جدران وأركان المرسوم.

على أحد المقاعد كانت "كيّتي" ترقد جامدة ككلب أهل الكهف، لم تهزول ناحيتي، ولم تخمش أظفارها حذائي، على منضدة مجاورة وجدتُ بعض الكُتَيّيات الدينية، تصفحتها سريعًا، لفتُ انتباهي عنوان إحداها "آداب النكاح في الإسلام".

على مقعد سلمى الهزاز وجدتُ إسدالاً أسود اللون. يبدو أن الأمور قد سارت بعيدًا بالبجعة الثائرة دومًا، والمنكسرة أخيرًا.

بهذوء أخذتُ طريقي إلى الغرفة، وضعتُ أذني على الباب المغلق، يأتيني صمت الغرفة باردًا كمصادفة توشوش في أذنيك بسر غامض، بحذر وببطء افتح الباب المغلق، بالتأكيد أعرفُ ما يحويه الداخل، لأنني أحد صُناع الحدث، رغم ذلك هالني المشهد، كأنني لم أكن متورطًا فيه منذ البداية، شادي منفرج الساقين، يقبض على طبنجة حازم الميري بيد متكلسة، يبسط ذراعه على امتداده، يحرق بعين واحدة ذاهلة، العين الأخرى مغلقة، يتخذ وضع التصويب، يضغط على شفتيه بمقدمة أسنانه، رغم خرسه أسمعهم يزوم، غضب يتقلب بداخله على جمر، لكنه ليس كافيًا ليدير الماكينة الباردة، ليشعل الحركة بالتمثال العاجز.

ما أقسى اللحظة ساعتها يا شادي!

أنا عشتُها معك، تسمرتُ عند الباب كما تسمرتَ حين رأيتَ، صعقني تيار الصدمة وأنا الذي كنتُ أعرف ما لا تعرفه، كدتُ أتيقنًا حينما بدأنا معًا نستوعب تفاصيل المشهد، حازم كان يجاهد ليظل كما هو، لكنني لم أشاهد القلم في المحبرة.

هناك مفاجأة لك يا شادي لن أفصح عنها الآن، ربما سأفعل حين تطلق النار.

توقفتُ اليوم يا "يوسف" عند مقالك الأخير في الصفحة الأخيرة
بالصحيفة التي ترأس تحريرها، مقالك يدشن للعصر الجديد، ويبشر بالفجر
المشرق، وبالحير الموعود الذي ينتظر هذا البلد الذي عانى طويلاً دون أن يجد
من يحنو عليه.

أظنُّ أنني قرأتُ هذا المقال لك قبل عامين أو ما يزيد، ربما لم يتغير فيه
سوى بعض الأسماء وبعض التفاصيل القليلة، هنا مثلاً تستعين ببعض أقوال
ناصر الخالدة عن الكفاح وإعادة البناء، مُستلهمًا في الوقت ذاته روح القومية
العربية، وما تعانيه المنطقة من مؤامرات عالمية كبرى، في مقالات سابقة كنت
تستلهم التجربة الإسلامية ومشروعها القائم على العدل والمساواة مُبشراً
بمشروعها الضخم من أجل النهضة.

لم أعد مندهشاً من قدرتك العجيبة وغير المحدودة على تغيير مساحيق
ومكياجات وجهك وسرعة إزالتها والتخلص من آثارها ورتوشها تمهيداً
للشروع في عمل فول ميك أب جديد بما يتناسب مع الموضة الرائجة،
دهشتي نابعة فقط من قدرة الناس على النسيان، ربما هم متورطون معك
بشكل يسمح لهم تمرير ذلك في هدوء.

أظنُّ يا نزار أن مأساتك تجسيد حي للربيع العربي أو ما يسميه سيادة
العقيد "الخراء"، أنت حتى الآن لا تعرف أين تكون أسرتك، ولا إن كانت

حية ترزق أم سَوَّتها الغارات بالأرض؟ لكن صدقني ماذا يمكن أن ينتج عن أنايتك ونذالتك سوى أن تظل هكذا إلى الأبد حائرًا قلقًا؟

سيادة العقيد بعُريه وشحمه، مجردًا من برستيج المهنة، دون النسر والنجوم والكاب والطبنجة التي ليست في حوزته الآن، والأهم أنه هنا في غرفة سلمى، وليس في مبنى الجهاز، يفترش الأرض لأن ذائقته الجنسية تفضل هذا الوضع الذي يُتيح له أن يلتهم فريسته على رقعة أوسع من مجرد سرير.

ما رأيك يا سيادة العقيد في هذا النوع المبتكر من التعذيب؟ ملعقتك منتصبية في الهواء، بجوارها طبق مجوف لطالما تمت أن تغترف منه، أن تلحس قعره، لكن الملعقة لا تطول الطبق، يسيل اللعاب ويبقى الجوع، تحترق الأحشاء ويظل الشبق، مسلتك الشاخنة ترتكز في وقفته الأبدية على قاعدتها دون أن تستطيع الحبو لتسرح على هذا الجسد العاري الذي يستفز خيالها.

ربما هذا أشد تنكيلاً من ربط الضحية في مروحة السقف، وأكثر وجعاً من وضع قضيب الحديد في المؤخرة.

اعترف تمامًا يا سلمى أنني لم أكن في البداية أتوقع أن يحدث ذلك، بل لم يكن خيالي يجرؤ أن يتصور أن هذا قد يحدث في النهاية، أنا لا أقصد الخطيئة،

الخطيئة فعل إنساني مُحتمل في كل لحظة، أقصد هنا الخيال الفاجر، السياق حين يصبح فجًا، فيدفع أجسادنا المُلتهبة بالقروح في بحر من الكحل، هنا لا يتولّد الألم فقط، تنفجر أيضًا الإثارة، وليس هناك ما هو أشد إثارة وألمًا في ذات اللحظة من أن تفتح سلمى ساقها للعقيد حازم الشناوي على وجه الخصوص.

صدقيني أنا الآن أشعر بكل تلك الإثارة وبكل هذا الألم كأني مغموس في بحر الكحل.

شيء ما تغير في نظرة عينيك، شيء ما لا أستطيع تحديده، هي ليست هذه العين المشاكسة، ليست هذه النظرة الخاطفة التي أفقدت شادي توازنه حينها شاهدك لأول مرة في برلين.

كيف يبدو جسد فراشة محترقة؟

أطوف حول جسد سلمى في رقدته المتجمدة، الجسد الرقيق في قميص شفاف، لم أكن أعلم قبل ذلك أن جسد الفراشة المحترق يزداد بهجة ووهجًا.

لا أعرف كيف أقنعت جسدك الحرب أن يقبع تحت القماش والنقاب؟

وكيف تخلصت من شغفك القديم بالتخفف من ملابسك؟

أنا أعرف أنك كنت تفضلين أن تتخففي من ملابسك تمامًا عندما تكونين وحيدة، كنت تشعرين بحريتك أكثر، تاريخ الثورات يحفل دائمًا بنساء متخففاتٍ من أغلال الملابس الثقيلة.

لكن التاريخ لم يذكر لنا ماذا حدث لتلك الأجساد الحرة حين ارتدت الثورات على أعقابها.

في طوافي حول جسد سلمى أتابع من الخلف ما يبدو مثل نصف قبة واضحة، النصف الآخر مطمور بفعل جلستها، مؤخرة سلمى مُستديرة كطبق، ملفوفة مثل إسطوانة، تشب لأعلى، مكسوة في غير امتلاء ملحوظ وهو ما يختلف كلية عما جاء في وصفي الأول المغلوط.

"لها ردفان ممتلئان، مما يجعل هيئة مؤخرتها المكتنزة تأخذ شكل الانحناء إلى الأسفل تحت ضغط امتلائها، وهو ما يؤدي إلى عدم اتساق هذه المؤخرة مع رشاقة باقي أجزاء جسدها"

يبدو أن الجمود يتيح لك أن ترى الأشياء بنظرة أعمق، الإستاتيكا دائمًا مدهشة.

"أنا لا أعرف هل أنت هنا أيها المناضل العظيم، قطب اليسار والناقد الكبير د. شاكر عودة من أجل التنظير كالعادة لهذا المشهد الفج الذي تبدو عليه تلميذتك التي أوشيت بها؟

أنا لا ألوّمك يا سيدي، وأقدر تمامًا معاناتك، لكن هذه اللحظة لا تحمل التنظير، وأنا لستُ هنا من أجل اجترار ذكريات موجعة، أنا هنا في محاولة أخيرة لأنقاذ العالم من الجمود.

لن ينقذ العالم سوى خيال عميق يطرح نهاية جديدة لحكايتنا هذه.

أنت لن تطلق النار على أحد يا شادي، عليك أن تفكر في هذه اللحظة التي تقبض فيها على الطبنجة بعمق ليس في مصيرنا هنا فقط بل في مصير الإنسانية كلها إن استسلمت كعادتها للخيال البائس الذي يفرضه عليها دومًا سياقها.

أنت لا ينقصك الخيال ولا برود عالم الفيزياء.

إليكُم هذا التابع الذي يمكن أن يخرجنا من ورطتنا، ويُعيد للعالم تدفقه ثانية.



"أعاد شادي الطبنجة فوق الطاولة، ابتسم بسخرية، ترجّل بخطوات هادئة إلى المطبخ، أخذ يدندن بأغنية قديمة وهو يصنع لنفسه فنجاناً من القهوة.

لم يتزحزح حازم ولا سلمى من مطرحتها. فقط ارتبكا. هزت سلمى رأسها، مَطَّ لها حازم شفتيه للأمام.

عاد شادي يدندن بالأغنية القديمة ذاتها، وضع مقعداً بشكل مقلوب قبالتها، جلس ماداً ساقيه أمامه، أخذ يمتص من فنجانه بهدوء.

سلمى وحازم تبادلوا نظرات صامتة بعيون مترقبة، توقعاً أن شادي يخطط لما هو أبشع. أخرج شادي هاتفه، توقع حازم أنه سيقوم بتصويرهما، لم يُبدِ اعتراضاً على ذلك، شادي لم يفعل، ظل يقلب في هاتفه كأنه يجلس داخل عربة مترو يستهلك وقته.

ساعة كاملة تمر. ساعة من الصمت والرعب والدهشة والهدوء أيضاً، ثم تمر ساعة ثانية، صنع خلالها شادي فنجانا آخر من القهوة، يظهر القلق على حازم، يضطرب توازنه، وتمل أعصابه من هذا الهدوء المصطنع الذي يديه.

سلمى لم تكن تفكر في شيء، فقط تضع رأسها بين ساقها، كانت صادقة حين قالت قبل ذلك ليس هناك ما يمكن أن أخسره، فقط فراشة المولان روج تطن في أذنيها، خارج هذا الطين تكاد لا تشعر بشيء.

قطع ذلك رنين جرس الباب. من يمكن أن يأتي في هذه اللحظات، ثم ما أهميته للحدث الذي يتمحور الآن أيًا من كان هو؟ الغريب أن شادي قام بتلقائية واتجه نحو الباب، كان جامع القمامة.

عندما عاد شادي سأل سلمى بنبرة محايدة: فيه زبالة؟!

لم ترد سلمى. أغمضت عينيها بانكسار. التقط شادي عازلاً طيباً من على الأرض. رفع حاجبيه لأعلى: فيه زبالة!

رمى الواقى الذكري في سلة مهملات قريبة، ثم وضع قدمه فوق المقعد، واتكأ بيده على ساقه، وأخذ يدعك عينيه كأنه يفكر فيها هو عميق.

يتوهج خياله، يبرق فيتقد ذهنه، لم يعد يرى سلمى ولا حازم ولا تفاصيل ذلك المشهد المُرّك المنغمس به الجميع الآن؛ خياله حينها كان يعصب عينيه عن كل ما حوله.

روحه المحلقة تنظر لما هو أعمق، ترفرف بعيداً.. هناك في وسط القاهرة. فوق لوحة الإعلانات التي تلوح له الآن كأنها هنا في غرفة سلمى، انتهى من وضع كل خطوط وتفاصيل المشهد البديع الذي سيوقف كل تلك التدايعات الإجبارية المحتملة، والذي سيضع الجميع بعد ذلك في خانة التأويل والتفسير؛ لذا لم يهتم أن يُلقي نظرة أخيرة على سلمى وحازم. استدار للخلف، سار بخطواتٍ رزينة هادئة.

مسح على شعر كيتي المتربعة على المقعد، ثم خرج وأغلق باب الأتيليه بهدوء.

(أول من شاهد ذلك كان سائق تاكسي يبحث عن زاوية جانبية في هذا الميدان الواسع ليفرغ مثنائه، وربما وجد في أسفل لوحة الإعلانات الضخمة التي بدت له من بعيد مكاناً مثاليًا لممارسة هذا الطقس الفسيولوجي الملح، لذا اتجه صوبها على عجل، الميدان الشهير كان تقريبًا خاليًا من المارة في هذا الوقت المبكر من الصباح سوى من بعض عمال تشغيل المترو الذين كانوا يهبطون أحد الأنفاق.

وقعت عين سائق التاكسي على هذا المشهد عبر الواجهة الزجاجية الأمامية لسيارته والتي بدأت تقترب من بؤرته رويدًا رويدًا، ظنَّ في البداية

أنها مجرد حيلة جديدة من حيل شركات الدعاية والإعلان لجذب الانتباه إلى مُعلنها، لكنه لم يشغل ذهنه في تفسير ما الذي تريد أن تقوله شركة الدعاية من خلال ذلك، كان كل همهم أن يتخلص من بوله الذي ادخره طيلة الليلة الفائتة في أثناء وردية عمله على هذه السيارة، عندما صار قبالتة كان ما يراه مُبهماً أو صادمًا أو مرعبًا، وربما مُبهماً وصادمًا ومرعبًا معًا.

أوقفَ الرجل سيارته وترجّل بسرعة، الحقيقة الجلدية تكشفت له حينها بدأت قطرات بوله المتعجلة تضرب جذع العمود المعدني الذي يحمل لوحة الإعلانات، لتصدر نقيراً خفيفاً مع سحابة رقيقة من بخار متصاعد، حينها شعر سائق التاكسي ببعض الارتياح الذي أتاح له أن يرفع رأسه لأعلى ليتأمل ما شاهده على عجل منذ لحظات.

فوق رأسه بعدة أمتار قليلة (ربما تتجاوز العشرة أمتار) كان هناك ساقان تتدليان في بنطال من الجينز الأزرق ينتهيان بزوج من حذاء جلد إيطالي، تأرجحان ببطء بندول الساعة، اتخذ سائق التاكسي عدة خطوات للخلف مذعوراً دون أن يبرأ من بوله الذي ظل يتساقط كقطرات مرتبكة داخل سراوله، عاود ثانية النظر لأعلى مُرتجفاً؛ ليتأكد من حقيقة ما شاهد.

اندفع السائق تجاه سيارته مذعوراً، يتعثر فيسقط، ثم يقوم ويجري فتزلق قدماه ثانية، لينهض مهرولاً دون أن يغلق سوستة بنطاله، كان مُضطرباً أن يدور

بسيارته بمحاذاة لوحة الإعلانات تمامًا حتى يهرب من المكان. حينها كانت التفاصيل واضحة تمامًا أمام عينيه، شادي في جاكيت من الجلد كانت قد أهدته له سلمى، يتدلى من رقبته عبر حبل متين مُعلق بلافتة الإعلانات الضخمة كعنقود عنب متمرد يريد أن ينفلت من كرمته قبل أن تطاله يد أحد.

الجو كان صحوًا، السماء نقية لا تحدش صفوها شائبة، أشعة الشمس في خيوط رقيقة بدأت تتعامد على وجه شادي الذي بدا صافيًا كمرآة مصقولة، بعد عدة دقائق كان هناك جمع من المارة يقفون بمحاذاة لوحة الإعلانات يشكلون نصف دائرة مدققين النظر إلى حيث الحدث الصادم والمربع، الموحى والمُلمهم.

حين تكون أمام مشهد كهذا، ستقف مبهورًا مشدودًا وأنت تحاول أن تتمالك أعصابك، وتسيطر على إيقاع نبضك المتسارع، قد تغمض عينيك بعض الوقت في محاولة لاستيعاب المشهد وتفاصيله، بعدها ستشرد بعيدًا، دون أن تفكر في شيء، حين تفيق من الصدمة، ستحاول أن تضيي تفسيرك الخاص للحدث، وهو ما قد يختلف عن تفسير هذا الذي يقف بجوارك يدعك لحم وجهه بعدما أفاق لتوّه من صدمة مشابهة.

في عصر السوشيال ميديا ومواقع التواصل والنميمة يمكن لآخرين أن يأتوا إلى ها هنا دون أن يبرحوا مقاعدهم، خاصة أن البعض قد تطوَّع

وأخرج هاتفه ليقوم بتسجيل تلك اللحظة وتصويرها كأنه أحد صُناعها، لحظة كهذه لا يمكن أن تفوتك، البعض يصور الإسكافي وهو يرقع نعله ثم ينشر ذلك على صفحته كحدث جلل، هكذا نشر بعض شهود العيان تلك الأيقونة المعلقة على لوحة الإعلانات من زوايا مختلفة تحت عناوين مثيرة، وهكذا يمكن لآخرين أن يشاهدوا ما يحدث الآن حيًّا أمامهم وهم يطردون النوم من عيونهم، وستتيح لهم التكنولوجيا خاصية أن يُبدوا إعجابهم وأن يضيفوا تعليقات تحمل الكثير من التفسيرات والتنبؤات، كما ستسمح لهم وهم يتناولون قهوة الصباح بإعادة نشر هذا المنشور الغريب والمدهش؛ ليشاركهم آخرون عبر قائمة الأصدقاء مزيدًا من التأويل والتفسير.

بعد ساعتين عرف حازم الخبر من خلال صفحته على الفيس بوك، انتحار د. شادي أبو المجد بميدان التحرير. بالتأكيد لم يصدق، الفيس بوك يُروِّج لإشاعات سخيفة دائمًا، شادي شخصية معروفة، يمكن أن تطاها الإشاعات، تعددت المنشورات في صفحته، لكنه تأكد حينها وصله منشور جديد مشفوعًا بصور عديدة من زوايا مختلفة لهذا المعلق في عليائه.

شاهدَ حازم الصور أكثر من مرة.

في كل مرة تقريبًا كانت تنتابه أحاسيسٌ مختلفة تتراوح ما بين الصدمة الكاملة والارتياح التام، وعدم التصديق، في ظلِّ ارتبائه ذلك تناول هاتفه واتصل بشادي.

لم يرد شادي بالطبع لأنه مُعلق على لوحة الإعلانات، ظلّ ينظر إلى اسم شادي على شاشة الهاتف وهو يظهر ويختفي مع إيقاع رنة الهاتف إلى أن أظلمت الشاشة أمام عينيه، أخذ يدور حول نفسه، ينقر بأطراف أصابعه أرنبه أنفه، تناول هاتفه ثانية، حدّق إلى الصور، شاهدها من كل الاتجاهات والزوايا، كبرّها، حدّق طويلاً في ملامح صديقه القديم، رأى شادي بملاحه الطفولية وبمربلة المدرسة يتدلى من فوق لوحة الإعلانات حاملاً حقيبتيه فوق ظهره، ينمو شادي أمام عينيه سريعاً، ينبت شاربه الدقيق الذي ظل كما هو طوال حياته، تظهر على خده تلك البثور التي ظلت تؤرقه طيلة فترة شبابه، يرتدي شادي نظارة ريبان سوداء بعد أن تموج شعره، كان والده قد أهداها له بعد تفوقه في الثانوية العامة، حين التحق حازم بكلية الشرطة استعار هذه النظارة من شادي، دون أن يُعيدها إليه بعد ذلك رغم إلحاح شادي المتواصل.

رمى حازم الهاتف، ثم رأى شادي يتطوح من فوق لوحة الإعلانات بملامح منتصف العمر وبنظرة المفجوع في امرأة حياته وصديق عمره.

تناول حازم هاتفه ثانية، اتصل بيوسف.

- أه عرفت، مراسل الصحيفة هناك وأكد لي الخبر، كيف ستقول

لسلمى؟

كان هذا هو السؤال الأهم، كيف سيقول لسلمي؟ هل سيفقددها بعد ذلك؟

سيقولها مباشرة صادمة حارقة: "شادي انتحر".

أعاد الاتصال عدة مرات، كانت نائمة. لكنها في النهاية استقبلت مكالمته.

- صباح الخير سلمى، شادي انتحر.

صمتت، تقريباً خبر كهذا لا يمكن للأذن أن تلتقطه من أول مرة، وبالطبع لا يمكن لخبر كهذا أن تسبقه جملة اعتيادية باردة كصباح الخير، لذا أعاد حازم جملة القصيرة ثانية.

- شادي أبو المجد انتحر.

قالها بطيئة مُضيفاً إليها هذه المرة لقب "أبو المجد كزيادة في التأكيد. ساد صمت طويل، لم يصدر عن سلمى نأمة، لكنها بعد فترة كان عليها أن تسأل:

- يعني إيه انتحر؟

سألت سلمى بصيغة استفهام عادية بريئة كأنها تسأل: بكم هذه؟

انتحر يعني انتحر، أجاب حازم، بعدها قالها مضغوطة مُتقطعة طويلة:

انتحر، ثم كأنه فسر، شق نفسه يا سلمى. لكنه وجد أن من الأفضل أن يُرسل إليها صورة شادي المُجنحة كما قد وصلت له، ثم وجد أنه من الأفضل أن يُنهي المكالمة.

فتحت سلمى الملف المرسل لها، بقلق طالعت الصورة، حدقت طويلاً دون أن يصدر عنها أي رد فعل، بعد قليل كانت روحها تتسحب منها ببطء.

لم تستوعب ما الذي يعنيه هذا، ماذا يفعل شادي هناك فوق لوحة الإعلانات؟

هنا تقريباً استوعبت ما قاله حازم، شادي انتحر. نظرت للصور ثانية، لم تستطع أن تصرخ، حاولت وفشلت، ترتجف، تضرب جبهتها بعنف، تجري مفزوعة في أنحاء الأتيليه.

كم أنت قاسٍ يا شادي!

ربما أنا أشد منك قسوة. أنا الذي أتيتُ بك إلى هنا، هل تسامحني يا شادي؟

- أنا لن أسامحك.

أنت لم تعرف ما سأقوله لك الآن، نعيش نحن شخوص الحكايات بعين واحدة، لا ترى أبعد مما هو مسموح لها أن ترى، أنت لم تعرف ذلك، ولم أقل

لك ذلك في حينها لأنه لم يكن يفيد أو يغير، ولا أقوله الآن دفاعاً عن نفسي، فقط أقوله من أجل أن ترقد بسلام، دخلني حازم في لحظة ترنجي، روحي كانت غائمة، لا ترى وجهه القبيح، لم أذكر هذا الوجه إلا حين دخلني، رغم كل هذه السنوات السابقة التي جمعتنا كأصدقاء منذ أن قدمته لي كصديق قديم لك، نعم هو بعينه الحادثين المخيفة، أنفه المدبب، صلعته، ريالته التي تسيل عندما يقتنص ما يريده، كيف لم أذكره قبل ذلك، هو من كان يحقق معي في مبنى أمن الدولة منذ خمس سنوات أو ست لا أذكر، كان يسألني عن أهداف الحركة، عن سبب انضمامي لكفاية، ثم سألني عن نشاطي داخل الأكاديمية، قلت له: إنني لا أمارس النشاط السياسي داخل أروقتها، قال لي: إنه لا يقصد النشاط السياسي، هزرتُ رأسي مستفهمة، أمسك ريموت أحد الشاشات في يده وهو يبتسم بأسنانه الحادة التي تعضض الآن رقبتني، ضغط على زر الريموت، وهو يُحدق ناحيتي، أشار إلى شاشة صغيرة على سطح مكتبه، صعقت مما أرى، حدث ذلك منذ شهر تقريباً، لم أشأ وقتها أن أضخم الموضوع حتى لا يتعقد الأمر، أوضحتُ له ذلك، كما أوضحت له أن هذا الطالب استغل وجودي في إحدى القاعات واقترب مني واحتضنني عنوة، ثم جرى، فبركة واضحة، ظلَّ يرتج من الضحك، ثم سألت ريالته التي تسيل الآن من بين شفتيه، وعدني أن الأمر تحت السيطرة ولا داعي للقلق، قال: سيكون هناك لقاء آخر بيننا، بعدها بشهرين تركتُ كل شيء

وغادرت إلى برلين، نعم هو، كيف لم أتذكره؟ لا يمكن أن أسمح له بذلك، قاومته، كنتُ أحاول أن أدفعه، أن أبعده عني، ظل يتعجب، يحاول أن يسيطر عليّ، لكنني نجحتُ أن أدفعه عني، حينها اقتحمت أنت الغرفة.

أعرف أن ذلك كان قاسياً عليك كما كان قاسياً عليّ.

سلمى لا تشعر بالأرض من تحتها، دهستُ كيتي في طريقها في أثناء هرولتها المرتبكة، دمدمها الخبر تماماً، زلزلها.

لماذا هناك يا شادي؟ لماذا الميدان؟

وصلتُ رسالتك، رسالتك قاسية كما قسوتك.

دون أن تدري وجدتُ نفسها أمام حازم في أحد مقاهي وسط البلد، بالقرب من المشهد الفريد، صممتُ أن تذهب إلى حيثُ شادي، رفض حازم، صعب أن تشاهدي مشهداً كهذا، اضطرَّ أن يوافق أمام عنادها.

حين وصلا كانت عدة دوائر متداخلة من المتابعين الشغوفين قد تشكلت حول لوحة الإعلانات التي كانت تروج لأحد المستحضرات التي تزيد من القدرة الجنسية للرجال، عبر صورة لرجل يمتطي فرساً بينما تتكئ فتاته على ذراعه بعينين منتشيتين ليسحبها إلى أعلى.

أسفل الصورة كُتبت عبارة "من أجل حياة سعيدة" بخط عريض وبلون أحمر فاقع.

تخطيا الدوائر المغلقة بصعوبة، أصبحت أسفل المشهد تمامًا، المشهد الكابوسي كان أكبر من قدرتهما على الاستيعاب أو الإحاطة، كان حتى أكبر من أن ينتج عنهما أي رد فعل سريع وعفوي، ظلَّ مُلجَمين ومبهوتين، ومن ثمَّ يصعب وصف ما كان يتناهما في هذه اللحظة الفاصلة؛ لأنها وكونهما صديقين مُقربين لهذا المُعلق فوق لوحة الإعلانات لا يمكن أن يكونا سوى جزءٍ أصيلٍ من تكوين المشهد وتفصيله، لا يمكن مثلاً أن يلتقطا صوراً بهواتفهما لشادي ليشاهداهما الأصدقاء كحدث استثنائي كما يفعل بعض الحاضرين، ولن يستطيعا أن يهتما بهذا السؤال الشائك لمن يجاورهما: هل مات كافرًا؟

لن تصدر عنهما آهاتٌ توجع أو شفقة أو علامات استنكار ودهشة، ليسا على الحياد، هما في بؤرة الحدث وربما أحد صنّاعه أو مؤسسيه، أو على الأقل وحدهما يمتلكان القدرة على تأويله.

ما كان يشغلها في هذه اللحظة أعمق من كل ذلك؛ نظرة عيني شادي المُصوّبة من أعلى تجاههما، من كل الزوايا ومن مختلف الاتجاهات كان شادي يستطيع أن ينظر إليهما، إليهما فقط، سلمى كانت ترى انعكاس صورتها في عين شادي وبالبحجم الطبيعي، في العين الأخرى كان حازم.

عينا شادي في الأساس كانتا بلون عسلي، الآن تتجلى فيها زرقه مدهشة،
بحيرتان متجاورتان لا يعبث فيهما سوى الصفاء، لم يחדش صفحتها أحد،
فقط تطفو فوقها سخرية لاذعة واضحة وجلية كحوتٍ ضخمٍ يشقُّ الماء.

في محاولة تأويل هذه الزرقه المدهشة، تفسيرات عديدة طرحت نفسها
على سلمى وحازم في أثناء شرودهما، ربما يعود ذلك إلى شيء ما في الموت،
لو اختار الموت لوناً يرتديه حين يحل بجسدنا، سيختار الأزرق بالتأكيد،
ككل الأشياء الغامضة، كالبحر، كالسما، لا يمكن للموت أن يتنطع ويختار
الفوشيا مثلاً! كما لن يختار الأسود؛ لأنه سيجعل الأرواح تفرع وتهرب
منه.

أتكون الزرقه مجرد وهم كاذب استنبته خيالهما في هذه اللحظة لإضفاء
مسحة من قداسة ما على مشهدٍ مرعبٍ وصادمٍ؟ ربما هذا يُعد تفسيراً
مقبولاً.

وربما زرقه عينيه المفاجئة هي دليل براءة ونقاء في مقابل خيانة ووقاحة،
تفسير مزعج وإن كان أكثر واقعية.

ظلَّ حازم وسلمى مشدودين ومعلقين بنظراته الساحرة وزرقه عينيه
المُبهمه إلى أن اقتربت عدة سيارات شرطة، وطالبت الجميع بالابتعاد إلى

الوراء، بعدها تقدّم أحد الأوناشر له رافعة عالية، حملت اثنين من رجال الإسعاف لأعلى من أجل اصطيد هذا المحلق في عليائه، وإنهاء تفاصيل هذا المشهد المرعب.

من أسفل بدا شادي كتمثال ضخم يزعج الجميع ويشوه الميدان؛ لذا كان يجب أن يتم إنزاله سريعاً.

ترجّلاً بعيداً بينما رجال الإسعاف يقومون بعملهم، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر أو يتبادلا كلمة التفت كلاهما إلى الوراء، كلاهما يريد أن يتأكد.

هل عينا شادي المفتوحتان والمحدّقتان ما زالتا تتبعانه في هذه اللحظة كما كانت تحدّقان إليه منذ قليل؟

دون اتفاق أيضاً غير حازم زاوية سيره واتجاهه، فعلت سلمى الشيء ذاته، ثم عاودا النظر للخلف، بعدها التقيا في نقطة، قبض حازم على يد سلمى التي كانت تزحف كسلحفاة مُثقلة بالذنب. ثم تابعا سيرهما الصامت.

مُنتهي

علينا جميعاً الآن أن نتحمل مسؤوليتنا، أنا فعلتُ كل ما يمكنني فعله، استنفدتُ كل ما في جبعتي من أجل أن تصل الحكاية لبر الأمان، الحكاية مثل

سفينة في وسط البحر، لا يمكنها أن تظل هائمة على وجهها طوال حياتها، لا بد لها أن تستقر يوماً على الشاطئ، وسفيتنا الآن عالقة، ولن تستطيع الصمود أكثر من ذلك، إنها تصرخ من أجل أن يحطَّ خشبُها على الرمل. أحذركم بأنها ستتلاشى قريباً.

أنت يا شادي ستتحمل كل الخطايا من أجل أن يستمر العالم، لتكون مسيحنا المخلص، فدون ذلك لن يكون الجمود فقط، سيكون المحو. سيكون الخلاء والفراغ الذي وُلدت أنا فيه، والذي حاولتُ أن أنجب حكايات تشغله، أنا جئتُ من رماد حكاية قديمة تم محو عوالمها وشخوصها حين تبيست الحكاية ونضب خيال السارد العليم. حدث ذلك وأنا نائم، كانت الواحدة تقريباً، فكنتُ أنا ربُّ الحكايات الذي حاول تشكيل العالم بخيالٍ جديد وبحكايات طازجة.

كل مرة ينتهي العالم عند الواحدة صباحاً، أحذركم من كل واحدة صباحاً تقترب، إذا لم يكن هناك حكاية تتفرع منها حكايات أخرى سينتهي العالم عند أي واحدة صباحاً، حكايتنا هذه لن تنتهي كما تتوقعون بعد أن يصعد شادي إلى لوحة الإعلانات، ما سينتهي حياة شادي، يمكن للحكاية

أن تستمر بعد ذلك، بل يجب أن تستمر حتى يستمر العالم، قد تتفرع منها عدة حكايات صغيرة، ومن رحم كل حكاية تُولد عشرات الحكايات.

مثلاً ماذا قد يحدث بين سلمى وحازم بعد انتحار شادي؟

هل سيعود سلطان ذات يوم؟ وإن عاد، هل سيجد فاتن وقد نضب جماها وتآكلت أنوثتها الطاغية في انتظاره تحكي قصته للصغار؟

هل سيتعامل الناس يوماً مع الراقصة ملكة البهجة بما تستحقه من إجلال بعيداً عن الرياء؟

كيف يمكن للدكتور شاكر عودة أن يقضي أيامه الأخيرة؟

هناك تساؤلات عن الدرويش ويوسف وسيدة الحمام صاحبة نظرية المواءمة.

هناك افتراضات كثيرة، واحتمالات لا تنتهي، ومن كل ذلك ستنفجر حكايات جديدة يمكنها أن تمنح العالم حيوات وحيوات لا تنتهي.

العالم قد بُني على الحكاية.

وحين تنتهي الحكايات سيصبح كل شيء مجرد رماد أجوف لحكاية محترقة.

الآن هيا يا شادي.

افعلها يا صديقي، اصعد إلى لوحة الإعلانات، موتك سَيَهَبُ الخلود
للحكاية.

تسلّق يا سيدي بشموخ.

امنح العالم حياة إضافية.

(لا تقولوا: تَمَّتْ

إن تَمَّتْ حَلَّ فناؤكم).

